الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فهذا كتاب العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى عليه، وبين يدي هذا الكتاب سنضع مقدمةً نافعةً إن شاء الله لطالب العلم تكون توطئة لما يتعلق بعلم العقيدة وما ينبغي أن تُؤسس عليه وذلك في فقرات إن شاء الله تعالى تأتي، أولها التأكيد على أهمية دراسة العقيدة وعدم التفريط فيها، فإن العقيدة هي الأساس وهي الأصل، ومعلوم أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكث في مكة ثلاثة عشر سَنَة، في هذه السَّنوات العظام كان يؤسس العقيدة صلوات الله وسلامه عليه، ومن دلائل الحكمة العظيمة في التشريع الإلهي أنْ تأخرت معظمُ التشريعات إلى أن هاجر إلى المدينة صلوات الله وسلامه عليه، مع أن بعض التشريعات التي شُرعت في المدينة من أركان الإسلام، فتأخر تشريع صوم رمضان وتأخر تشريع الحج وتأخر تشريع الزكاة ذات الأنصبة وتأخر تشريعات كثيرة جدًا، فكان صلوات الله وسلامه عليه يؤسس على العقيدة، وهذا كله يؤكد على أهمية بناء الأمَّة على العقيدة، ولو تأملت الآن وضع الأمَّة لا تجد فترة عزّ وقوة للأمة إلا في حال قوة للعقيدة، ولا تجد فترة ذل ومهانة وتشتت وفرقة إلا في حالة ضعف العقيدة، لأنها هي الأساس وهي الأصل الذي يُبنى عليه ما بعده، لذلك ينبغي على طالب العلم أن يعتني بأمر العقيدة ودراستها، وذلك يكون كما هو معلوم بالتدرج في علم العقيدة بدءًا من المتون المعروفة ووصولًا إلى الأهم والأجلّ والأكبر وهو التدليل على مسائل العقيدة.

لا يوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يقول اعتقدوا كذا لأني أقولهّ، نهائيًا كائنًا ما كان كما سيأتي إن شاء الله، العقيدة في القرآن والسُّنَّة وفي إجماع السلف رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فلا بد من العناية بدراسة علم العقيدة مما سيأتي إن شاء الله الكلام على شيء منه الآن بإذن الله.

الأمر الآخر هذه العقيدة هي عقيدة أهل السُّنَّة، ويأتي الكلام بإذن الله تعالى أيضًا في كلام الشيخ رحمه الله على أن كلمة أهل السُّنَّة ينبغي أن تضبط ويُعرف الإطلاقان اللذان يطلقان ويراد بهما تارة أهل السُّنَّة العامة وتارةً أهل السُّنَّة الخاصة وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام عليها.

الأمر الثالث: ضرورة العناية بأدلة العقيدة، أدلة العقيدة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال السلف، وعدم الاكتفاء بالمتون، فالمتون كما هو معلوم المراد بها ومقصد من صنفوها رحمة الله تعالى عليهم في الأساس يقصد

بها المرور على مسائل الاعتقاد التي عليها أهل السُّنَّة ولهذا قد تخلو المتون من التدليل، لأن من صنف هذا المتن مراده من طالب العلم أن يعرف مسائل الاعتقاد إجمالًا لينتقل إلى المرحلة التي بعدها وهي التأسيس لهذه المسائل بربطها بالأدلة، وقد يوجد في المتون كما في هذا الكتاب المبارك قد يوجد فيها تدليل وذكر آيات وأحاديث لكن سترى إن شاء الله تعالى أن ثَمَّةَ مواضع في هذا الكتاب لم يُدلل عليها المصنف رحمه الله لأن من شأن المتون الاختصار في العموم الأغلب أن تكون مختصرة والغالب أنه لا يتوسع في المسائل فيها إلا لحالة معينة كأن يُحتاج إلى بيان مسألة أو الرد على بدعة نشأت في زمن المؤلف أو نحو ذلك، لكن الأصل أن يمروا على مسائل الاعتقاد أو أن يصنفوا متنًا في مسألة في العقيدة مسألة محددة من العقيدة يراد بيانها بجميع فروعها كمسألة توحيد العبادة كمسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد، معظم ما في كتاب التوحيد تركيز على تأصيل توحيد العبادة والتحذير من ضده وهو الشرك وإن كان ذكر أشياء أخرى متعلقة بالأسماء والصفات والقدر وغيرها، لكن مراده الأساس هو توحيد العبادة. فينبغي أن يُلاحظ هذا وهو أهمية بناء العقيدة على التدليل من كتاب الله تعالى ومن سُنَّةِ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم.

الأمر الرابع يتعلق بهذا الكتاب أو بهذا الجزء وهي العقيدة الواسطية، الواسطية نسبة إلى ماذا؟ نسبة إلى بلدة هي بلدة واسط، حيث طلب بعضُ أهل واسط من شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن يتحدث عن العقيدة ويُبيّنها ولا سيما في زمن كان فيه اختلاف كثير وظهور لكلام المبتدعة فسميت باسم البلد الذي طلب الرجل من أهل واسط أن تكتب العقيدة لها.

حدث لشيخ الإسلام رحمه الله تعالى امتحان، وتَكَالَبَ أهلُ البدع عليه كما هو معلوم حتى سجن عدة مرات رحمة الله تعالى عليه، وكان مما ناقشوه في هذه العقيدة - العقيدة الواسطية -، لما طال النقاش بينه وبين المبتدعة وكان معظمهم من الصوفية والأشاعرة، كان لهم صولة في تلك الفترة فأراد الوالي أن يحسم النقاش ويقول ابن تيمية على عقيدة أحمد ابن حنبل وأنتم على عقيدة الأئمة المتبوعين الآخرين فهذا على عقيدة الشافعي وهذا على عقيدة مالك وهذا على عقيدة أبي حنيفة وكل أحدٍ يعذر الآخر؛ فأبى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، قال: هذه العقيدة ليست عقيدة أحمد بل هي عقيدة الأئمة كلهم، فإن مذهب السلف موجود من قبل أن يخلق اللهُ أحمد وأبا حنيفة ومالكًا والشافعي، يعني أبى هذه المحاولة من الحاكم أن يجعل نوعًا من

أنواع التقريب، يعني يقول: هذا على رأي أحمد ابن حنبل وأنتم على رأي الشافعي هؤلاء، وهذا غير صحيح الأئمة رحمة الله عليهم على اعتقاد واحد.

فكون الأمور تُحسم بمثل هذه الطريقة فهذا حكم غير صحيح، لأن معناه أن يُقَرَّ ما عليه أهل الباطل ويُنسب لهؤلاء الأئمة الذين يبرؤون لله تعالى مما أحدث المتأخرون وإن انتسبوا لهم في باب الفقه، وهذه المسألة عظمت الفتنة بها في الحقيقة، الفتنة عظمت جدًا لهذه المسألة، حيث وُجِدَ من ينتمي إلى الأئمة رحمهم الله تعالى في المذهب الفقهي ولكن اعتقاده على خلاف مذهب هؤلاء الأئمة، وقد بيَّن ذلك شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في المجلد الأول من الاستقامة في الصفحة الثالثة عشرة إلى الصفحة السادسة عشرة، بيَّن أن من المتأخرين من قلب المسألة فجعل السُّنَّة التي مدحها الأئمة وأثنوا عليها جعلها هي البدعة وجعل البدعة التي عليها المتأخرين وذمها الأئمة جعلها هي السُّنَّة التي مدحها الأئمة! ولهذا يسوقون كلام الأئمة في مدح السُّنَّة كأنه مدح لبدعتهم، ويسوقون كلام الأئمة في ذم البدعة ويحولونه إلى السُّنَّة، هذا في الحقيقة أنه من التلبيس على عباد الله، ولكن الشأن فيه كما قال ابن القيم رحمه الله: (من حرف النص العظيم؛ فكيف لا يأتي بتحريف على إنسان) الذين حرفوا نصوص القرآن والسُّنَّة لا يصعب عليهم أن يأتوا بتحريفٍ على الأئمة رحمهم الله تعالى.

فالحاصل أنه ينبغي أن يضبط أن اعتقاد الأئمة رحمهم الله تعالى على مذهب السلف الصالح رحمة الله تعالى عنهم، وأن القول بأن فرقة من الفرق كالأشعرية مثلًا على مذهب الشافعي غير صحيح البتة، هذا غير صحيح، ولا يليق أن يقال، للشافعي رحمه الله اعتقاد مضبوط وموجود في كتابه العظيم الرسالة وفي كتابه الأم وفي ما روي عنه بالأسانيد الثابتة، اعتقاده واضح جدًا هو نفس اعتقاد السلف بلا ريب، وإنما نَبُلَ هؤلاء الأئمة وارتفعوا بلزومهم لما عليه السلف رضي الله عنهم، فينبغي أن يلاحظ هذا أن الأئمة يتناقشون ويختلفون في مسائل الفقه كما كان الصحابة رضي الله عنهم قبلهم يختلفون، أما الاعتقاد فلا يصح فيه الاختلاف، الاعتقاد هو اعتقاد أهل السلف كما قال به شيخ الإسلام، فإن مذهب السلف كان موجودًا قبل أن يخلق اللهُ أحمد ومالكًا وأبا حنيفة والشافعي، ولها قال في موضع نفيس جدًا رحمه الله قال: لم يأخذ أهل السُّنَّة من أحمد حرفًا واحدًا في الاعتقاد، لا شك بهذا، ما يعرف إلا طالب العلم هذا، نحن لا نأخذ الاعتقاد لا من أحمد ولا من غير أحمد، مستحيل أن تؤخذ العقيدة من أحمد بن حنبل، العقيدة قبل أحمد ابن حنبل،

نَبُل أحمد والشافعي ومالك والسفيانان والبخاري ومسلم وأمثالهم نبُلوا لأنهم استمسكوا بهدي السلف الصالح، ولو جاؤوا بعقيدة على خلاف عقيدة السلف لكانوا من المبتدعة وحاشاهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فالاعتقاد لا شك أنه مؤسس على طريقة السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وهو الذي ينبغي أن يُقرر، ولهذا قلنا إنه ينبغي أن يعرف في الأصول وأن يدلل عليه حتى يكون طالب العلم على بصيرة، ومن أكثر ما نُنبه عليه ونحرض طلبة العلم عليه أن يستفيدوا ويقتنوا الكتب العقدية المسندة، الكتب التي تروي الاعتقاد عن السلف، فيروي لك المصنف بسنده العقيدة عن الصحابة ويروي بسنده العقيدة عن التابعين حتى تؤسس تأسيسًا صحيحًا، لأنه لو قال لك قائل: هذه العقيدة الواسطية ابتدع بها ابن تيمية بدعًا لا أساس لها وقال: إنها من كلام السلف! كيف ترد عليه؟ تقول: الاعتقاد قبل ابن تيمية كما أنه قبل أحمد وقبل مالك وقبل الشافعي، سأروي لك الاعتقاد عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المقام الأول - بعد القرآن قطعًا - وأروي لك أن هذا هو الاعتقاد عن الصحابة والتابعين وعن أئمة الإسلام قبل أن يُوجد ابن تيمية، ثم تأخذ الواسطية وغير الواسطية وتجعلها منظمة على طريقة السلف الصالح فتجد أن العقيدة الواسطية على نفس ما عليه السلف الصالح، وهذا يحتاج منك إلى العناية بالكتب المسندة العقدية، ومن أنفسها كتاب شرح أصول الاعتقاد للالكائي رحمة الله تعالى عليه، والشريعة للآجري، والسُّنَّة لعبد الله بن أحمد، والسُّنَّة لابن أبي عاصم، والسُّنَّة للخلال، وأمثالهم، وهكذا أيضًا فيما يتعلق بعقيدة الأئمة كالبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبي داود، أين نجد عقيدتهم؟ نجد عقيدتهم في كتبهم هم، فإذا أردت أن تعرف عقيدة البخاري رحمه الله تعالى في القدر انظر كتاب القدر في صحيح البخاري، عقيدته في التوحيد انظر عقيدته في كتاب التوحيد في صحيح البخاري، عقيدته في الإيمان انظر كتاب الإيمان في صحيح البخاري، وهكذا ما يتعلق بأبي داود وما يتعلق بابن ماجه رحمهم الله وغيرهم، تُعرف عقيدهم من خلال تراجمهم التي ترجموا عليها الترجمة الدالة على أنهم على طريقة أهل السُّنَّة، فتتأسس هنا تأسيسًا كبيرًا حاصله أن هذه العقيدة مبنية على كتاب الله وعلى سُنَّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وعلى ما عليه السلف رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وبناءً عليه فإن أهل السُّنَّة لا ينتسبون في هذا الزمن ولا ما بعده ولا ما قبله؛ لا ينتسبون إلا إلى السُّنَّة، فأهل السُّنَّة ينتسبون إلى السُّنَّة، ولهذا التسميات التي يتسمى بها أهل السُّنَّة إذا تأملتها تجدها تسميات غير

ضيقة، فاسمهم أهل السُّنَّة، أهل الحديث، أهل الأثر، أي أنهم يرجعون في هذا إلى ما كان عليه النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، فأهل الأثر المأثور، أهل الحديث - الحديث المعروف -، أهل السُّنَّة أيضًا السُّنَّة واضحة، فلا يتسمون باسم غير السُّنَّة والجماعة، وهذا أمر مهم جدًا للمسلمين وبخاصة اليوم، لأن هذا الأمر كان جليًا واضحًا فيمن قبلنا، لكن اختلف الحال، ولا سيما في فترات الغربة التي تحل بالأمَّة في آخر الزمان، ووجود من يحاول أن يجتهد هنا وهناك ليجمع الأمَّة على درب يرى أن فيه سعادتها ونجاتها، فيقال: لا تجمع الأمَّة إلا على السُّنَّة، وليس لأحد أن يجعل تحزبًا ضيقًا يجمع عليه الناس، لأن غيرك سيفعل نفس الشيء فيكون هاهنا تحزب وهنا تحزب فتتقطع الأمَّة بدلًا من أن تتفق، أما إذا جُمعت الأمَّة على السُّنَّة فالسُّنَّة جامعة تجمع الجميع، لكن إذا ارتضينا بهذه التحزبات الضيقة فلا شك أننا في هذه الحالة نضرُّ من حيث قد نظن أننا ننفع، لا شك أن بعض الناس يظن أن هذه الطريقة تنفع، لكن الواقع أنها تضر، ولهذا لا نرتضي أي تسمية سوى التسمية بالسُّنَّة، قال صلّى الله عليه وسلّم: «فادعوا المسلمين بما سماهم الله به، المسلمين المؤمنين عباد الله»، الحديث هذا صحيح رواه أحمد والترمذي والنسائي، انظر ماذا أمر به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١)، فالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «فادعوا المسلمين بما سماهم الله، المسلمين المؤمنين عباد الله» بما تتميز هذه التسميات بأنها جامعة، تسمية على الإسلام، تسمية على الإيمان، تسمية على العبودية لله عزّ وجلّ، ولهذا كان السلف يؤكدون على أمر التسمية وأن ينتسب المسلمون إلى الإسلام وإلى السُّنَّة، فلما سئل أبو بكر ابن عياش رحمه الله تعالى من هو السُّنِّيّ؟ قال: (الذي إذا ذُكِرت الأهواء لم يتعصب لشيء منها) هو من أهل السُّنَّة؛ فإذا ذكر الهوى الفلاني أو الهوى لا يتعصب لشيء منها.

سُئِلَ الإمامُ مالك رحمه الله من أهل السُّنَّة؟ قال: (الذين ليس لهم لقب يُعرفون به)، لأن كلمة أهل السُّنَّة كافية في التعرفة، لكن تريد أن تكون من أهل السُّنَّة وتتسمى داخل أهل السُّنَّة باسم! فكلمة أهل السُّنَّة كافية، وعرف عظم قدر هذا الاسم، وسئل رحمه الله تعالى ما السُّنَّة؟ السؤال الأول من أهل السُّنَّة؟ السؤال الآن عن السُّنَّة، ما السُّنَّة؟ قال: ما لا اسم له إلا السُّنَّة، تريد أن تعرف ما هي السُّنَّة؟ السُّنَّة هي السُّنَّة، لا نستطيع أن نُعَرِّفَ السُّنَّة إلا بالسُّنَّة، قال ابن القيم رحمه الله تعالى بيانًا لكلام مالك يعني أن أهل

(١) الحج: ٧٨.

السُّنَّة ليس لهم اسم يُنسبون إليه سواها، في زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله - الخليفة العادل - بلغه أن أناسًا من المسلمين تداعوا إلى الحلف - فيما بينهم أرادوا أن يجعلوه مثل الحلف -، فكتب رحمه الله تعالى كتابًا يُذَكِّرُ فيه بنعمة الإسلام وبوجوب التآخي على الإسلام وحده وترك التداعي إلى أي حلف سواه، وقال رحمه الله تعالى: (وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حكمًا أو دون الله ورسوله والمؤمنين وليًا تحذيرًا بعد تحذير وتذكيرًا بعد تذكير، وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابّة والذي هو أقرب إلى العبد من حبل الوريد) يقول: لا تتداعوا فيما بينكم إلى أحلاف ضيقة، حلف الإسلام والسُّنَّة هو الذي ينبغي لزومُه بحيث يكون الخارج عن هذا الإسلام خارج إلى الكفر أو الخارج عن السُّنَّة يكون خارجًا إلى بدعة، تأتي فتقول: أنا من أهل السُّنَّة ولي اسم! ويأتي غيرك ويقول: أنا من أهل السُّنَّة ولي اسم! تقطعت السُّنَّة وضاعت الناس في هذه السبل، ومن نفيس الآثار الواردة في هذا الباب أن مُطَرِّفَ بن عبد الله - وهو من كبار التابعين وأبوه الصحابي الجليل عبد الله ابن الشخير رضي الله عنه - مطرف كان يأتي مجلس زيد ابن صوحان وفيه علم ووعظ، جاء إليهم مرّة وإذا بهم قد كتبوا كتابًا فيما بينهم قالوا فيه واسمع ما قالوا، ما قالوا إلا كلامًا حقًا: الله ربنا ومحمد نبيّنا والقرآن إمامنا – كل هذا متفق عليه بين المسلمين - لكن قالوا: من كان معنا كنا وكنا له إلى آخره، من كان معنا، يقول: وكانوا قريبًا من الثلاثين فمروا بالكتاب يقولون لكل حاضر تقرُّ بهذا؟ فيقول: نعم، ثم الذي بجانبه تقرُّ بهذا؟ فيقول: نعم؛ حتى أتوا إلى مطرف وكان غلامًا وهو أصغر الموجودين فقالوا: تقرُّ بهذا يا غلام؟ فقال: لا، استعظموا هذا الكلام، الله ربنا ومحمد نبيّنا والقرآن إمامنا، كيف يقول هذا الصبي لا! فقال زيد: لا تعجلوا على الغلام حتى يتأكد ينظر ماذا يريد، ما تقول يا غلام؟ قال: إن الله قد أخذ عليَّ عهدًا في كتابه فلن أحدث عهدًا سوى العهد الذي أخذه الله عزّ وجلّ عليَّ، قال فرجع القوم من عند آخرهم ما أقرَّ به أحد، لأنهم شعروا مع أن مطرفًا رحمه الله تعالى هو أصغر الموجودين وكان غلامًا يخاطبونه ما تقول يا غلام؟ ولكن من طلب الحق لا يكترث هل أتاه الحق من طريق غلام أو من غيره، إذا أُحدِث مثل هذا في ثلاثين ثم أُحدِث في أربعين كتابًا آخر ثم أحدث في مثلهم كتاب آخر من كان معنا كنا معه ومعنى ذلك أن من لم يكن معنا نكون ضده، قال: يكفينا العهد الذي أخذه الله تعالى عليَّ، يسعني يسعكم يسع أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم كلها، قال: فرجعوا من عند آخرهم، أدركوا أن ما صنعوه ليس بصواب وليس بسليم، هذا ما نؤكد عليه.

غرض السلف أن يكون المسلمون أمة واحدة، لا تخرق هذه الأمَّة بهذه التحزبات الضيقة ولا بهذه الدعوات والانتماءات، بل يلزمون جماعة واحدة، ويصبرون على ما يوجد في الجماعة من خلل والمنكرات مع السعي في إزالتها والإنشاد على أصحابها داخل نطاق الجماعة، فالمسلم الموفق كالغيث حيثما وقع نفع، فتجد مصداق هذا متى؟ إذا توفي طالب العلم والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وجدت فراغًا كبيرًا قد خلفه، لِمَ؟ لأنه كان يعلم جاهلًا، يُذَكِّرُ غافلًا، ينكر منكرًا، يأمر بمعروف، داخل الجماعة، فتكون داخل الجماعة تأمر بالمعروف تنهى عن المنكر داخل الجماعة التي قال صلّى الله عليه وسلّم: «من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية» فيصبر على الجماعة، معلوم أن الجماعة قد يوجد فيها ظلم ويوجد فيها تعدي ويوجد فيها ما أخبر عليه الصّلاة والسّلام من الأثرة الاستئثار بالشيء العام، يستأثر به من لا يحل له أن يستأثر به لأنه أمر عام، فأمر عليه الصّلاة والسّلام بالصبر ولزوم الجماعة مع وجود هذه الأثرة، قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما ثبت عنه: (ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة) الذي تكرهونه في الجماعة؛ أنت الآن في الجماعة تلاحظ أشياء تبغضها من منكرات ظاهرة، بعضها عسر إنكارُه، وبعضه يتجذر ويتعمق وبعضه يتكرر، المؤمن الذي يخاف الله يكرهها ويخاف من عاقبتها أن يعاقب بسببها، لكنك تنكرها داخل الجماعة، هذه الأشياء التي تنكرها وتكرهها، ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة، لو أنها – والعياذ بالله - صارت فرقة فالوضع في الفرقة أسوء من هذه الأشياء التي تكرهها، لأن الفرقة شرّ وعذاب، فهذا مما ينبغي أن يُلاحظ وأن يُحرص عليه، لكن ينبغي أن يكون طالب العلم حكيمًا عاقلًا، هذه التحزبات أيها الأخوة التي وقعت في الأمَّة هي وقعت في الأمَّة منذ مدد طويلة، ومن دعوا إليها غلفوها بغلاف من الحرص على الأمَّة والدأب، فينبغي أن يكون طالب العلم حكيمًا عاقلًا، ينبغي أن يحرص على انتشال هؤلاء الذين وقعوا في التحزب بطريقة العقلاء، بطريقة الحكماء، لأن هذه التحزبات قد ضربت جذورها في أنحاء الأمَّة، فلا تتصور أنت بأنك ستزيلها بكلمتين أو ثلاث أو بكتاب أو بكتابين، تحتاج في مثل هذه الأمور إلى شيء من الصبر والتأني، واعلم أن من طبيعة من يتحزب أن الحق يضيق عنده حتى لا يراه إلا داخل حزبه، فليس من السهل أن تزحزحه إلا بشيء من الحكمة والتأني، ولهذا بعض من يقاومون التحزب ليتهم لا يقاومونه؛ لأنهم لا يزيدون المتحزبين إلا عنادًا وإصرارًا لأنهم غير حكماء، ما أعطوا الحكمة، فليتهم كفّوا وتركوا مثل هذه المجالات للحكيم الذي يُحسن التعامل مع هذه الأمور، هذه الأمور أيها الأخوة التي تجذرت في الأمَّة

وتعمقت ينبغي أن تزال بنوع من الحكمة، وخذ هذا المثال لأن من طبيعة الشاب الفوران، من طبيعة الشاب أنه إذا أحب الأمر فإنه يُصرُّ عليه إصرارًا، فإذا أتيته بعنف أتاك بأعنف وأعنف، لأن من طبيعة الشاب أنه عنيف وأنه بعيد عن الحكمة وعن البصيرة، فإذا وجد من لا يتعامل معه التعامل الحكيم فإنه قد يزيد عنادًا، ومقصود المُنْكِر للمُنْكَر مهم جدًا فيما يطلع الله عليه في قلبه، التحزب منكر، لكن مقصد هذا الذي يقاوم التحزب ما هو؟ ينبغي أن يكون قصدُه بيانُ الحق والرفق بهؤلاء لينتشلوا؛ لا أن يكون قصده أن يفرغ كلمات يصيح بها ويتلفظ بها ثم يذهب ثم تكون كلماته هذه مثل السم الزعاف، كلمات غير مضبوطة، كلمات فيها تعدي على حدود الشرع إلى حد استخدام الألفاظ المحرمة شرعًا والتي فيها نوع حتى من التدني والعبارات التي وصلت إلى حد التسفّل، هذا ليس علاجًا، هذا بمثابة سكب البنزين على النار، هؤلاء لا يحسنون وغير موفقين، ولهذا انظر إلى تعامل أهل العلم الراسخين كيف أن في دعوتهم شيء من الرحمة، كل من وقع في خطأ، في معصية، في بدعة، فينبغي أن تُلاحظ أمر الرحمة فيه، لأن بعض هؤلاء وقعوا فيه - ولاسيما أقصد في مجال البدع - وقعوا فيها يظنون أنهم على سبيل صحيح، فإذا أتاهم الحكيم الموفق المسدد لا شك أن ذلك أدعى لأن يستجيبوا، فإن لم يستجيبوا فإنه يقيم الحجة عليهم، أما الصراخ والعويل والألفاظ النابية هذه يا أخوة لا تنفع لا تهدي وليست من الهدي السليم الصحيح، ولهذا أضحت هذه المسائل بمثابة النار المشتعلة، ينبغي أن تُطفئ هذه النار بهدوء وتَعَقُّل، ولو جربت أسلوب الحكمة والرزانة وأسلوب نقل كلام السلف وهو الذي نؤكده على طلبة العلم، انقل كلام السلف، انقل مثل هذه العبارات التي قلناها، أثرها كبيرة جدًا، لأن السلف الأمَّة مجمعة على أنه محل التقدير والرفعة، فتنقل هذا الكلام عن السلف، تترفق بالخلق، الشباب بحاجة إلى شيء من الرفق، ومن أنفس ما مرَّ من تعامل السلف مع الشباب أن صِلَة بن أشيم رضي الله عنه كان من العُبَّاد المشاهير - رجل طاعن في السن كبير - مرَّ أحد الشباب بأصحاب صلة وهو مسبل إزاره يسحبه فأراد أصحاب صلة أن يتنكروا عليه وينالوه بألسنتهم فقال لهم: أتركوه، أنا أكفيكموه، فنادى إليه هذا الرجل المسنّ الكبير وقال له – لاحظوا العبارات - يا ابن أخي لي إليك حاجة – نعم بحاجة؛ أنا عندي طلب - فقال الشاب: نعم؛ وما هي؟ قال: أن ترفع إزارك، فقال الشاب: نعم وكرامة عين – يعني أبشر – ورفع الرجل إزاره، فرجع صلة - وهذا الشاهد - إلى أصحابه فقال: هذا أحسن مما لو تناولتموه بألسنتكم فتناولكم بلسانه، يعني أنتم إذا شتمتموه وسببتموه سيسكت؟ سيعطيكم أضعافًا، وإذا

كنتم طلبة علم قد تتناولونه بعنف ولكن بألفاظ قد لا تكون نابية فسيعطيكم أنتم ألفاظًا نابية، فهذا الذي ينبغي في مجال التعامل، هناك تغرير كبير بالشباب، وهناك سنوات طويلة جدًا مرّت على هؤلاء الشباب قل أن يسمعوا فيها شيئًا مما ينبغي أن يسمعوه من أمر التحزب ووجوب أن تجتمع الأمَّة على جماعة، فحتى توصل هذا الصوت أوصله بحكمة واعرضه بأحسن ما يكون من العرض، لأن الحق قوي في ذاته – في ذاته هو قوي - فينبغي أن يُحمل في طبق نظيف وفي أسلوب سليم حتى تتقبله النفوس، أما إذا حُمِلَ الحق في أسلوب سيء فهو كالطعام اللذيذ الذي يوضع في طبق متسخ، فينبغي أن يُلاحظ هذا وأن يُترفق بالناس وأن يُسعى إلى إزالة هذه الأمور بالروية والحكمة، وكل من جرب عرف الفرق، كل من جرب هذا الأسلوب أو هذا الأسلوب يجد الفرق كبيرًا جدًا في الناس، فينبغي أن يُلاحظ هذا وأن يُتقى الله سبحانه وتعالى وأن يُحرص، يَحرِص طالب العلم، يحرص الداعي إلى الله على أن لا تكون المسألة كلمات يُعَبِّر عنها؛ يُخرج ما في مكنونه ويمضي! لا بد أن تُسبق هذه الكلمات بنية صالحة ومقصد أن يهدي الله عزّ وجلّ هؤلاء الذين زاغوا عن السُّنَّة سواء في بدعة أو في جانب تحزب أو غيره أن يهديهم الله تعالى فيكون هذا هو القصد، ثم الأسلوب المتناسب مع الداعي إلى الله تعالى الذي يعلم أن مثل هذه الأمور تخفى على كثير من الناس، كثير من الناس تخفى عليهم، فيُحتاج إلى عرضها العرض السليم، وأما الوضع الحالي لهذه المنازعات وبهذه الألفاظ النابية التي أضحكت على أهل السُّنَّة الروافض والليبراليين والعلمانيين واليهود والنصارى؛ فهذا ليس أسلوب العقلاء، ليس هذا من أساليب العقلاء ولا من أساليب العلماء.

الأمر الخامس: معلوم أن العقيدة هي أمر متفق عليه بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالاعتقاد عندهم واحد بلا شك، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١)، هذه دعوة تعمُّ جميعَ الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢)، وفصّل الله في أخبار الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ما الذي طلبه الأنبياء من قومهم وما الذي ردّه قومهم عليهم، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

(١) النحل: ٣٦.
(٢) الأنبياء: ٢٥.

غَيْرُهُ﴾(١)، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٢)، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٣)، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٤)، فدعوة الرسل هي التوحيد عليهم صلوات الله وسلامه، ولذلك قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «الأنبياء أخوة لعلّات، دينهم واحد وأمهاتهم شتى» أخوة العلات هم الذين أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفات، قال صلّى الله عليه وسلّم: «الأنبياء أخوة لعلّات، دينهم واحد» وهو العقيدة التوحيد متفق عليه عند جميع الأنبياء، لا يمكن أن تجد عند نوح عقيدة تخالف العقيدة التي عند إبراهيم أو عند موسى أو عند محمد صلّى الله عليهم وسلّم جميعًا، فكلهم في جانب العقيدة لا شك أنهم متفقون، «وأمهاتهم شتى» يحل في شريعة هذا النَّبيّ ما يكون حرامًا بشريعة غيره، يجب في شريعة هذا النَّبيّ ما لم يكن واجبًا في شريعة غيره، من الأحكام تتفاوت، أما العقيدة فمن المحال أن تتفاوت العقيدة، العقيدة واحدة، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: (الدين في التوحيد دين واحدٌ، لم يختلف منهم عليه اثنان)، فالدين في جانب العقيدة واحد، ولهذا الذي يوفق للعقيدة الصحيحة تكون عقيدته هي عقيدة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وهي التي ارتضاها اللهُ سبحانه وتعالى، ولهذا إذا خولفت هذه العقيدة من قبل الألوف والملايين فلا يكترث الموفقُ للعقيدة الصحيحة، بل يَحْنَف اليمين عن جميع الباطل، وهذا الذي سُمِّي به ابراهيم عليه الصّلاة والسّلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا﴾(٥)، حنيفًا مائلًا لأن الحنف هو الميل، مائلًا عن دروب الشرك وعن الباطل لأنه كان على صراطٍ مستقيمٍ عليه الصّلاة والسّلام.

شيخ الإسلام هنا عليه ركّز رحمة الله تعالى في الواسطية كثيرًا جدًا على جانب التوحيد، وإن كان رحمه الله ذكر القدر والصحابة رضي الله عنهم ذكر مسائل أخرى لكنه ركّز على التوحيد كثيرًا جدًا وبالذات توحيد الأسماء والصفات، وسنذكر إن شاء الله تعالى كلامًا عنه الآن.

---

(١) الأعراف: ٥٩.
(٢) الأعراف: ٦٥.
(٣) الأعراف: ٧٣.
(٤) الأعراف: ٨٥.
(٥) النحل: ١٢٠.

يقول فيما يتعلق بالتوحيد، تعريفه: هو إفراد الله بما يختص به، هذا هو التوحيد، لإفراد الله بما يختص به، وما الذي يختص الله تعالى به؟ يختص بأمور ثلاثة: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ولهذا ما هو الشرك؟ ما الشرك؟ الشرك تعرفه إذا عرفت تعريف التوحيد، فإذا كان التوحيد هو إفراد الله تعالى بما يختص به فالشرك هو جعل شريك مع الله تعالى فيما يختص به، فمن جعل لله تعالى شريكًا في الربوبية فعنده شرك بالربوبية، ومن جعل لله شريكًا في الألوهية فعنده شرك بالألوهية، ومن جعل لله شريكًا في الأسماء والصفات فعنده شرك في الأسماء والصفات، وقد يجعل شركًا - عياذًا بالله - في هذه الأمور الثلاثة، لكن الغالب والأكثر هو وقوع الشرك في الألوهية، فإن كفار قريش ومن قبلهم من أعداء الرسل من الواضح جدًا في نصوص القرآن أنهم كانوا يقرّون أن الله هو ربهم، ودل على هذا نصوص كثيرة كقوله تعالى في أكثر من آية (ولئن سألتهم) ثم يُسألون عن أمور الربوبية ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾(١)، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٢)، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾(٣)، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٤)، كل هذه الأسئلة يجيبون عليها بجواب واحد أن الذي إليه هذا هو الله وحده لا شريك له، فعندهم إقرار بالربوبية لكن عندهم شرك في العبادة، ولهذا قد يوجد عند المشرك شرك في جانب مع الإقرار بجانب آخر من جوانب التوحيد فيقال: لا بد أن يكون موحدًا في هذه الجوانب الثلاثة وإلا فعنده شرك، وأشهر الشرك الذي وقع وأكثره الشرك في جانب العبادة، والذي لأجله بعثت الرسل وأنزلت الكتب وإلا فالأمم مقرَّة بالله عزَّ وجلّ ومن زعم أنه جاحد للربوبية فهو كاذب، ولهذا قال موسى صلوات الله وسلامه عليه لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٥) أنت تعلم، تقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(٦)، تقول: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٧)، لكن

(١) الزخرف: ٨٧.
(٢) العنكبوت: ٦١.
(٣) العنكبوت: ٦٣.
(٤) يونس: ٣١.
(٥) الإسراء: ١٠٢.
(٦) القصص: ٣٨.
(٧) الشعراء: ٢٣.

أنت تعلم كذبك وأن الرب سبحانه لا يمكن أن يكون محل جحد، ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١)، قال تعالى في الآيات قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًا﴾(٢) فالأمم مقرَّة بالربوبية، وإنما كان الشرك في العموم الأغلب في جانب توحيد العبادة.

شيخ الإسلام هنا رحمه الله تعالى ركَّز على جانب الأسماء والصفات، وذلك أن جانب الأسماء والصفات قد وقع فيه إفراط وتفريط ككثير من مسائل العقيدة، كثير من مسائل العقيدة يقع فيه إفراط أو تفريط، وهذا إن شاء الله سيأتي في أثناء شرحنا للكتاب.

لمّا انبعث في الأمَّة مجموعة من الضُّلّال الزائغين لمّا كثرت الفتوحات واختلط المسلمون بغير المسلمين حصل له حاصل اليوم من دخول بعض من ليسوا من أهل العلم في مناقشة أهل الكفر، والكفار أنواع الذين فتحت بلادهم، منهم من لا يقر بالنبوّة كالبراهمة الهنود وأمثالهم، ومنهم من هو على دينه في الأوثان، ومنهم من هم يهود ومنهم من هم نصارى وكثيرٌ منهم أيضًا ولا سيما في جهات الهند ونحوها لديهم جملة من الطقوس والعبادات التي عُرِفَ بها الآسيويون في جهات الهند ونحوها، مجموعة من العقائد الزائغة، هؤلاء لا يصلح - لا سابقًا ولا لاحقًا - أن يدخل في مناقشتهم إلا من هو من أهل العلم، فدخل في مناقشتهم من ليسوا من أهل العلم، فانتقلت جملة من عقائد هؤلاء القوم انتقلت إلى المسلمين على يد أناس من هذه الأمَّة، وإلا فأولئك القوم عقائدهم وكفرهم وشركهم كانوا في منأى، وكان مما يؤخذ عليهم أيضًا لا يظهروه، أن أهل الذمّة يلزمون بأن لا يظهروا كفرهم، فكانت أمورهم في معابدهم وفي وسط بيوتهم لا يظهر منها شيء، فجاء من لم يوفق وصار يناقشهم ولم يكن من أهل العلم كما هو حاصل الآن من بعض من يناقشون إما ملاحدة أو رافضة وغيرهم وليسوا من أهل العلم وهذا غلط وسُنَّة فاسدة، لا يصلح أن يناقش هؤلاء إلا من لديه علم، لأنه إذا ضَعُفَ وهو متكلم بالسُّنَّة ويدافع عن السُّنَّة أضعفَ الحقَّ مع أن الحق في نفسه قوي لكن هذا لما حمله وكان (جملة غير مفهومة) فلما كان حامل هذا السيف يحمله حملًا ضعيفًا أثّر في الحق، ولهذا لا تحل هذه المناقشات بتاتًا ولا المناظرات إلا لمن لديه علم وقليلٌ ما هم، لأن أثرها خطير جدًا،

(١) الإسراء: ١٠٢.
(٢) النمل: ١٤.

لأنه ينتقل من خلال هذه المناظرات ومن خلال هذه المناقشات ينتقل إلى المناقش نفسه - إذا لم يكن من أهل العلم أو إلى من يسمعون - ينتقل بدع وضلالة لا يُجاب عنها فتتغلغل بين الناس وهذا ما حصل.

كان السلف رضي الله عنهم يعتنون بأمر التوحيد في الأسماء والصفات لأن الخلل وقع فيه، ينبغي أن يلاحظ طالب العلم أمرًا مهمًا نبّه عليه أهل العلم، لماذا لم توجد مصنفات عند الأئمة للتحذير من الشرك - شرك العبادة -؟ السبب بكل سهولة أنه ما كان موجودًا، لم يكن في الأمَّة من يطوف على القبور ويهتف بأسماء أصحابها في الأمَّة، ما كان فيها هذا، ولكن جاءت أكثر الإشكالات من خلال المسائل العلمية، أما المسائل العملية التطبيقية في العبادة وغيرها فهذه الأمَّة على التوحيد، والنماذج كثيرة جدًا، قد يطول بنا المقام لو بيّناها، لهذا تجد المصنفات تجدها انصرفت إلى الكلام على توحيد الأسماء والصفات، فصنف ابن خزيمة مثلًا رحمه الله تعالى كتاب التوحيد وصفات الرب، ركّز فيه على توحيد الأسماء والصفات كثيرًا، البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه ختم الصحيح بكتاب التوحيد، إذا تأملت أكثر أبواب كتاب التوحيد تجدها في الأسماء والصفات، فلهذا ركّز الأئمة رحمهم الله تعالى على هذا النوع من التوحيد؟ لأن الشرك ما كان موجودًا أصلًا في زمنهم، وكان المسلمون على التوحيد في الجانب العملي، لكن حصل الخلل والإشكال في جانب الأسماء والصفات على يد من؟ اضبط هذا الاسم لتعرف من أين أتت الجناية على توحيد الأسماء والصفات، وما الذي عمله المسلمون لما حصلت هذه الجناية؟ جاءت هذه الجناية على يد الجعد بن درهم، الجعد هذا كما يقول شيخ الإسلام كان يعيش في بلدةٍ اسمها حرّان كان يعيش فيها كثيرٌ من الفلاسفة والصابئة الذين كانوا على دين المشركين، مذهبهم أن الرب تعالى ليس له إلا صفات سلبية أي منفية أو إضافية، الجعد نشأ في هذه البيئة الفاسدة، ولذا صدرت منه أول مقالة لرجل ينتسب إلى الأمَّة ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويقول إنه مسلم صدرت منه أول مقالة فيها نفي للصفات، أما قبله فلم يكن هناك ولله الحمد من ينفي الصفات قطعًا لا من الصحابة ولا من التابعين رضي الله عنهم، مع أنه وجدت بدع إلا يعني الخوارج وجدوا زمن عثمان رضي الله عنه زمن علي رضي الله عنه؛ لكن كما قال شيخ الإسلام: أولئك الخوارج ما كان عندهم إشكالات في أبواب العقيدة الأخرى مثل القدر، مثل النبوّة، مثل الأسماء والصفات، المسلمين عمومًا سواء من كانوا على السُّنَّة أو من خرجوا عن السُّنَّة إلى بدعةٍ أخرى كانوا على إثبات الصفات حتى نبغ الجعد بن درهم، لهذا قال اللالكائي رحمه الله تعالى - بعد أن ساق عن أكثر من

خمسمئة من علماء الأمَّة تكفيرَ من قال: إن القرآن مخلوق - قال اللالكائي: ولا خلاف بين الأمَّة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم سَنَة نيف وعشرين ثم جهم بن صفوان، سَنَة نيف وعشرين يعني ومئة هذا المقصود، الجهم بن صفوان هذا هو الذي تنسب له الجهمية، تسمع كثيرًا كلام السلف أصحاب الجهم الجهمية ينسبون إلى الجهم بن صفوان، هؤلاء الجهمية نفوا صفات الرب تعالى، لأن مقالة الجعد بن درهم قد تلقاها عنه تلميذه الجهم بن صفوان وبئس الشيخ وبئس التلميذ فكلاهما فاسد العقيدة، اصطلح السلف على تسمية من نفى شيء من الأسماء والصفات تسميته بالجهمي نسبة إلى الجهم، ومن هنا أدخل السلف المعتزلة بالجهمية مع أن المعتزلة خصوم للجهم بن صفوان في أبواب أخرى كالإيمان بالقدر بجامع ما بين الجهم بن صفوان والمعتزلة من نفي الصفات، فلما كان أصل مقالة نفي الصفات من الجهم بن صفوان أخذها عن شيخه الجعد بن درهم نسب من نفى الأسماء والصفات إلى هذا المبتدع، فصار من ينفي الأسماء والصفات يسمى بالجهمي.

إذًا لا يعرف في الأمَّة أحدٌ نفى الصفات قبل الجعد - شيخ الجهم - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أول من حفظت عنه مقالة أن الله ليس على العرش حقيقةً وأن معنى استوى استولى ونحو ذلك - يعني من عقائد الزائغين في الأسماء والصفات - هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه، أصل مقالة الجهم بن صفوان أخذها من شيخه هذا الجعد بن درهم، الجعد بن صفوان أثر في الفرق وهو عجيب جدًا أثر في الفرق حتى في خصومه، وتجد مقالات الجهم بن صفوان هذا عند المعتزلة، عند الشيعة، عند الإباضية، عند الزيدية، عند الأشعرية، عند الماتريدية، عجيب شأنه جدًا، لم يسْلَم من مقالاته الباطلة إلا أهل السُّنَّة ولله الحمد.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في الجهم بن صفوان وفي تأثيره بالفرق: (فلذا تقاسمت الطوائف قولَه، وتوارثوه إرث ذي سهمان لم ينجوا من أقواله طرا سوى أهل الحديث وعسكر القرآن).

ما سَلِمَ من مقالاتهم أحد، ولهذا الآن تقرأ في عقيدة فرقة من الفرق تقول هذه أصلها من الجهم بن صفوان لأنه جمع الشر كله كما قال أهل العلم، فهو في الأسماء والصفات من النُّفَاة، في جانب الإيمان من غلاة المرجئة، في جانب القدر من غلاة الجبرية، وأثرت هذه المقولات هذه في الطوائف، فمنهم من تأثر به بالقدر، منهم من تأثر به في الإيمان، منهم من تأثر به في الأسماء والصفات، فصار تأثيره بالغًا.

الجعد بن درهم لاحظَ وهبُ بن منبه رحمه الله وكان شيخًا له، وهب بن منبه كان يتردد عليه في حلقته الجعد بن درهم لاحظ أن هذا التلميذ الفاسد الذي نشأ كما قلنا في بلدةٍ فيها هذا الخلل العقدي؛ لاحظ أن عنده عدم رضوخ للنص وأنه متمنع في إثبات الصفات، فقال له رحمه الله - يقول وهب بن منبه -: (ويلك يا جعد أقصر المسألة عن ذلك، يعني كفّ عن هذه الأسئلة، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا ما قلنا ذلك؛ وأن له عينًا ما قلنا ذلك)، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك، يقول: نحن حين تتمنع وتقول: أنا لا أثبت لله اليد! نحن حين أثبتنا اليد لله عزّ وجلّ هل أثبتناها إلا من كلامه تعالى! ما قلنا ذلك من تلقاء أنفسنا بل قال الله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(١) فأثبتنا، قال الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(٢) فنحن ما أثبتناه من تلقاء نفسنا، إني لأظنك من الهالكين، وتحقق فيه ما قال رحمه الله، فإن الجعد بن درهم أفتى أهل العلم بقتله وقُتِلَ يوم الأضحى وضُحِّي به أضحية كما يُضحى ببهيمة الأنعام، ذبحه خالد بن عبد الله القسري، وكان فعله هذا بفتوى أهل العلم رحمهم الله، لأن الجعد هو أول من فسق في الأمَّة بهذا البلاء.

الجهم بن صفوان تلميذه كما قلنا تلقف هذه المقولة، ما الذي ميّز الجهم بن صفوان؟ ما ميزه العلم، قال السلف: لم يكن الجهم بن صفوان من أهل العلم ولم يكن ذا مجالسة، فما كان يجالس أهل العلم، إذًا كيف انتشر مقالته؟ قالوا: كان صاحب لسان، كما هو حاصل الآن من أناس ليس لديهم علم شرعي بل لم يدرسوا علم الشريعة ولهم تأثير كبير للأسف في الأمَّة، تأثير إعلامي، رجل يؤثر هذا التأثير الكبير ويتبعه جموع غفيرة من الناس وهو ليس من أهل العلم، ما الذي جعله يسحر هؤلاء الناس؟ لسانه، اللسان له تأثير كبير، هكذا كان الجهم بن صفوان فتأثر بهذه البلايا وبهذه الأباطيل تأثر به كثير، ولهذا ذكر البخاري رحمه الله وذكرها قبله الإمام أحمد مما يدلك على جهل هذا الرجل بالعلم أنه ناظر طائفة من كفرة الهند يدعون السُّمَنِيَّة وهذا لما قلنا أنه يدخل في المناظرات هذه من ليس من أهل العلم فلما ناظروه شك بالله لأنه جاهل وترك الصلاة أربعين يومًا شاكًا بالله نسأل الله العافية، قال أهل العلم: فنحت الشيطان في هذه الفترة التي ترك فيها الصلاة نحت اعتقاده ثم خرج باعتقاده الخبيث المبني على دليل يسمى دليل الحدوث وانتشر هذا الدليل

(١) ص: ٧٥.
(٢) طه: ٣٩.

وأثر ولا يزال تأثيره إلى اليوم عند الطوائف الضّالة، وهذا الذي جرد شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم ومن قبله ومن بعده الرد عليه، فلذلك ركّز السلف رضي الله عنهم على هؤلاء الذين صاروا ينفون الصفات وصنفوا المصنفات في الرد عليهم، ومن أشهر من رد عليهم الدارمي رحمه الله تعالى في رده على بشر المِرِيْسي وردّ على الجهمية وغيره من أهل العلم، ومن أكثر من توسع في الرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، هذا ما يتعلق في الذين زاغوا في الصفات إلى النفي والتعطيل.

قابلهم مسلكٌ آخر وهو مسلك باطل فاني وهو مسلك من بالغوا في الإثبات، أولئك النُّفَاة بالغوا في النفي حتى نفوا ما أثبته الله، المشبهة بالغوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفى الله كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه، وهذه المسألة من المسائل العظيمة التي وقعت في كثير من مسائل الاعتقاد أن يكون فيها إفراط من جانب ويكون فيها تفريط، وهذا كثير، فالرافضة فيما يتعلق بآل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالغوا مبالغةً قبيحةً جدًا حتى رفعوهم إلى مقام الربوبية.

الخوارج عكسهم أساءوا جدًا في سادة من سادت آل البيت كعلي رضي الله عنه والحسن والحسين رضي الله عنهم وبالغوا فيهم مبالغة منكرة حتى كفروا عليًا وقتلوه رضي الله عنه وأرضاه، هؤلاء بالغوا مدحًا وهؤلاء بالغوا ذمًا، وهكذا في جانب القدر تجد الجبرية وعكسهم القدرية، في جانب الأسماء والصفات تجد المعطلة وتجد المشبهة، لهذا صار هذا البلاء في كثير من مسائل الاعتقاد، ولو تأملت مسائل الاعتقاد لوجدتها على هذا النحو على هذا الحد، تجد من يبالغ يمنة ومن يبالغ يسرة ويتركون الوسط السليم الذي كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل ومقاتل مشبه، كلاهما خرج من بلدة واحدة.

جهم من المعطلة، مقاتل عكسه من المشبهة، لا يثبت فقط، يثبت ويبالغ في الإثبات حتى يشبه صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، هذا الصنيع في ردّ البدعة ببدعة مقابلة هو صنيع السفهاء وليس صنيع العلماء، البدعة ترد بالسُّنَّة لا ترد بالبدعة في أن تنظر ماذا قالوا فتقول بضده، هذا يزيد الشر، لأن البدعة إذا وجدت يرد عليها بالسُّنَّة أما أن تأتي بدعة فتقابلها بدعة أخرى في جانب آخر، ويتقابل هؤلاء المتهورون والسفهاء، هذا يبالغ في جانب وهذا يبالغ في جانب، كلهم يبتعدون عن الوسط الذي كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ودلت عليه النصوص.

علماء الأمَّة انبروا للرد على أهل الضلال من جميع الطوائف سواء من النُّفَاة أو من المشبهة، والرب سبحانه وتعالى في كتابه من الردود عليهم ما لعله يأتي إن شاء الله بيانه الآية العظيمة المحكمة التي هي قاعدة، خذها قاعدة في الأسماء والصفات وهي قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)، يأتينا إن شاء الله الكلام على شرحها وأن فيها نفي ما نفاه الله وإثبات ما أثبته الله، النُّفَاة يركزون دائمًا، ولو تلاحظ كتب أهل الضلال تجد هذه الآية يأتي القسم الأول منها تقع في كتب المعتزلة؛ في كتب الأشاعرة؛ في كتب الماتريدية؛ في كتب عموم الجهمية؛ تجد هذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولا تُكْمَلُ في كثير من الأحيان، لهذا الإمام أحمد رحمه الله لما ورده الخطاب - خطاب المأمون الذي أمر والي بغداد أن يلزم أحمد بمقولتهم - كان فيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قال أحمد رحمه الله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فغضب الوالي، ماذا تريد؟ قال: أريد ما أراد الله سبحانه وتعالى، لا تأخذ بعض الآية، الآية فيها نفي وفيها إثبات، فتجد أن أهل الضلال يركزون في الأدلة على ما يناسب هواهم، فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا نفي؛ نعم، ولكن قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات، ويأتينا أن مذهب أهل السُّنَّة رضي الله عنهم وأرضاهم وثبتنا على منهجهم أنه جمع النصوص ففيها نفي وفيها إثبات، فالله سميع بصير وليس كمثله شيء، وليس المقصود ليس كمثله شيء ولا السميع البصير! إذًا فما الفائدة من الإثبات؟ فالآية فيها نفي وفيها إثبات، وفيها رد على المعطلة وعلى المشبهة معًا، قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على الممثلة الذين يقولون: إن الله تعالى صفاته مثل صفاتنا، وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فيه إثبات، وأن لله تعالى السمع ولله البصر ولكن ليس سمعه وبصره تعالى كسمع وبصر المخلوقين، وبه نعلم ختمًا لهذه المقدمة أن الأسماء والصفات فيها ثلاث طرق:

الطريق الأول: طريق رسل الله صلّى الله عليهم وسلّم وطريق السلف الصالح رضي الله عنهم، وموجزه ومختصره إثبات ما أثبت الرب لنفسه أو أثبتت الرسل صلّى الله عليهم وسلّم لربهم تعالى ونفي ما نفى الرب عن نفسه أو نفته الرسل صلّى الله عليهم وسلّم عن ربهم، مثال ذلك: النصوص فيها إثبات العلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة والمجيء والقيام والنزول في الثلث الأخير من الليل والاستواء على العرش فيأتي أهل الحق ويثبتون هذه الصفات لأن النصوص قد أثبتتها، النصوص فيها نفي، نفى الله عن نفسه الظلم

(١) الشورى: ١١.

والتعب، ونفى عن نفسه الغفلة، ونفى السِّنَةَ سبحانه والنوم، فيأتون إلى ما نفى الله فينفونه، وهذا هو الأمر الذي يجب على من أقرّ بأن الله تعالى ربه وأن محمد صلّى الله عليه وسلّم نبيّه.

المسلكان الباطلان ماذا يفعلان؟ يأتي النُّفَاة إلى ما أثبت الله فينفون ما أثبت الله، فلهذا سموا بالنُّفَاة، فيأتون إلى ما أثبت الله من الاستواء أو السمع أو البصر أو النزول مما أثبته النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لربه تعالى أو غير ذلك فينفونه مع أن النصوص أثبتته.

الطريق الثالث: مَنْ يأتون إلى ما نفى الله فيثبتونه، وهم المشبه الممثلة، يقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيقولون: سمع الله مثل سمع المخلوق، يد الله مثل يد المخلوق، مع أن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فصار الزيغ في مسلكين، والحق في المسلك الذي كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورسل الله ومن لزم طريقهم؛ إثبات ما أثبت الله ونفي ما نفى الله.

أهل الباطل يريدون - كما سيأتي معنا - في الإلحاد في أسماء الله إما أن يأتوا إلى ما أثبته الله فينفوه أو يأتوا إلى ما نفى الله فيثبتوه، هذا كله زيغ ولا شك، فالواجب لزوم هدي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهدي الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وعدم قبول مثل هذه الآراء المضلة حتى وإن تسمت بما تسمت به، لأن أصحابها يتسمون دائمًا يتسمون بتسميات يمدحون بها أنفسهم ونحو ذلك، فالمؤمن يلزم ما عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حتى لو أنه أُسِيء في القول، فسمي مثلًا بالمشبهة، المعطلة يسمون أهل السُّنَّة المشبهة، النازفة، الغثر، ونحو ذلك، حتى صنف بعض الشافعية صنفوا في الأسماء التي أطلقها أهل الباطل على أهل السُّنَّة، وإلى يومك هذا وأهل الكفر ينسبون أهل السُّنَّة وأهل الإسلام مثلًا إلى التطرف وإلى الإرهاب؛ مع أن الإسلام جلي واضح ما فيه تعدي ولا فيه ظلم أو تجني وفيه رعاية للحقوق، لكن كونكم تسمون هذا تطرفًا أو إرهابًا لأنكم يهود أو نصارى أو ملاحدة لن نتزلزل عن ديننا لمجرد أن ديننا لم يَرُقْ لكم، نثبت كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ لا تقدم تنازلات ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾(١) أنت اثبت، أما أنواع التسميات التي تُطلق من هنا وهنا، الشيعة يطلقون على السُّنَّة ناصبة، القدرية يطلقون على أهل السُّنَّة مجبرة، المعطلة يُطلقون على أهل السُّنَّة مشبهة، السُّنِّي لا يكترث لمثل هذه الأمور، يثبت على الحق ويلزم ما دلت عليه النصوص في غير ما إفراطٍ ولا تفريط،

(١) البقرة: ١٣٧.

ويلاحظ أمرًا مهمًا جدًا أن يكون على هدي صحيح، أن يكون فعلًا على طريقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعلى طريقة السلف ثم فليعيروا بما شاءوا وليتهموا بما شاءوا، ولم تسلم الرسل صلّى الله عليهم وسلّم حتى نسلم نحن، سُميت الرسلُ بالأسماء القبيحة واتُهِمُوا بالتهم القبيحة - أجلّ الله تعالى مقامهم - سموا بالسحرة بالكذابين بالمجانين بالشعراء، لم يكترثوا ولم يتزلزلوا، المهم أن يكونوا على بصيرة، فإن كنت على بصيرة فلا تكترث لأي تسمية تُسَمَّى بها، وستستمر التسميات هذه كل فترة تتلون وتتجدد، فلا يكترث المسلم السُّنِّي، هذه مقدمة دعا إليه الحال، بقية الأيام إن شاء الله تعالى وأيضًا ما تبقى من الوقت نبدأ إن شاء الله تعالى في المقدمة في الكتاب، والشرح سيكون غالبًا فيه نوع من التوسط لا هو بالمسهب ولا هو بالموجز إن شاء الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وجميع المسلمين

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

.....

في بعض النسخ أنه بدأ بالتسمية رحمه الله تعالى فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وقولك بسم الله الرحمن الرحيم تُقَدَّر بفعل متأخر يعني بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، وينبغي أن يُلاحظ أن من يصنف أو يخطب البدء باسم الله، من البدع والضلالات التي وردتنا من أهل الكفر والإلحاد من الغربيين والشرقيين وتأسّى بهم من ليسوا من أهل الحكمة والرشاد أن تُبدأ الكتب بلا تسمية ولا حمد، لا يلزم أن يبدأ مثلًا بخطبة الحاجة، قال: أين خطبة الحاجة؟ لا، ليس لزامًا، لكن قبل أن يبدأ بالكتاب يُسمي الله تعالى، كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا كتب كتابًا يبدؤه بالتسمية، بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم أسلم تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم الأريسيين، بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى أسلم تسلم إلى آخره، فيُبدأ بالتسمية، وفي كتاب سليمان عليه الصّلاة والسّلام مما كتبه إلى ملكة اليمن قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١) فيسمى الله تعالى، قولك بسم الله الرحمن الرحيم؛ قيل: إنه يُقدر بفعل متأخر، بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ، مزية ذلك هو الحصر، يعني كأنك تقول: لا أبدأ إلا بسم الله الرحمن الرحيم، يأتي الكلام إن شاء الله على ما يتعلق بمثل هذه الأسماء عند الكلام على الرحمة.

ثم قال: الحمد لله، الحمد هو الثناء على المحمود، والله تعالى يحمد لأمرين:

الأمر الأول: لكمال صفاته سبحانه وتعالى وعِظَم وجلالة أسماءه.

الثاني: لنعمه سبحانه، وأكثر الناس يغفل عن الأول، يُحمد اللهُ لكمال صفاته سبحانه وتعالى، ويحمد لأسمائه العظام، الثاني وهو حمد الله على نعمه هذا هو المعروف عند عموم المسلمين، والحمد يكون لله تعالى على ما قام به من الصفات العظام وعلى أسماءه تبارك وتعالى فيحمد عليها سبحانه وتعالى وهو أهل للحمد،

(١) النمل: ٣٠.

والله تعالى يحب المدح سبحانه، يحب الحمد وهو أهل الحمد، أعظم من يُحْمَدُ هو الله، ولا يمكن أن يكون في مدحك لربك سبحانه وتعالى إلا بالحق إذا مدحته سبحانه باللائق، ولهذا قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) تعريف وتعليم لعباده قولوا، تنبيه، قولوا: الحمد لله رب العالمين، تنبيه لهم، ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، وقال عليه الصّلاة والسّلام لرجل قال (كلمة غير واضحة.): يذكر أبياتًا من الشعر في الحمدلة؛ قال: «إن ربك يحب الحمد» فأعظم من يُحمد هو الله سبحانه وتعالى؛ على أسمائه وصفاته وعلى نعمائه عزّ اسمه.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، يأتي الكلام إن شاء الله على الرسل والكلام على معنى الرسالة؛ والفرق بين النَّبيّ والرسول بإذن الله تعالى لاحقًا، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، الهدى يراد به العلم النافع، ويراد بدين الحق العلم الصالح، فالله تعالى أرسل الرسل بهذين الأمرين العظيمين، بالعلم النافع وبالعمل الصالح، ولهذا من سلك هذا المسلك الذي جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم فإنه يوفق في دنياه ويسلم في آخرته لأنه يكون على علم وعلى عمل صالح.

ليظهره على الدين كله، يعني على الأديان جميع الأديان، وهذا وعد من الله سبحان وتعالى أن يَعْلُوَ هذا الدين، لأن الظهور معناه العلو، أن يعلو ويظهر هذا الدين على سائر الأديان وأن يكون الإسلام هو الغالب، وقد وقع ذلك بحمد الله تعالى وسيقع لاحقًا، وقع ذلك بحمد الله في تلك الفتوحات العظيمة التي كانت زمن الصحابة رضي الله عنهم ومبدؤها بالفتوحات العظام زمن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث فتحت على المسلمين جزيرةُ العرب وكانت إلى عام ثمان من الهجرة أكثر القبائل العربية على غير الإسلام، وكانوا يتربصون بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبقريش، قالوا: إن ظهر على قومه تبعناه، لأن قريش كانوا سادة العرب، فلما فتح الله على المسلمين عام ثمان مكةَ جاءت الوفود في العام التاسع، جاءت الوفود في العام التاسع وهو عام الوفود ودخلوا في الإسلام كما هو معلوم، ثم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حجَّ في العام العاشر حجة الوداع ثم في العام الحادي عشر بقي عليه الصّلاة والسّلام شهر محرم أو صفر وتوفي صلوات الله وسلامه عليه في الثاني عشر من ربيع، فظهر الإسلام ولله الحمد ثم توالت الفتوح ففتحت الجزيرة ثانيةً على يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه في القبائل التي ارتدت، وكثير من قبائل العرب ارتدت إما ردة بادعاء

(١) الفاتحة: ٢.

نبوّة غير النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وإما بارتداد يتعلق بالامتناع عن أداء الزكاة، فقاتلهم الصحابة رضي الله عنهم مدة طويلة زمن أبي بكر حتى أتم الله تعالى إخضاعَ المشركين والمرتدين، ثم توالت الفتوح في زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ففتحت فتوحات عظيمة في الشام وفي العراق لكن كانت مدته عليه الرضوان قصيرة سنتان وبعض الأشهر، ثم توالت الفتوح العظام زمن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ودُمِّرَتْ دولةُ الفرس تمامًا، ولهذا الحقد الفارسي شديد جدًا على عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه لأجل أنه فتح إيران عليه الرضوان، ولهم في هذا عبارات دنسة نجسة يذكرون أن بغضهم لعمر لأنه فتح إيران بهذه الصراحة وبهذا الوضوح، فانتهت ولله الحمد تلك الشركيات والضلالات وفتحت بلاد الروم وبلاد الفرس، ثم توالت الفتوحات أيضًا زمن عثمان رضي الله عنه وأرضاه حتى وصلت إلى مواضع بعيدة جدًا لأن عمر رضي الله عنه كان متوقفًا في قتال البحر، يخشى أن المسلمين يصابون لأنهم غير متدربين عادة على القتال البحري، فلما جاء عثمان رضي الله عنه عزم على القتال البحري ففتحت قبرص وفتحت بلاد واسعة جدًا؛ جزء منها في أوربا وفي غيرها ثم توالت الفتوح لاحقًا، فأظهر الله تعالى دينه ثم لما حصل التخاذل عمّا بيّن عليه الصّلاة والسّلام من العلم والعمل؛ انتكس وضعُ الأمَّة انتكاسًا إلى ما هو حاصل الآن، ولكن لا يُرتاب بأن النصوص جلية واضحة وثابتة عنه عليه الصّلاة والسّلام في أن الله تعالى سيعزُّ هذا الدين وستكون الغلبة بلا ريب لأهل الإسلام لكن الشأن كل الشأن في تحقيق ما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾(١) إلى آخر الآية؛ بأن يلتزم المسلمُ الإيمانَ كما بيّنه عليه الصّلاة والسّلام والعمل الصالح، ويقول هناك نص الآية ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾(٢) إذا لزمت الأمَّة الهدى الذي كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولزم دين الحق والعمل الصالح الذي كان عليه صلوات الله وسلامه عليه؛ نصر الله عزّ وجلّ الأمَّة كما نصرها في مواطن فيها ضعف ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(٣) فالنصر موكول إلى الله تعالى أمره، والأمَّة عليها أن تتقي الله تعالى وتحسن الإعداد، ومن أعظم الإعداد؛ الإعداد

(١) النور: ٥٥.
(٢) التوبة: ٣٣.
(٣) آل عمران: ١٢٣.

العقدي والإعداد في حسن التعامل مع الله تعالى؛ فلا يُرتاب أن الأمَّة إذا لزمت هذا أن الله تعالى يعود عليهم بالنصر ويفتح لهم كما فتح لمن كان قبلهم، نعم.

.....

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

.....

هذه الشهادة العظيمة، الشهادة بأن لا إله إلا الله؛ والمراد بهذه الكلمة أن لا معبود حق إلا الله، ولهذه الكلمة العظيمة شروط ينبغي أن يلاحظها طالب العلم، يقصر المقام الآن ويقل عن ذكرها، شروط سبعة ذكرها الناظم في قوله: (علم، يقين، وإخلاص، وصدق سماع، محبة، وانقيادٍ، والقبول لها) هذه سبعة شروط، يعني تُقال لا إله إلا الله عن علم ويقين وإخلاص، وفصَّل أهلُ العلم المراد بها والأدلة على لا إله إلا الله ومعناها موجودة في القرآن، فتضمنت نفيًا وإثباتًا، قولك لا إله: نفي، وقولك إلا الله إثبات، ودل على هذين الركنين آيات كثيرة في القرآن كقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(١) العروة الوثقى هي لا إله إلا الله، من يكفر بالطاغوت وهو المعبود من دون الله تعالى هذا قولك لا إله، ويؤمن بالله هذا الإقرار به سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وهو قولك إلا الله، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

وأشهد أن محمد عبده ورسوله، الشهادة بالرسالة تتضمن أمرين اثنين؛ هما ركنا الشهادة:

الركن الأول: أن محمدًا صلّى الله عليه وسلّم عبدٌ من عباد الله.

الركن الثاني: أنه رسول، وقد جُمِعَ هذان الركنان في كثير من النصوص كقولك في التشهد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله في التحيات يقولها المسلم عدة مرات في اليوم الواحد.

وقوله عليه الصّلاة والسّلام «لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله» وغير ذلك من النصوص الدالة على أن الشهادة لمحمد صلّى الله عليه وسلّم تكون بالأمرين، وأنه عبد من عباد الله فلا يُغلا فيه ولا يبالغ فيه حتى يجعل فيه ما لا يجعل إلا للرب، فإن هذا من الغلو إذ هو عبْد

(١) البقرة: ٢٥٦.

من عباد الله، وهو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومقتضى رسالته أن يطاع فيما أمر، وأن يُصَدَّق فيما أخبر، وأن يُكَفَّ عما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد اللهُ تعالى إلا بما شرع، فليس كغيره عليه الصّلاة والسّلام، ودل على ذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾(١)، بشر مثلكم: عبد من عباد الله، يوحى إلي: هذا أمر الرسالة.

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا مزيدًا: والصلاة عليه صلوات الله وسلامه عليه؛ قال أبو العالية رحمه الله فيما ذكره البخاري: (صلاة الله على رسوله؛ ثناؤه عليه في الملأ الأعلى)، فأنت تدعو الله عزّ وجلّ أن يصلي عليه صلوات الله وسلامه عليه.

وسلّم تسليمًا مزيدًا: أي التسليم: السلامة من الآفات، فأنت تدعو له عليه الصّلاة والسّلام بالصلاة بحصول الخير، وتدعو له بقولك: وسلّم بالسلامة من الآفات، فتجمع الأمرين، وعلى آله وصحبه: الآل تارة تطلق كلمة الآل على قرابة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أقاربه، كما أن للإنسان آل هم أقارب، فالرسول صلّى الله عليه وسلّم له آل يعني أهل، ولا شك أن من آل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجاته رضي الله تعالى عنهم، وتارةً تطلق الآل بمعنى الأتباع، وهذا المراد عند كثير من أهل العلم حين نقول آله وصحبه، ويكون عطف الصَّحب هذا من باب عطف الخاص على العام، لأن الصحبة لها شأن، أما آله بمعنى أتباعه؛ هؤلاء كل من أتبع الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم في زمنه وإلى قيام الساعة يدخل في كونه من آله، يعني من أتباعه، واستدلوا على أن الآل يُرادُ بها الأتباع بقوله تعالى في شأن قوم فرعون ﴿النَّارُ يعرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوا وعَشِيًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٢)، فالمراد بالآل هنا أتباع فرعون، وليس المراد قرابته فقط، بل المراد جميعُ أتباع فرعون، فالآل تطلق تارةً على هذا وتارةً على هذا نعم.

قوله: أما بعد، قوله أما بعد يراد بها مهما يكن من شيء بعد، مهما يكن من شيء، تكون فاصلة بين المقدمة التي فيها الحمد والصّلاة على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين مقصود الإنسان من الخطبة أو من الكتابة، أما بعد: يعني مهما يكن من شيء بعد، فهذا كتاب فيه اعتقاد الفرقة الناجية، فيقول الخطيب: أما بعد؛ فإن الله أمر بالصلاة، يعني مهما يكن من شيء بعد فإن الله أمر بالصلاة ونحو ذلك، هذا المراد بقوله أما بعد، وقد

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) غافر: ٤٦.

قيل: إن المراد بقوله تعالى عن داود ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(١)، قيل: إن المراد بفصل الخطاب هو أما بعد، لكن الذي يظهر والله أعلم أن الصواب في تفسير الآية ليس هذا، ويُلاحظ أن بعض من يتحدثون يقول: أما بعد وبعد مدة يقول ثم أما بعد، أما بعد؛ المراد بها الفصل كما هو معلوم بين المقدمة وبين مرادك؛ بحيث يكون هناك فاصل، ربما لو جاء ما يقتضيه من فاصل آخر نعم، لكن أما أن تقول أما بعد ثم أما بعد ما ندري لهذا أصلًا، أما بعد معناها الفصل بين المقدمة وبين مرادك.

والله تعالى أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد.

(١) ص: ٢٠.

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء و المرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المسلمين

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

فَهَذَا اِعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

.....

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

ذكر رحمه الله تعالى في هذه المقدمة أكثر من مسألة

المسألة الأولى: أنه هذا هو الاعتقاد، والاعتقاد هو ما ينعقد عليه القلب ويجزم به.

تطلق العرب الاعتقاد والعقد على أمرين: الأمر الأول: العقد الحسي كعقد الحبل، والعقد الثاني العقد المعنوي كما تقول عقد البيع وعقد النكاح، سُمّي هذا الذي يحتمل عليه القلب بالاعتقاد لأن القلب يجزم به وينعقد عليه من شدة جزمه به.

هذا: أي الذي سيأتيك من هذا الموضع إلى نهاية الكتاب هو اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، قوله رحمه الله هذا اعتقاد الفرقة: لا شك أن أهل الحق فرقة واحدة، ودل على هذا قولُ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «وستفترق هذه الأمَّة على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» يعني إلا فرقة واحدة، هذا هو المعنى، وفي لفظٍ أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «وستفترق هذه الأمَّة على ثلاث وسبعين ملّة، كلها في النار إلا واحدة» وبه تعلم أن القول بأنّا لسنا ندعو إلى الطائفية خطأ وليس بصحيح، نحن ندعو إلى طائفة واحدة هي طائفة السلف، وكل من سوى السُّنَّة يدعو إلى طائفته، لا شك في هذا، فالرافضة تدعوا إلى طائفتهم، والمعتزلة تدعوا إلى طائفتهم، والجهمية تدعوا إلى طائفتهم، أهل السُّنَّة يدعون إلى لزوم ما عليه السلف، والطائفية المقيتة هي التي تركت ما عليه السلف واستقدمت لأمة الإسلام من اليهود والنصارى ومن وثني الهند وشرق آسيا ونحوها البلايا والمذاهب التي فُتِحَت على أمة الإسلام، فالذي يلزم ما عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما عليه السلف هو المُصيب كما قال عليه الصّلاة والسّلام في

الحديث «كلها في النار» أي هذه الفرق «إلا واحدة» نعم يُدْعَى إلى ما عليه السلف، لا شك أنه يجب أن يُدعى إلى ما عليه السلف فقط، ولا يحل أن يُدعى إلى أي فرقة أخرى لأنها ضلال، كلها ضلالات، ولهذا قال: هذا اعتقاد الفرقة، هذه الفرقة حدَّها بحدّين اثنين:

الحدُّ الأول: أنها ناجية، ومن أين استدل أنها ناجية؟ من قوله عليه الصّلاة والسّلام «كلها في النار إلا واحدة» كلها في النار أي أنها هالكة، هذه الفرق تهلك «إلا واحدة» تنجو، فَمِنْ هنا أخذ من هذا الحديث وصف هذه الفرقة بالناجية، وأعلم أن ادِّعَاء كل طائفة أنها ناجية هذا موجود في جميع الفِرَق، كل فرقة تدعي أنها ناجية حتى الباطنية يدَّعُون أنهم الناجون، وهذه المسألة ليست مسائل دعوى إنما هي مسائل براهين فالذي يثبت على ما في كتاب الله وسُنَّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بفهم السلف الصالح رضي الله عنهم هو الذي ينجو كما نجوا، فأما من خالف هديهم فإنه يهلك، ولهذا قال: الفرقة الناجية، هذه الفرقة الناجية ناجية في الدنيا وناجية في الآخرة، ناجية في الدنيا من الزيغ والضلال، وأعظمُ العذاب وأشدُّه وأفظعُه الابتلاءُ في الدين بأن يسلط الله تعالى على العبد ضلالًا وزيغًا فيعيش هائمًا في حياته، لا يُذْكَرُ الضلال إلا ويذكر معه هذا الشخص، هلك في الدنيا، الموفق في سبيل الحق ناجٍ في الدنيا من مسالك السوء، ثابت على هدي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وناج في الآخرة وناجٍ في قبره.

المنصورة: هذه الفرقة منصورة، أخذ لفظ منصورة من قوله عليه الصّلاة والسّلام «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين؛ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، في قوله صلّى الله عليه وسلّم «لا تزال طائفة» أيضًا مرة أخرى تأكيد إلى أن الحق في طائفة واحدة، وأن مَنْ سوى هذه الطائفة هو الضّال الذي يُنْعَى عليه ويذم بدعوته إلى طائفيته، لأن من دعا إلى غير سبيل هذه الطائفة الناجية دعا الناس إلى الضلال وإلى الهلاك والعطب، فتأمل قوله صلّى الله عليه وسلّم «وستفترق هذه الأمَّة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» يعني إلا فرقة واحدة مع قوله صلّى الله عليه وسلّم «لا تزال طائفة» تعرف به أن الحق لا يمكن أن يكون إلا في طائفةٍ واحدة؛ وأن من خالف هذه الطائفة فإنه هالك ليس بناجٍ.

قوله رحمه الله الناجية المنصورة: قلنا إنه أخذ من قوله عليه الصّلاة والسّلام «لا تزال طائفة من هذه الأمَّة على الحق ظاهرين؛ لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم»، من قوله صلّى الله عليه وسلّم «لا تزال

طائفة من هذه الأمَّة على الحق ظاهرين» وفي لفظٍ «حتى يقاتل آخرُهم الدجال» وهذا يدل على أنهم مستمرون باقون في الأمَّة، وهذا من نِعَمِ الله الكبيرة على أمة الإسلام؛ أن الحق ولله الحمد لا يخبو ويضمحل بحيث لا يعرف، لا يزول الحق زوالًا نهائيًا ويضمحل بحيث لا يعرف الحق من الباطل، أبدًا لا يزال ولله الحمد في هذه الأمَّة مع الغربة ومع المِحَن والكروب لا يزال الحق عليه طائفة من هذه الأمَّة؛ لأن الله تعالى كتب لهذه الأمَّة الظهور ووعدها وحقق وعده سبحانه، فهذه الطائفة منصورة، نصرُ هذه الطائفة في الدنيا ونصرُها في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(١)، منصورون في الدنيا ومنصورون في الآخرة، ثم هذا النصر على نوعين في الدنيا، أما النصر في الآخرة فجلي واضح، النصر في الدنيا على نوعين: هناك نصر باقي إلى قيام الساعة لا يتخلف عن هذه الطائفة أبدًا؛ وهو نصرهم بالحجة والبرهان، فيستحيل استحالة تامة أن يأتي من ينسف اعتقادَ هذه الفرقة، بالبرهان ينسف اعتقاد هذه الأمَّة في زعمه بالأحاجي بالخرافات بالدعاوى الباطلة ويزعم أنه نسفه! هذا يستطيعه كل عابث، لكن أن ينسف اعتقادها الحق! يستحيل هذا استحالة تامة، لأن اعتقاد أهل السُّنَّة مربوط بالقرآن وبالسُّنَّة، والقرآن والسُّنَّة يستحيل استحالة تامة أن يأتي أحدٌ ليدحض ما فيها من الحجج، هذا يستحيل استحالة تامة، لا يمكن أن يقع هذا، ولهذا كلُّ من خالف الكتاب والسُّنَّة إذا تأملته - وفيه عبرة - فإنه يضرب بعضه بعضا، قال الله عزّ وجلّ في القرآن العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٢)، فالذي يأتي من عند غير الله لا بد أن يكون فيه اختلاف، يشمل هذا كل البدع المنسوبة إلى أناس من هذه الملة أو هذه الفلسفات الحديثة أو الفلسفات القديمة، جميع المذاهب الضّالّة لابد أن يكون فيه اختلاف كثير، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، فالاختلاف الكثير هذا وصف للباطل يضرب بعضه بعضًا، لكن من الناس من يهيئ الله له العلم الذي يُيسر له سبحانه وتعالى به بيان الباطل ودحضه وردَّه، وهذا جعله الله عزّ وجلّ لأناس من أهل العلم من هذه الأمَّة، تعجب غاية العجب إذا قرأت في ردود علماء السُّنَّة؛ مما أعطاه الله تعالى من قوة الحجة، وقوة حجتهم ليست مستندة إلى ذكاء ولكن إلى قوة المنهج، لذلك فقد يوجد عند الطوائف الأخرى أذكية، لكن القاعدة التي قاموا عليها قاعدة تهوي

(١) غافر:٥١.
(٢) النساء:٨٢.

بهم، لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله في آخر الحموية في أهل البدع أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاء، فقد يوجد الأذكية لكن إذا كان ذكيًا يودي إلى باطل؛ فإن ذكاؤه لا ينفعه، فهذه الطائفة من جهة الحق والحجة والبيان لا يُشَكُّ لحظة أن نصرها مستمر إلى قيام الساعة، ولذلك تدلهم بعض الشبه وبعض الضلالات وتطيش بأناس في الأمَّة؛ فيهيئ الله تبارك وتعالى لها عالمًا يضرب هذه الشبهة ويقمعها وتضمحل بعد أن ضلَّ بسببها فئام كثيرة من الناس، لكن إذا جاء الله عزّ وجلّ بمن يعْلَم الحق ويعْلَم كيف يدحض الباطل؛ فإنها تزول، ولذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (والله إني لأظن أني أحب شيء أن أموت إلى الشيطان، قالوا: وما ذاك؟ قال: تأتي البدعة من المشرق تُحْمَلُ إليّ -وكان في مكة رضي الله عنه- فأضربها بالسُّنَّة أو قال فأدحضها؛ فتضمحل)، فإذا ردّ على الباطل من هو موفق قادر على الردّ فهو يدحضه، يستحيل أن يكون الباطل إلا زهوقًا ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١)، ولما ذكر اللهُ الحقَّ قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾(٢)، فالحق قوي يستحيل أن ينقضه أحد لأنه مستند إلى كتاب الله وسُنَّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فهذه الطائفة منصورة ولا شك من جهة الحجة والبرهان منصورة إلى قيام الساعة نصرًا دائمًا مستمرًا، وهذا النصر لجميع الرسل صلّى الله عليهم وسلّم لأنه يشتركون جميعًا كما تقدم في حق واحد من عند الله، ولهذه الأمَّة من بيان الحق ونشره أعظم النصيب والحظ الوافر ولله الحمد، فحجتهم قائمة دائمة وحجة غيرهم داحضة زائغة.

يبقى النصر الحسي المعروف، هذا النصر الحسي لا شك أنه أيضًا لهذه الطائفة، ولكن من سُنَّةِ الله سبحانه وتعالى أنه جعل للنصر أسبابًا، فإذا حُقِّقَت أسبابُ النصر فإن الله تعالى ينصر هذه الأمَّة - أهل الحق هؤلاء - ينصرهم سبحانه وبحمده حتى لو كان الخصم عنيدًا شرسًا ذا قوةٍ لا مقارنة بينها وبين قوة أهل الحق، ولهذا من يقف على الفتوحات العظيمة التي كانت لأهل الإسلام حين كانت المعارك الفاصلة العظيمة كمعركة اليرموك ومعركة القادسية وفتح الفتوح وأمثالها؛ إذا قرأتَ في عدد المسلمين مقابل عدد الروم وعدد الفرس ونظرت إلى العدّة الموجودة عند المسلمين وهي العدّة العربية المعروفة الساذجة المعتادة ثم نظرت إلى عدة الخصوم فإنه لا يمكن بتاتًا أن يكون هناك مقارنة لا في العَدد ولا في العُدد، ومع ذلك فإن

(١) الإسراء:٨١.
(٢) الأنبياء:١٨.

النصر هو الملازم للمسلمين بالأغلب في تلك المعارك، لأن من حقق أسباب النصر فإن الله يتولى أسباب نصره قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(١)، والبقية التي لا تستطيعون لا شأن لكم بها، من عند الله قال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾(٢) يحيط الله عزّ وجلّ بها، فالذي لا تقدر عليه الأمَّة إذا أعدت الإعداد السليم الصحيح على منهج سوي فإن الله يتولى أيا كان الخصم و أيا كانت صفته ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾(٣) يحيط الله عزّ وجلّ بها، وهذه الطائفة منصورة ولا شك إذا حققت أسباب النصر، فإذا صار هناك تخاذل وصار هناك ظهور للمنكرات وقلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا شك أن هذه الطائفة باقية بحمد الله تعالى، لكن إذا ظهر الشرّ وعلا وارتفع فإن من سُنَّةِ الله سبحانه وتعالى أن النصر لا يتحقق في مثل هذه الأحوال حتى تعود الأمَّة عودًا حميدًا صادقًا إلى ربها سبحانه وتعالى فيعود عليهم بالنصر، سُنَّةٌ من سُنَنِ الله تعالى مستديمة باقية، وهذه من حكمة الله البالغة، لأن هذه الأمَّة لو كانت تنصر في كل حال حتى لو كانت في حال تفريط وتضييع وفشو للمنكرات لو كان ذلك لطغى الناس أعظم طغيان، لكن الناس إذا اشتدت بهم المكاره وعظمت عليهم الخطوب رفعوا رؤوسهم إلى الله ورجعوا إلى أنفسهم قالوا: نحن المتسببون وربنا سبحانه وتعالى الذي نصر من قَبْلَنا نصرنا؛ فيعود الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤)، لله الحِكَم البالغة سبحانه وبحمده، فإذا رجع الناس إلى ربهم تبارك وتعالى عاد عليهم بالنصر والتمكين، إذًا فهذه الطائفة منصورة في الدنيا ومنصورة في الآخرة، ناجية في الدنيا وناجية في الآخرة.

قوله رحمه الله: إلى قيام الساعة، هذا الموضع وأمثاله في الأحاديث الدّالة على نصر مُستديم وعلى بقاء إلى قيام الساعة؛ معلوم أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد»، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» وفي لفظ «حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله» وثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام أيضًا أنه أخبر أنه بعد نزول عيسى عليه الصّلاة والسّلام وبعد إهلاك يأجوج ومأجوج

(١) الأنفال:٦٠.
(٢) الفتح:٢١.
(٣) الفتح:٢١.
(٤) الروم: ٤١.

ينزل اللهُ البركات العظيمة في الأرض ويبقى الناس على حياة مستقيمة مستديمة ليس بين اثنين شحناء ثم يأذن الله بريح تهب بإذن الله تعالى يأتي في بعض الروايات أنها «ألين من الحرير» فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، قال: «ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة» فالساعة لا تقوم إلا على كفار، لا تقوم وعلى ظهر الأرض مسلم قط، فما مراده بقوله إلى قيام الساعة؟ مِنْ أهل العلم من قال إن المراد بقوله -وما في الأحاديث أيضًا- «إلى قيام الساعة» أي إلى قيام ساعتهم هم هؤلاء المؤمنون، وساعتهم حين يبعث الله تعالى تلك الريح التي تقبض روح كل مؤمن وكل مسلم هذه هي الساعة أي ساعتهم، ومن أهل العلم من قال: إن المراد إلى قرب قيام الساعة فعبَّر بقوله إلى قيام الساعة إلى قربها، وأحال على المعلوم المعروف أن الساعة لا تقوم على إلا على شرار الناس، فإن الساعة تقوم على الكفار، فقوله إلى قيام الساعة أي إلى قربها حيث يأذن اللهُ تبارك وتعالى بقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ثم تقوم الساعة عن قريب، فيمكن أن يُحمل على هذا ويُحمل على هذا، ومن أهل العلم من يقول: إن المراد إلى قيام ساعتهم ومنهم من يقول إلى قرب قيام الساعة المعروفة العامة.

قال بعدها: أهل السُّنَّة والجماعة، أهل السُّنَّة هذا بدل مما قبله، هذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة أهل السُّنَّة، اعلم أن كلمة أهل السُّنَّة تطلق باعتبارين اثنين:

الاعتبار الأول: إطلاق عام يدخل فيه كلُّ من سوى الشيعة، فمعظم الناس إذا قيل له: أنت شيعي؟ قال: لا أنا سُنِّي، وإذا نظرت في عقيدته فتارة يكون على منهج أهل السُّنَّة وتارة يكون على طريقة المبتدعة، لأن العامة لا يعرفون إلا أن أهل السنة هم من سوى الشيعة، هكذا، ولهذا شيخ الإسلام رحمه الله لَمَّا ذكر القسمين الإطلاق العام والإطلاق الخاص في بعض كتبه رحمه الله قال: إطلاق العامة، يعني أن الناس لا يدرون إلا أن الناس إما سُنِّي أو شيعي، فمن لم يكن شيعيًا فهو عندهم سُنِّيٌّ من أهل السُّنَّة، هكذا يطلق هذا هو الإطلاق الدارج الآن في عرف الإعلام وفي عرف السياسيين وفي عرف العوام كلهم أن من ليس بشيعي فإنه سُنِّي، هكذا إطلاقهم، يرون الناس إما سُنِّي وإما شيعي، الإطلاق الثاني وهو الإطلاق العلمي أهل السُّنَّة الخاصة، هذا الإطلاق العلمي الذي يقال دائمًا هذا اعتقاد أهل السُّنَّة، وهم من يُثبتون جميعَ الأصول التي يُثبتها السلف الصالح في القدر في النُّبوّة في الصحابة، في التوحيد، في اليوم الآخر، في سائر الأبواب، وعى هذا يكون عندنا إطلاقان، الإطلاق الأول هو إطلاق العامة بأن أهل السُّنَّة هم من ليسوا شيعة وهذا

مقصودًا هنا ولا يصح بتاتًا أن يقال هذا اعتقاد أهل السُّنَّة ويُصَنَّفَ في هذا مصنف باعتبار الإطلاق العام، لأن من ينسبون هذه النسبة العامة يدخل فيهم على هذا الإطلاق المعتزلي والجهمي وكل أحد يعني هذا إطلاق عامي يراد به تحديد هذا الشخص الذي ينتسب إلى الإسلام هل هو سني أم شيعي؟ فهذا إطلاقٌ عام إطلاق العامة، أما الإطلاق العلمي والصحيح أن أهل السُّنَّة يراد بهم السلف الصالح رضي الله عنهم ومن سلك على نهجهم وسار في سائر أبواب الاعتقاد في مسائل الإيمان؛ في مسائل القدر؛ في مسائل اليوم الآخر؛ في مسائل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وهكذا.

ثم قال: أهل السُّنَّة والجماعة، الجماعة تطلق على القوم المجتمعين، وتطلق على التزام الحق والاجتماع عليه، تطلق بهذين الاعتبارين، ولهذا من خرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية لأنه يخرج عن الجماعة التي فيها الحق، فإذا فارق هذه الجماعة فارقها إلى الفعل الذي كان عليه أهل الجاهلية، لأن أهل الجاهلية لم يكن لديهم جماعة، فإذا مات فإن ميتته تكون ميتة جاهلية، فالجماعة تطلق على القوم المجتمعين وتطلق على ملازمة ما اجتمع عليه أهل الحق، ولهذا فإن من لزم الحق الذي كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم وأرضاهم فإنه يكون هو الجماعة حتى وإن كانوا قليلين، لماذا؟ لأن العبرة بلزوم الحق وهو الذي كانت عليه الجماعة الأولى جماعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصحابة رضي الله عنهم وفيها خرج جيل التابعين وهكذا منها خرج أتباع التابعين وأئمة الإسلام، فإذا فارق أحدٌ هذه الجماعة - قلَّ المفارقون أو كثروا - فإنهم يكونون خارجين عن الجماعة بخروجهم عن الحق، ولهذا لما ذكر ابنُ القيم رحمه الله تعالى الإجماع قال: (إجماع أهل العلم والإيمان لا عبرة بمخالف لهم ولو كانوا عديد الشاء والبعران) حتى لو كانوا كثير، لأن من خرج عن الحق وانتشر في أوساطه قول الروافض مثلًا في سب الصحابة وأمهات المؤمنين وقال: هذا أعداد كثيرة، هؤلاء هم الجماعة!! لا ليس هم الجماعة، هم الذين فارقوا الجماعة الأولى التي عليها الاعتماد وهي محل العبرة فالخارج عن هذه الجماعة هو خارج عن الحق حتى لو كانوا كثيرين ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك)، لكن المهم والشأن كل الشأن أن تكون على الحق لا أن تتوهم أنك على الحق، وهذا يحتاج - بعد توفيق الله تعالى - إلى العلم، قد يظن الإنسان أنه على منهج سوي وعلى طريق صحيح ويظن أن من اِلْتَمّوا حوله من مجموعة معينة يقول: نحن الذين على الحق وفارق الحق أناس كثيرون فنحن الجماعة! وتكون هذه أوهام، هذا يحتاج إلى علم وضبط، والجماعة ولله الحمد لا

تكون ليلًا مدلهمًا لا يُعرف، الجماعة واضحة، لما روى البخاري رضي الله رحمه الله تعالى حديث «لا تزال طائفة من هذه الأمَّة ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» قال البخاري رحمه الله: (وهم أهل العلم) العلم الشرعي الصحيح السليم المبني على ما عليه السلف الصالح لا شك أن الملازمين له هم الذين يكونون في الجماعة، أما أن يتوهم الإنسان أنه على الطريق السويّ وأنه هو الذي يمثل الجماعة وهو يخالف ما عليه علماء الأمَّة فهو توهم وهذا كثير في الأمَّة، يعني هذه الفرق الضّالة التي نشأت في الأمَّة نشأت من هذه الجهة، فارق الخوارج زمن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فارقوا علماء الصحابة رضي الله عنهم وذهبوا إلى موضع يدعى حَرَوْرَاء -ولهذا سموا الحرورية- ورأوا أن دارهم هي دار الإيمان وأنهم هم الجماعة ورأوا أن ما عليه عليٌّ رضي الله عنه والصحابة رضي الله عنهم أنهم به صاروا في دار الكفر، فلهذا كانوا يقاتلون الصحابة بزعمهم أن الصحابة فارقوا الجماعة وأن الجماعة التي أنشأوا لها دارًا بحروراء؛ فمن أراد الجماعة فليأت إليهم بزعمهم، فيحدث أن يتوهم إنسان أنه يقيم الجماعة وهو خارج عن الجماعة، فأمر الجماعة أمر عظيم جدًا ضبطه، وبه تعرف أن الجماعة تطلق إطلاقين على القوم المجتمعين فإذا كانوا مجتمعين على الحق فهم الجماعة حتى ولو كانوا قلة، أما مجرد الكثرة فقد يكون فيها كثرة كاثرة، هم من حيث الإطلاق اللغوي هم جماعة لا شك لأنهم قوم مجتمعون فقد يكونون بالملايين، ولكن إذا كانوا على غير الحق فلا عبرة لكثرتهم ولهذا قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(١)، وهذا كثير جدًا به نشأت الفِرَق، الفِرَق أيها الأخوة نشأت من خرص وظن وتوهم أنهم على الحق، لا نتصور أن الفِرَق كانت تخرج لغرض أن يُضرب الإسلام وأن يكون هناك تدمير لأمة الإسلام، قد يوجد هذا في زعماء الفرق نعم كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، يقال زعماء هؤلاء الطوائف كثيرهم زنادقة، لكن يجتمع حولهم من الجهلة ومن السفهاء كثير يظنون أنهم على هدى ويحسبون أنهم على شيء، يظنون أنهم على صواب، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٢) فكثير من هؤلاء يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وإن كان رؤوس الطوائف في أحيان كثيرة يريدون بإحداث البدعة ضرب الأمَّة بلا شك، لكن يجتمع كثير من

(١) الأنعام:١١٦.
(٢) الكهف:١٠٣، ١٠٤.

الغوغاء والهمج والحمقى والسفهاء وقليلي العلم ويجتمعون مع هؤلاء، يقول شيخ الإسلام أيضًا: إنه لا توجد طائفة عندها باطل محض، ما في طائفة تأتي لتدعوا الناس إلى باطل محض بنسبة مئة بالمئة، يقول رحمه الله: بل يشوبون الباطل بحق، يأتي إليهم الناس بسبب ما رفعوه من الحق لكنهم يخلطون هذا الحق بالباطل، يقول: وإلا ما يوجد أحد يجتمع الناس عليه وتكون فِرقة ولها وجود ولها كيان وليس معهم أدنى شيء من الحق، يقول: يكون عندهم شيء من الحق ولكن أظهروا هذا الحق ولبسوه بالباطل كما هي طريقة أهل الزيغ؛ فيجيء كثير من هؤلاء الناس إلى من رفعوا هذه الراية الباطلة ويجتمعون حولهم لأجل أمر من الحق معهم ثم تعشى وتعمى أبصارهم عن تلك الأباطيل الكثيرة التي معهم لمجرد أنهم رفعوا شيئًا من الحق، أما أن يجتمعوا على باطل محض يقول: لا توجد فرقة يجتمع الناس عليها وعندها باطل محض، وإنما يكون معها باطل قد شابوه بالحق، وهذه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) فإنهم يَلبِسون الحق بالباطل وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال.

قال رحمه الله تعالى: وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، قوله: وهو المراد به، الاعتقاد الذي عليه الفرقة الناجية، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، قد يُعَبَّر عنه بالإيمان باليوم الآخر وقد يُعَبَّر عنه بالبعث بعد الموت، البعث بعد الموت ويكون ما بعده من جزاءٍ وحسابٍ وجنة ونار؛ كل هذا داخل في اليوم الآخر.

يقول رحمه الله: وهو الإيمان، الإيمان يفسره كثيرون بأنه هو التصديق، وهذا ليس بصحيح لا في الاصطلاح ولا في اللغة كما حققه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، كثير من الناس يقول الإيمان لغة هو التصديق وهذا منتشر، الحقيقة والصواب أن الإيمان في اللغة ليس مجرد التصديق وإلا فلو كان الإيمان هو التصديق لكان كل موضع وجد فيه فعل آمن يؤمن كان بالإمكان أن تضع بدلًا منه صدق يصدق، هذا ما يطَّرد باللغة، إذًا ما المراد بالإيمان في اللغة؟ الإيمان في اللغة لا يكون مجرد التصديق حتى يكون معه الإقرار، الإقرار المتضمن للانقياد، أما مجرد التصديق فهو بعض معنى الإيمان وليس كل معنى الإيمان، ولهذا شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب الإيمان ذكر أن دعوى المرجئة أن الإيمان معناه التصديق باطل من حيث اللغة وأبطله من عدة جهات، فإن الإيمان فيه معنى الأمن - أنه يُؤْمَنُ الإنسانُ - ولهذا يطلق الإيمان على الأمور

(١) البقرة:٤٢.

التي تغيب ويطلق التصديق على الأمور التي تشاهد، فإذا قيل: طلعت الشمس تقول: صدقت ونقول صدقناك أم نقول: آمنا؟ صدقناك لأنه شيء حسّي، الإيمان يطلق على الشيء المشاهد ويطلق على الأمر الغائب، لهذا دعوى أن الإيمان بمعنى التصديق مطلقًا ليس بسليم، بل التصديق جزءٌ من معنى الإيمان، فتفسير الإيمان بالتصديق المتضمن للإقرار الذي لا بد معه من الانقياد هو التفسير السليم.

والإيمان عند أهل السُّنَّة وبإجماعهم: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان، وقد صنف أهل السُّنَّة في هذا مصنفات كثيرة، وتجد آثارًا جمّة عن السلف الصالح رضي الله عنهم لأن بدعة الإرجاء ظهرت بعد فتنة ابن الأشعث، ابن الأشعث خرج على الحجاج بن يوسف وقاتله وأراد أن يخلع البيعة؛ فانتصر عليه الحجاج بن يوسف وقتل عددًا كبيرًا ممن مع ابن الأشعث، لما حصل ما حصل في هذه الفتنة انبعث الإرجاء، خرج الإرجاء ردة فعل لما وقع من قتال ابن الأشعث مع الحجاج، ولهذا كان خروج الإرجاء متقدمًا فهو من البدع المتقدمة، ليس مثل بدعة إنكار الصفات، بدعة إنكار الصفات متأخرة كما تقدم على يد الجعد بن درهم والذي قلنا قتل بعد عام عشرين ومئة، لهذا تجد في كلام السلف المتقدمين الردّ على المرجئة، ولهذا أبو وائل كما في البخاري لَمَّا سُئِل عن المرجئة روى عن ابن مسعود رضي الله عنه الحديث الدال على بطلان قول المرجئة، فالمرجئة متقدمون ولهذا تكلم عنهم السلف رضي الله عنهم وصنفت المصنفات الكثيرة في أمر الإيمان لأن ضبط مسألة الإيمان مهمة جدًا إذ يترتب عليها أمور كبيرة، عندنا يا أخوة مجموعة من المصطلحات إذا وجد الخلل في مصطلح وجد الخلل في مقابله تمامًا، فعندنا مصطلح الإيمان يقابله الكفر، الذي لا يعرف تعريف الإيمان سيكون عنده خلل في الكفر، عندنا التوحيد يقابله الشرك، الذي لا يعرف معنى التوحيد سيقع عنده خلل في معنى الشرك، ولهذا إذا انضبط عند الإنسان معنى الإيمان عرف الكفر حقيقةً، وإذا لم ينضبط فإنه لا يضبط معنى الكفر، فمن قصر الإيمان على شيء من معناه سيقصر الكفر على شيء من معناه، وبالتالي سيخرج أمورًا هي كفرية عن الكفر، هذا وجه الخطورة، فعلى سبيل المثال: الذين قالوا: إن الإيمان هو مجرد اعتقاد القلب وهو عليه الآن الأشاعرة والماتريدية وعليه أهل الإرجاء وهو الذي استقر عليه الإرجاء لاحقًا؛ إذا قال: إن الإيمان هو التصديق؛ ماذا يكون الكفر؟ يكون الكفر من جهة القلب فقط، فإذا قيل: إن الإيمان هو التصديق فالكفر هو الجحود والتكذيب، ينفتح إشكال خطير جدًا، ماذا لو أن أحدًا تلفظ بالكفر؟ يقولون: هو دخل من جهة قلبه الإيمان فلا نخرجه إلا من جهة قلبه! انفتح

باب شرّ كبير بهذا التعريف، فمن تلفظ بسبّ الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ هذا بلسانه تكلم؛ هنا قالوا: إنه إذا سبّ الله تعالى أو أستهزأ بالشرع فمن جهة تصديق قلبه تصديق قلبه باقٍ فيكون عند الله مؤمنًا ولكن من جهة الحكم الدنيوي يُقتلُ بناءً على أنه تلفظ بألفاظ الكفر، قال أهل السُّنَّة: كيف تقتلونه؟ إذا كنتم تقولون: إن الإيمان هو التصديق والكفر هو الجحود والتكذيب فليس من حقكم أن تقتلوه، إنما يُقتل إذا قلتم إن الإيمان قول باللسان؛ يكون الكفر قول باللسان أيضًا، وإذا قلتم إن الإيمان اعتقاد بالقلب يكون الكفر من جهة القلب، وإذا قلتم إن الإيمان عمل يكون الكفر من جهة العمل، أما أن تقولوا: إن المُعَوَّل على مجرد القلب وتخرجوا عمل الجوارح ونطق اللسان ثم تقتلونه من هذه الجهة تكونون متناقضين، فمن هنا ضاعت المرجئة وضلت ضلالًا مبينًا في هذا الباب، وأقر الكشميري وهو منهم بأن ثمّة إشكالًا على قولهم بالكفر، هذا الإشكال أتى من جهة أنهم إن قتلوا أو كفروا من يتلفظ بلسانه يقول انتقض قولنا في الإيمان لأنه يقول: الإيمان هو التصديق وهذا الشخص يدعي أنه مصدق لكن يتلفظ بلسانه، يقول: وإن قلنا إن هذه الأمور ليست كفرًا مثل رمي المصحف - عياذًا بالله - في موضع النجاسة أو الاستهزاء بالله تعالى أو بنبيّه صلّى الله عليه وسلّم يقول: إن قلنا ليست كفرًا خالفنا إجماع الأمّة، لا شك أنه خلاف إجماع السلف الصالح وما عليه أهل العلم رحمهم لله من أن هذه الأمور كفرية، وقد قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾(١) فدل على أن الإنسان يكفر بكلمة يقولها، كما أنه إذا سجد للصنم يكون كافرًا ويُعْلَم أنه كافر إلا أن يكون ملجئًا مضطرًا كان وضعًا آخر إلا من قالها وقلبه مطمئن بالإيمان، قال أهل العلم: واستثناء المكره من التكفير دليل على أن من فَعَلَ فِعْلَ المكره وهو غير ملجئ وغير مجبر فهو يكفر، وإلا لماذا يستثني اللهُ المكرهَ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾(٢) فمن فعل الفعل الذي رفع التكفير عن المكره به وهو غير مكره لا شك أنه يكون كافرًا لأنه الله استثنى المكره لأنه أُلجئ إلجاءً، السيف على رقبته يقال: اسجد للصنم وإلا قتلناك؛ فاستثناه الله تعالى من الفعل الكفري لأن قلبه مطمئن بالإيمان، ومن قيل له: تلفظ بألفاظ كفرية كشتم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما حصل لعمار رضي الله عنه وإلا أمسُّوه بعذاب شديد لا يتحمله فتلفظ، هذا يستثنى لأن قلبه مطمئن بالإيمان وهو ملجئ مكره، فمن

(١) التوبة:٧٤.
(٢) النحل:١٠٦.

فعل هذا الفعل وهو غير مكره (كلمة غير واضحة) يكون كافر، لأن الله استثنى المكره لأنه بمثابة الآلة في يد مَنْ أكرهه، فمن تلفظ بهذه الألفاظ غير مكره فإنه يكون كافرًا، قال شيخ الإسلام: بإجماع الأمَّة وإن ادعى بأن ما في قلبه اعتقاد صائب وأن تصديقه منعقد عليه القلب، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال: إن حكاية قالها القاضي أبو يعلى عفا الله عنه نسبها للفقهاء بأن ثمة قولًا نسبه لأهل العلم في أن مثل هذا لا يكون كافرًا إلا إذا انعقد عليه قلبه! قال: لِيُعْلَمْ أن هذه الحكاية التي قالها أبو يعلى تلقفها من أناس من المرجئة، ولا يمكن أن ينقل في هذا عن أحدٍ من أهل الفقه وأهل الفتوى قولٌ بأن مثل هذا - أي غير المكره - يكون غير كافرٍ، لأن الله تعالى استثنى المكره في حال الإكراه فمن فعل الفعل الذي لأجله استثنى الله تعالى المكره - وهو غير مكره - فلا شك أنه يكون كافرًا، ولهذا ضبط هذه المسألة في غاية الأهمية ولهذا لَمَّا لم تضبط هذه المسألة سببت شيئًا من الشقاق داخل المنسوبين للسُّنَّة، إذا قلنا إن الإيمان قول واعتقاد وفعل، قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب؛ فإن الكفر يكون بالقلب من جهة اعتقاده، ويكون باللسان من جهة نطقه، ويكون بالجوارح من جهة عملها إذا عمل عملًا كفريًا، فإن ادعى أنه يقول القول الكفري وقلبه مطمئن بالإيمان وهو غير مكره فقال شيخ الإسلام: فهذا يُكَفَّرُ ظاهرًا وباطنًا بإجماع المسلمين، إنما جاء الإشكال من مقولة خبيثة تسربت من عدو الله الجهم بن صفوان وهو أول من قال إن من سجد للشمس أو سجد للصنم لا يُكَفَّرُ! وهذا متماشي مع تعريف الجهم للإيمان لماذا؟ لأن الجهم يقول الإيمان هو المعرفة مجرد المعرفة، قال والكفر هو الجهل، فبناءٍ عليه من سجد للشمس لم تَزُلْ عنه المعرفة ومن سجد للصنم لم تَزُلْ منه المعرفة، هذه المقالة انتقلت إلى الأشاعرة وإن عبَّروا عنها بالتصديق، وصنف كثيرٌ منهم في الشروحات وفي التفاسير فتسربت جملة وهذه من الإشكالات التي تسربت لبعض طلبة العلم جملة من الإشكالات الموجودة عند المرجئة وعند المعطلة تسربت من خلال شروح الحديث ومن خلال التفاسير ومن خلال كتب أصول الفقه، ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يستفيد من هذه الكتب وينتفع بما فيها مع ملاحظة الإشكالات العقدية عند المصنف، لأنه إذا كان من المرجئة فإنه إذا أتى إلى الحديث فسيشرحه على طريقة المرجئة، وإذا كان من المعطلة فإنه سيشرح الحديث على طريقة من يؤولون النصوص، وهذا المفسر وهكذا غيرهم، فينبغي أن يلاحظ هذا وأن يضبط أمر الأيمان لأنه إذا لم يُضبط على طريقة أهل السُّنَّة فإن الإنسان يكون عنده شيء من الاضطراب والتناقض،

الإيمان قول والكفر قول، الإيمان اعتقاد والكفر اعتقاد، الإيمان فعل والكفر فعل، أما أن تقول الإيمان قول واعتقاد وعمل والكفر لا يكون بالقول ولا يكون بالعمل هذا تناقض لا هو بقول المرجئة ولا هو بقول أهل السُّنَّة صار قولًا مركبًا من قولين فينبغي أن يلاحظ هذا الأمر.

الإيمان بالله عزّ وجلّ توسع الشيخ محمد بن عثيمين رحمة الله تعالى عليه فيه وأظنه أخذه من شيخه الشيخ ابن سعدي رحمة الله عليه لأنه له موضعًا في التفسير في ما الذي يتضمنه الإيمان بالله عزَّ وجلّ؟ والمقام يطول ما عندنا من الوقت ما نستطيع أن نطيل فيه، لكن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

الإيمان بوجوده تعالى، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، ويأتي بإذن الله تعالى وبحول الله تعالى على شيء من مسائل الأسماء والصفات ونحوها إن شاء الله تعالى فيما يأتي قال: وملائكته، الملائكة خلق من خلق الله عزّ وجلّ ثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنهم خلقوا من نور، وهذه من آيات الله البالغة كما أن الله تعالى يخلق أبانا آدم من طين ثم جعل هذه الذراري الباقية إلى قيام الساعة من ماء مهين، وخلق الله تعالى الجن من مارج من نار، فإن الله تعالى خلق هذه الملائكة من نور والله على كل شيء قدير سبحانه، هذه الملائكة مطيعة دائمة لله عزّ وجلّ، ليس عندهم معصية، فليس في السماء معصية، ليس في السماء من يعصي، المعصية في الأرض، قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(١) قال تعالى في الخزنة الذين في النار: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٢) وهذا وصف الملائكة كلهم، الملائكة لا تعصي بتاتًا وهي في طاعة دائمة.

ذكر الشيخ رحمه الله أن الإيمان بالملائكة يتضمن الإيمان أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كقدرتهم بإذن الله تعالى على التشكل وأنهم ذوو أجنحة كما ذكر الله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾(٣) صفات كثيرة للملائكة.

---

(١) الأنبياء:٢٠.
(٢) التحريم:٦.
(٣) فاطر:١.

الثالث: الإيمان بما علمنا من أعمالهم، وأعمالهم عليهم صلوات الله وسلامه نوعان: النوع الأول عام يشترك به جميع الملائكة من جبريل ومن بعده من كل ملائكة الرب سبحانه وتعالى، وهو الطاعة الدائمة مستمرة، قال صلّى الله عليه وسلّم: «ما من موضع أربع أصابع إلا وملك واضع رأسه ساجدًا» فهم سُجَّد لله تعالى رُكَّع في عبادة مستديمة، ثم إنهم لا يفترون، الإنسان لا بد له من راحة، لو واصل العبادة فَتَرَ، أما هم كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(١) ما عندهم فتور أبدًا عليهم صلوات الله وسلامه.

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من أسمائهم، وأسماؤهم منها ما علمناه كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك وغيرهم ممن ثبتت أسماؤهم، والبقية نؤمن بهم إجمالًا، والملائكة خلق كثير للغاية، لا يحصيهم إلا الله، قال صلّى الله عليه وسلّم لما ذكر البيت المعمور: «ثم رفع لي البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك» كل يوم عدد هائل لا يحيط به إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٢) إذا خرجوا لم يعودوا، يعني يكون في يوم سبعون ألف ثم من الغد سبعون ألفًا غير السبعين الذين كانوا بالأمس وغير السبعين الذين كانوا باليوم، غدًا يدخل سبعون ألف غير السبعين الألف الذين في اليوم، وهكذا، ولهذا جاء في الروايات أن ملائكة السماء إذا بعث الله تعالى الخلق نزلت ملائكة السماء وهي على عدد الإنس أو قال على عدد الجن، ملائكة السماء الأولى فقط، فتأتي ملائكة السماء الثانية بعدهم، ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فيحيطون جميعًا بهم إحاطةً تامة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ما يمكن أن يستطيعوا ﴿أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾(٣) يحيط بهم الملائكة إحاطة تامة، فالملائكة لا يحيط بعددهم إلا الذي خلقهم سبحانه.

هذه الأمور الأربعة التي ذكرها رحمه الله تعالى في الإيمان بالملائكة، وموضوع الملائكة لا شك أنه موضوع كبير وعظيم ويترتب عليه ثمار فصلها رحمه الله تعالى في كُتيب نافع جدًا اسمه شرح أصول الإيمان، جيد هذا الكتاب ونافع وفيه تيسير وتسهيل لمسائل الإيمان الستة هذه.

---

(١) الأنبياء:٢٠.
(٢) المدثر:٣١.
(٣) الرحمن:٣٣.

هذه الأركان الستة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر؛ تسمى أركان الإيمان وتسمى أصول الإيمان، ولك أن تُعَرِّفَ بها العقيدة، فتقول العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، لأن مسائل الاعتقاد هي في هذه المسائل، فالتوحيد مثلًا وما يتعلق بما يضاده من الشرك وغيره كله داخل بموضوع الإيمان بالله، موضوع الإيمان بالرسل، حقيقة النُّبوّة، دلائل النُّبوّة، حقوق الرسول صلّى الله عليه وسلّم، حقوق أصحاب النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، حقوق آل النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، كل هذا يدخل في موضوع الإيمان بالرسل، يذكر، منه ما يكون أصالة ومنه ما يكون تبعًا، فمسائل الاعتقاد هي هذه، فشيخ الإسلام رحمه الله قال: فاعتقاد الفرقة الناجية هو الإيمان بهذه الأصول الستة.

قال: وكتبه، الكتب هي التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله عليهم الصّلاة والسّلام والإيمان بها يتضمن بخمسة أمور، ذكر رحمه الله تعالى منها أربعة وواقع الأمر أنها خمسة، الإيمان بالكتب الإيمان بأنها نزلت من عند الله حقًا هذا الأول، الثاني: الإيمان بما علمنا من أسمائها وما لم نعلم نؤمن بها إجمالًا، وأسماء الكتب التي نعلمها مثل القرآن والتوراة والإنجيل والزبور والصحف وما لم نعلم نؤمن به إجمالًا قال الله تعالى: ﴿قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾(١)، الثالث: تصديق ما صح من أخبارها، أخبار هذه الكتب فالقرآن كله حق لكن الكتب الموجود فيها لا شك أنه حق بلا ريب حيث أنزله الله لكن لأن أهل الكتاب صاروا يضيفون أشياء من عندهم وينسبونها لكتب الله صار لا بد من التقييد، نقول: الإيمان بما صح من أخباره أي مما هو فيها فعلًا أما ما أضافوه وافتروه فإنه في واقع الأمر ليس من الأخبار التي أنزلها الله، ولهذا يقيد بهذا القيد الإيمان بما صح أخبارها، الرابع: العمل بالكتاب الذي أنزل إلينا وهو كتاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي أنزله الله تعالى وهو القرآن، أمر خامس يتعلق بالكتب ذكره الشيخ رحمه الله في مواضع أخرى لكن كان ينبغي أن يُذكر في هذا الموطن وقد نبّه عليه الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله في معارج القبول عند الإيمان بالكتب مع هذه الأمور الأربعة لا بد من الإيمان أن الله تكلم بها سبحانه، لأنا نقول: كتب الله لأن الله تكلم بها سبحانه، الرب تبارك وتعالى هو الذي تكلم بالقرآن تكلم بالتوراة تكلم بالإنجيل فهذه هي كتب الله لهذا نُسبت إلى الله لأن الله هو الذي تكلم بها.

---

(١) الشورى:١٥.

الإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بخمسة أمور أيضًا وهو قريب من موضوع الإيمان بالكتب، الإيمان بأنهم مرسلون من عند الله حقًا، الثاني: الإيمان بما علمنا من أسمائهم وما لم نعلم نؤمن به إجمالًا، والذين ذُكروا من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام في القرآن خمسة وعشرون، ومن لم نعلم منهم نؤمن به إجمالًا قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(١)، ورسل الله تعالى عدد كبير جدًا لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢) وجاء في الحديث الذي رواه أبو ذرٍّ رضي الله عنه عدد الأنبياء وعدد الرسل عليهم الصّلاة والسّلام فيه بيان أن الأنبياء بالألوف عدد كبير جدًا وأن الرسل ثلاثمئة وبضعة عشر، لكن اختلف أهل العلم في إسناد هذا الحديث، منهم من يضعفوه ومنهم من يصححه، لكن لا ريب أن عدد الأنبياء والرسل كثير جدًا لأن الأمم ما كانت تُخلى من نذير ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، الرابع: تصديق ما صح من أخبارهم أيضًا كما قلنا في الكتب، الخامس: العمل بشرع من أُرسل إلينا منهم صلوات الله وسلامه عليه، هذا الرابع، الأول: الإيمان بأنهم مرسلون من عند الله حقًا، الثاني: الإيمان بما علمنا من أسمائهم وما لم نعلم نؤمن به إجمالًا، الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم، الرابع: العمل بشرع من أرسل إلينا منهم، الخامس - وهذا الذي ذكره الشيخ حافظ رحمه الله -: الإيمان بأنهم بلغوا ما أرسلوا به لم يزيدوا ولم ينقصوا عليهم صلوات الله وسلامه.

تكلم أهل العلم عن معنى الرسول، وموضوع الرسول والنَّبيّ مما كَثُرَ كلامُ أهل العلم رحمهم الله تعالى فيه والفرق بين النَّبيّ والرسول، لكن لاشك أن الرسول أفضل من النَّبيّ وأن الرسالة درجة أرفع من النُّبوّة، من أهل العلم - وهو القول المشهور - من يقول: إن النَّبيّ من أوحي إليه بشرعٍ ولم يؤمر بتبليغه، أما الرسول فهو الذي أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه، فالفرق عندهم بين الرسول وبين النَّبيّ هو في أمر البلاغ، يعني يتفق الرسول والنَّبيّ في أمر الوحي كلاهما قد أوحى الله إليه، لكن الفرق أن الرسول يؤمر بالبلاغ وأن النَّبيّ لا يؤمر بالبلاغ، هذا هو القول المنتشر المشهور، اختار شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب النبوّات قولًا كأنه والله أعلم أقوى وأدق في الفرق بين النَّبيّ والرسول ذكر فيه أن الرسول هو من أُرسل إلى قومٍ مخالفين كفار أما النَّبيّ فهو من أُرسل إلى قومٍ مؤمنين واستدل على أن النَّبيّ لابد أن يُرسل لقول الله تعالى ﴿وَمَا

(١) غافر:٧٨.
(٢) فاطر:٢٤.

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾(١) الآية قال رحمه الله: فذكر الله إرسالًا يعُمُّ الاثنين فذكر إرسال الرسول وإرسال النَّبيّ، قال: لكن الفرق أن النَّبيّ يكون في قوم مؤمنين، فهو مثل المُجَدِّدِ لرسالة من قبله، أما الرسول فيرسل إلى قومٍ كافرين، ولهذا مهمة الرسول أكبر، واستدل رحمه الله بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾(٢) التوراة شريعة موسى، وموسى على هذا التعريف لا شك أنه رسول - هو رسول عند الجميع - يقول الله في شريعة موسى التي أنزلها الله في التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ قال رحمه الله: فكان أنبياء بني إسرائيل يحكمون بشريعة موسى، وكان الشأن في بني إسرائيل كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «كان بني إسرائيل كلما هلك نبي خَلَفَهُ نبي» فكانت الأنبياء فيهم كثير والله تعالى يقول في التوراة هنا: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ وموسى رسول قال فدل على أن النَّبيّ يكون بمثابة المجدد لشرع من قبله ويكون تابعًا للرسول قبله، ولا يعني ذلك أنه لا يوحى إليه بل يوحى إليه، فهو صار نبيا لأنه يوحى إليه لكن يكون تابعًا لمن قبله.

ذكر مسألة مهمة جدًا وهي أن الرسول ليس بالضرورة أن يأتي بشريعة جديدة، لأن من أهل العلم من يقول الرسول من يأتي بشريعة جديدة والنَّبيّ هو من يكون تابعًا لمن قبله، قال: ليس لازمًا لأن الرسول قد يأتي بشريعة من قبله واستدل على هذا بيوسف عليه الصّلاة والسّلام ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٣) قال: فكان يوسف على شريعة إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام لكنّ الفَرْقَ أن يوسف عليه الصّلاة والسّلام قد بعث لمخالفين فالضابط عنده رحمه الله نوع المبعوث إليهم فإن بُعث إلى قوم مؤمنين فهو نبي وإن بُعث إلى مخالفين فهو رسول، ومن أهل العلم من يختار القول الثاني أن الفرق هو أمر الإنباء هذا هل يكون بعده أمر بالإبلاغ فإن أُمِر بالبلاغ فهو رسول وإن لم يُؤمر بالبلاغ فهو نبي.

قال رحمه الله: والبعث بعد الموت يأتي الكلام إن شاء الله تعالى على اليوم الآخر مفصلًا بإذن الله تعالى.

قال: والإيمان بالقدر، الإيمان بالقدر يأتي الكلام عليه مفصلًا بإذن الله تعالى.

---

(١) الحج:٥٢.
(٢) المائدة:٤٤.
(٣) يوسف:٣٨.

قال: خيره وشره، فالقدر فيه ما هو خير وفيه ما هو شرّ، قال الله عزّ وجلّ بيانًا لكون الخير والشر من عنده والسيئة والحسنة كلها من عنده: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(١) فالله تعالى هو الذي يُقَدِّرُ الخير وهو الذي يُقَدِّرُ الشرّ بلا شك ولا تقع تحريكة ولا تسكينة في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، لكن الله تعالى حين يُقَدِّرُ الشرّ يُقَدِّرُهُ لحكمة بالغة، فلهذا لا يُقَدِّرُ الله سبحانه الشر عبثًا حاشاه تعالى، فمن جهة تقدير الله تعالى للشرّ لا شك أن تقدير الله لهذا الشرّ حق وحكمة بالغة، وليس في أفعاله تعالى ما يمكن أن يُوصف سبحانه وبحمده بالبعد عن الحكمة حاشا لله من ذلك، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «والشر ليس إليك» لأن الله تعالى لا يُقَدِّرُهُ عبثًا محضًا بل يُقَدِّرُهُ لحكمة، فالمصاب الذي أصاب المسلمين في أحد لا شك أنه كان شيئًا جللًا وعظيمًا وسماه الله بالمصيبة، قدَّرَهُ الله سبحانه وتعالى وشاءه عزَّ اسمُه لحكمة بالغة ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٢) يعني أنتم السبب فيه، كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾(٣) فلما حصل ما حصل من الرماة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم حين نزلوا قبل أن يرسل إليهم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «امكثوا هنا وإن تخطفتنا الطير، لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا»، لأن الجبل كان يخشى صلّى الله عليه وسلّم منه أن يأتي الكفار من جهته، وأمرهم أن يبقوا فلما نزلوا عليهم رضوان الله صار ذلك نوع معصية قال تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾(٤) فقدَّرَ اللهُ المصيبةَ ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٥) أي بسببكم، ماذا قال بعدها؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٦) هو الذي قدَّرَهَا لأنه قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٧) عزّ وجلّ، لا شك أنه بإذنه وبقَدَرِه، فيُقَدِّر سبحانه الخير والشرّ لكن يُقَدِّرُ الشرّ لحكمة، قال أهل العلم: من جهة التقدير الآتي من الله لا شك أنه حق وخير لأن الله قدَّرَه ووقع في موقعه، من جهة المقدور الذي يقع منفصلًا يكون شرًا مثل

(١) النساء:٧٨.
(٢) آل عمران:١٦٥.
(٣) آل عمران:١٥٢.
(٤) آل عمران:١٥٢.
(٥) آل عمران:١٦٥.
(٦) آل عمران:١٦٥.
(٧) آل عمران:١٦٦.

ما وقع في أحد، قَتْلُ العددِ الكبير منهم رضي الله عنهم والمصاب الذي حصل عليهم شديد لا شك أنه شديد لكنه وقع موقعه، قال أهل العلم: مثاله قطع يد السارق، فبتر يد السارق من حيث المحلّ وإبانة يده شر بالنسبة إليه هو لكن من جهة الحق والعدل والحكم الصواب لا شك أنها خيرٌ، ويأتي إن شاء الله الكلام على تفاصيل أخرى سيأتي بعون الله تعالى، نعم.

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)، فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ.

.....

نعم، يقول رحمه الله: ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه، الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه، من الإيمان، يعني بعض من الإيمان، من هنا تبعيضية، من الإيمان بالله تعالى أن تصفه بما وصف الله تعالى به نفسه، وأين نجد وصف الله تعالى لنفسه؟ في كتابه أو فيما وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم المبلغ عن ربه.

أولًا اعلم أن هذه الأوصاف التي وصف الله تعالى بها نفسه وهذه الأسماء التي سمى الله تعالى بها نفسه قد بيّن الله سبحانه في كتابه أنها على أعلى ما تكون من الكمال، قال سبحانه في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٢) والحسنى اسم تفضيل ولم يقل سبحانه (ولله الأسماء الحَسَنة) بل الحُسنى وهي التي بلغت في الحسن أعظمه وأعلاه، أما الأوصاف فاحفظ هذه الآية وهي قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾(٣) المثل المراد به الوصف أي لله الوصف الأعلى، الأعلى اسم تفضيل أيضًا، ماذا تلاحظ؟ أن الأسماء والصفات معًا ذُكِرَ فيها اسمُ التفضيل، ولم يقل سبحانه (ولله المثل العالي) بل قال الأعلى، ولما ذكر الأسماء لم يقل (ولله الأسماء

(١) الشورى:١١.
(٢) الأعراف:١٨٠.
(٣) النحل:٦٠.

الحَسنة)، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١) فدل على أن ما وصف الله به نفسه أو سمى به نفسه أنه على أعلى ما يكون من الكمال والعظمة والجلال لله رب العالمين.

وصف به نفسه في كتابه، لماذا وصف الله نفسه وسمى نفسه في كتابه ليُعَرِّفَ عباده بنفسه، لهذا قال شريك رحمه الله: (بهذه الصفات عرفنا الله)، فلولا أن الله تعالى أخبرنا بتفاصيل هذه الصفات ما عرفنا الله، هذه الصفات وهذه الأسماء بيّن الله تعالى فيها اللائق به والذي لا يليق به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي﴾ الذي: اسم موصول والاسم الموصول لا بد له من صلة بالموصول، صلة الموصول تابعة لما قبلها تُعَرِّف ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فلما كان هذا تعريفًا وتعظيمًا لله قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) لأن هذه أوصاف عظيمة جليلة، خلق السماوات والأرض لا شك أن هذا من دلائل عظمته ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ذكر استوائه على العرش بعد خلقه السماوات والأرض دليلًا على كون استوائه على العرش من أفعاله سبحانه وتعالى التي يُعَظِّمُ بها ويُحْمَدُ عليها سبحانه وتعالى ثم قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ فالذي يجعل الليل والنهار على هذه الحال الذي تراه هو الله رب العالمين ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ على عظمتها كلها ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ تعالى ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فدل على أن وصف الله تعالى لنفسه فيه تعظيم وفيه دلالة على جلالته، ولهذا خطورة نفي الصفات من عدة جوانب، من أوضحها جانبان:

الجانب الأول: أن نفي الصفات يقطع تعريف الله عزّ وجلّ لنفسه، ما يعرف العباد ربهم بهذه الحالة، لأنه عرفهم سبحانه وتعالى بنفسه في كتابه فإذا قيل: الأسماء والصفات الواردة في القرآن نصوصها تُتَأَوَّل؛ فمعنى ذلك عياذًا بالله أن التعريف الذي عَرَّف اللهُ به نفسَه قد قطع.

الأمر الآخر أن نفي الصفات يتطرق منه عدم استحقاق الرب سبحانه وتعالى للعبادة، لأن الله تعالى استحق العبادة لأنه عزَّ اسمه على أكمل ما يكون من الكمال، تأمل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ

(١) الأعراف:١٨٠.
(٢) الأعراف:٥٤.

الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾(١) فأنت تعبد ربك لأنه هو الذي خلقك وأوجدك من العدم فرتب الأمر بالعبادة سبحانه وتعالى على قوله خلق، ولهذا قال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه بيانًا لكون هذه الأوثان لا تستحق أن تعبد: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(٢)، فإذا نُفِيَ – عياذًا بالله – عن الله السمع والبصر وإبراهيم يطعن في استحقاق الأصنام للعبادة من عدة جهات منها أنها لا تسمع ومن جهة أنها لا تبصر فإذا قيل - عياذًا بالله - الله لا يسمع ولا يبصر يترتب على هذا نفس ما اتجه إلى الأصنام من عدم استحقاقها للعبادة، يقول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: لِمَ تعبد هذه الأوثان التي لا تستحق أن تُعبد؟ لماذا؟ لأنها لا تسمع لا تبصر لا تغني عنك شيئًا، فإذا قيل - عياذًا بالله -: إن الله لا يسمع ولا يبصر فكما قال ابن خزيمة رحمه الله تعالى في التوحيد: (ألا ترون يا ذا الحِجَا أن إبراهيم كان يدعو أبيه إلى ترك عبادة هذه التي لا تسمع ولا تبصر إلا لأن الله تعالى يسمع ويبصر، ولو أن إبراهيم دعا أباه إلى عبادة رب لا يسمع ولا يبصر وقد قدح بالأصنام بقوله لا تسمع ولا تبصر؛ لأوشك أن يقول أبو إبراهيم: وربك يا إبراهيم لا يسمع ولا يبصر! فإذا كنت تقدح في الأصنام لأنها لا تسمع ولا تبصر وتريد أن أترك عبادة الأصنام فربك لا يسمع ولا يبصر، ولكن لأن الله يسمع ويبصر - وهذا مما استحق الله به العبادة - فالأوثان لا تستحق أن تعبد لأنها لا تسمع لا تبصر لا تغني عن العبد شيئًا)، فنفي الصفات خطر جدًا، وآثاره في قطع تعريف العباد بربهم، وفي أن ينفتح باب عدم استحقاق الرب للعبادة عياذًا بالله من قول أهل الباطل لأن مما يرد به على نُفَاة الأسماء والصفات أن الذي ليس له صفات كمال لا يستحق أن يعبد، ولهذا فإن الرب سبحانه وتعالى سَّفه من عقول بني إسرائيل لَّما عبدوا العجل قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾(٣)، فإذا قيل: إن الله لا يتكلم والله تعالى يُبيِّن أن العجل لا يستحق العبادة لأنه فيه عدة نواقص، منها أنه لا يتكلم فإذا قيل - عياذًا بالله - والله لا يتكلم والله لا يسمع والله لا يبصر انفتح - عياذًا بالله - شبهة كبيرة أن الله تعالى لا يستحق أن يعبد لأننا نقدح في هذه المعبودات لأنها ليست ذات صفات من الكمال تستحق معها أن تُعبد، فإذا نفي عن الله تعالى صفات الكمال فمعنى ذلك أنه تتجه نسأل الله تعالى العافية

(١) البقرة:٢١.
(٢) مريم:٤٢.
(٣) الأعراف:١٤٨.

تتجه الحجة إلى كونه سبحانه وتعالى لا يسمع ولا يبصر، ولهذا قال أهل العلم: الخلل في جانب من التوحيد يعود بالخلل على جوانب أخرى، فلا نتصور أن الذي يُخِلُّ بالأسماء والصفات - حتى لو لم يوجد عنده شرك – لا نتصور أن التوحيد عنده سليم، فإن التوحيد عنده يهتز وينفتح عليه - عياذًا بالله – هذا الباب الخبيث، وبه نعلم من هذه الجملة أن الإيمان بما وصف الله به نفسه هو من جملة الإيمان، الأمر الآخر في قوله وصف به نفسه في كتابه نعلم أن معرفة أسماء الله تعالى وصفاته يكون من خلال القرآن ومن خلال السُّنَّة لقوله هنا بما وصف به نفسه في كتابه، ولهذا فالأسماء والصفات هذه لا تُتَلَقَّى إلا من الكتاب والسُّنَّة، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسولُه صلّى الله عليه وسلّم، لا يُتجاوز القرآنُ والحديثُ)، لا يتجاوز أحد القرآن والحديث بتاتًا، وإنما يوصف الله تعالى بما وصف نفسه أو وصفه به رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

قال بعدها رحمه الله: من غير تحريف ولا تعطيل، ما المقصود بالتحريف؟ هو التغيير، فنؤمن بها على المعنى الجلي البيِّن الذي دلت عليه هذه المعاني بشكل جلي واضح، هذه المعاني - معاني الأسماء والصفات ولله الحمد - جليَّة بنفسها وهي أيضًا مُفسرة ومبيَّنة في نصوص النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفي تفاسير الصحابة رضوان الله عليهم وفي تفاسير التابعين فهي موجودة ومضبوطة، تجدها جليّة موضحة في تفسير ابن جرير مسندًا وفي تفسير ابن أبي حاتم ونحوها من التفاسير التي تروي معاني هذه الآيات بالسند، فبحمد الله ومِنَّتِه معني هذه الأسماء والصفات واضحة جلية ليست خفية، فيأتي هؤلاء المبتدعة وكما ذكر أهل العلم يقول أهل العلم: لو أن المبتدعة ردُّوا هذه النصوص جحدًا كالاستواء وغيره لكانوا كفارًا بالإجماع لكن يقول أنا أقرُّ بأن الله استوى على العرش من قال: إني كافر لا أقر بأن الله استوى على العرش حاشا لله أنا أقول الله استوى على عرشه لكن معناه كذا -يُحَرِّفُ المعنى-، أما لو قال: لا، الله لا يستوي على عرشه وإن قال أنه استوى على عرشه؛ يكفر بالإجماع لأنه جحد النص، فيأتون بأمر التحريف، هم يُسَمُّون التحريف تأويلًا، ويسمونه صرف اللفظ عن ظاهره، لكنهم يصرفون اللفظ البيّن الجلي عن ظاهره إلى هواهم وإلى بدعتهم، ولهذا قال الشيخ هنا: من غير تحريف بيانًا لكون ما سموه تأويلًا تحريفًا في الواقع، من غير تحريف، إذًا التأويل هو التحريف وإمالة الشيء وهو على نوعين، التحريف يقع على نوعين: إما أن يُحَرَّفَ اللفظ نفسه وهذا مستحيل أن يقع في القرآن، النوع الثاني تحريف المعنى، وهو الذي سلكته طوائف الضّلال حرّفوا هذه

المعاني، وأما الألفاظ فالله تعالى حافظها، ومع ذلك فإن المعاني ولله الحمد محفوظة لكنهم يحرفون ويلبسون على الناس بها.

قال: ولا تعطيل، التعطيل هو الإخلاء، أن تخلي الشيء كما قال تعالى ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾(١) قد عطلت وتركت، من غير تحريف ولا تعطيل، ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟ التعطيل خطوة واحدة، وهو أن يأتي إلى اللفظ الجلي الواضح فيعطل معناه، مثل الاستواء على العرش معناه العلو على العرش والارتفاع على العرش، يقول: لا، ليس هذا معناه، أنت الآن عطلت معناه، ما معناه؟ يقول: لا أعطيك معناه، أنا أقول هذا المعنى وهو الارتفاع عن العرش والعلوّ على العرش ليس هو المقصود، ما المقصود؟ يقول: ليس لهذا اللفظ معنى، معناه غير ظاهر، فما هو؟ يقول: لا أعطيك معناه، لا نحيط بمعناه، هذا المعطل، المُحَرِّف ماذا يفعل؟ المحرِّف يتخذ خطوتين اثنتين، المحرِّف يعطل وهي الخطوة الأولى بأن يرفض المعنى الواضح ثم يأتي بمعنى من تلقاء نفسه، يدعي أنه هو معنى اللفظ، إذًا فالفرق بين التحريف والتعطيل على ما ذكرناه، التعطيل خطوة واحدة: أن يرفض المعنى الصحيح، والتّحريف أن يرفض المعنى الصحيح ثم يأتي مبتدعًا قائلًا بلا علم يأتي بمعنى باطل يجعله لهذا اللفظ.

ثم قال رحمه الله: ومن غير تكييف ولا تمثيل، لعلنا نُرْجِئه إن شاء الله تعالى الكلام على التكييف والتمثيل إلى الغد لأنه سيبدأ الشيخ عبد الرحمن حفظه الله، والله تعالى أعلم وصلّى الله تعالى وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه.

(١) الحج:٤٥.

في بيان اعتقاد أهل السُّنَّة في الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، تقدم أن التحريف يراد به هنا التغيير، وأنه هو التعبير السليم بدلًا من أن نقول من غير تأويل، لأن التأويل يطلق تارةً على معنى صحيح وهو الوارد في كتاب الله عزّ وجلّ وهو إلى ما يؤول إليه الأمر، ويطلق على معنى التفسير، ويطلق عند المتأخرين الذين نَحَوا منحى تغيير الصفات على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يزعمونه فسموا هذا تأويلًا، والواضح أنه تحريف كما تقدم من غير تحريف ولا تعطيل: تقدم بيان الفرق بين التحريف والتعطيل، فقال رحمه الله تعالى: ومن غير تكييف ولا تمثيل، التكييف والتمثيل طريقة أهل التشبيه وطريقة أهل التعطيل هي السابقة؛ إما التحريف وإما التعطيل، والمعطل إذا عطل اللفظ عن ظاهره فإنه يزعم أن المعنى غير معلوم فيفوض المعنى، ولهذا قلنا: إن المحرف يأتي بمعنى من تلقائه بعد أن يغير المعنى، أما المعطل فإنه يعطل اللفظ عن ظاهره ولا يأتي بمعنى ويقول يُفَوَّضُ معناه، وهذان مسلكان لأهل التأويل الباطل، ومن نفيس ما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فائدة مهمة لطالب العلم في بيان حقيقة ما عليه أهل التعطيل وهو أنه رحمه الله لما تكلم عن تأويلات المتأخرين كابن فورك والرازي وأبي الحسين البصري والجبائي وأمثالهم؛ هذه التحريفات للنصوص من أين أتت؟ بيّن رحمه الله تعالى أنها أتت من بِشْر المِريسي والذي كان معاصرًا للشافعي رحمه الله تعالى ولعدد من أئمة الإسلام وضلَّلوه وبدَّعوه، بِشْرٌ هذا لم يلقَ الجهم بن صفوان كما قلنا وإنما كما قال الذهبي رحمه الله تعالى تلقف أقوال الجهم بن صفوان من أصحاب الجهم أنفسهم، وكان بِشْرٌ هذا من عتاة الجهمية وهو رأس الجهمية فيما بعد، لَمَّا صنَّف مصنفًا في تحريف هذه النصوص ردَّ عليه الإمام العلامة عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه المعروف في الرد على بشر المِريسي - رد عثمان بن سعيد - فردَّ عليه رحمه الله تعالى وصار إذا رد عليه ينقل تأويلات تحريفات بشر المِريسي هذا ويرد عليها، يقول شيخ الإسلام: فعلمنا أن التأويلات التي عند الرازي وأبو الحسين البصري وعند الجبائي وعند ابن فورك قد تلقوها من بِشر هذا؛ لأن الدارميَّ يقول: إنك تقول في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١) استولى وتزعم أن هذا مدلول اللفظ في كتاب الله والرد عليك كذا، فوجدت نفس تأويلات بشر المِريسي عند هؤلاء المتأخرين، فدل أن التجهم كما قلنا الجهمية تيار، الجهمية عند السلف هم كل من نفى الصفات أو بعضها، وهذا يدلك على أن الجهمية تيار يتلوَّن ويتفاوت، فهم على ثلاثة اتجاهات،

(١) طه: ٥.

الاتجاه الأول اتجاه الجهمية الغلاة وهم الذين ينفون جميع الأسماء وجميع الصفات وهذا اتجاه الجهم بن صفوان، الاتجاه الثاني الذين ينفون الصفات ويزعمون أنهم يثبتون الأسماء وهم المعتزلة، الاتجاه الثالث فروع الجهمية رأسهم الكُلَّابية أتباع عبد الله بن سعيد القطان ابن كُلَّاب ثم ورثتهم الأشعرية والماتريدية فصاروا ينفون كثيرًا من الصفات ويثبتون الأسماء، وأصل شبهة ابن كُلَّاب - التي تبعه عليها متقدمو الأشاعرة - إثبات الصفات الذاتية دون الصفات الفعلية، ثم صار الأشعرية المتأخرون على قول قريب جدًا من مقولة المعتزلة بإثبات سبعة من الصفات فقط ونفي باقي الصفات، وهذا يدل على أن هذا التيار هذه التيارات التي تكون بدعية تيار الخوارج يكون له عدة ألوان فتجد عند هذه الطائفة مقولة من مقولات الخوارج، تجد غلوًا أو تجد دون ذلك، فالإباضية على سبيل المثال خوارج بلا شك بإجماع أهل العلم لكنهم خالفوا متقدمي الخوارج كالأزارقة والنَّجَدَات في بعض المسائل، فالنَّجَدات على سبيل المثال كانوا يقتلون الصبيان وفيه الأثر المعروف عن نجدة الحوطي أنه كتب لابن عباس رضي الله عنهما يستفتيه في قتل الصبيان لأنهم يستحلون قتل المسلمين ويرونهم كفارًا و يقتلون صبيانهم واستدل على ابن عباس رضي الله عنهما بقتل الخضر للغلام فقال حَبر الأمة رضي الله عنهما: (إن كنت الخضر فتعرف المؤمن من الكافر؛ فاقتله)، مسألة خاصة أوحي بها للخضر عليه السلام لأنه نبي على الصحيح، يقول كيف تستحل قتل الصبيان وقد نهى عن قتلهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فنجدة وأمثاله من الغلاة والإباضية أيضًا من الخوارج لأن الإباضية يستحلون الدماء دون الأموال، والدماء أعظم وأشد، فهذا تيار، يأتيك تيار التشيع، فيكون هذا التيار متلوّنًا، يدخل في تيار التشيع الباطنية، يدخل في تيار التشيع الاثنا عشرية، يدخل فيه الزيدية، وهكذا طالب العلم، الحقيقة من المفيد أن يكون لديه إلمام بهذه الفِرَق لكن بعد أن يؤصِّل العقيدة، لا بد أن تتأصل عندك العقيدة ثم تعرف هذه المقالات لأنا ونحن نشرح العقيدة الآن حين نقول من غير تحريف ولا تعطيل، مَن هم أهل التحريف ومَن هم أهل التعطيل؟ ومِن غير تكييف ولا تمثيل، مَن هم أهل التكييف ومَن هم أهل التمثيل؟ فيحتاج طالب العلم أن يعرف مقولات الفِرَق إجمالًا لكن بعد أن يتأصل عقديًا، لأن من الخطأ البالغ أن يدرس الباطل قبل الحق؛ أن يقول سأطلع على مقولات المعتزلة قبل أن يعرف مقولة أهل السُّنَّة المأخوذة من كتاب الله ومن سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم، فهذا لا شك مما يفيد طالب العلم إذا ضبطه بعد أن يعرفه، ثم إنه يربط المبتدعة المتأخرين بالمتقدمين، فشيء كثير جدًا تفهمه من مقولات المعاصرين الآن إذا

كنت ملما بمقولات الفرق الضالة في السابق حتى الفلسفة الحديثة الآن التي يُزعم أن مقولات جديدة تختلف كل الاختلاف عن الفلسفة السابقة، هذا غير صحيح، هناك روابط كبيرة جدًا بين الفلسفة الإلحادية الآن وبين الفلسفة القديمة، والروابط كبيرة لأن الضلال والزيغ يُبنى بعضه على بعض ثم يتلون ويتشعب لكن يكون لهذه المقولات الباطلة أصول من الضلال تكون مقولة قالها رجل قد تطور أو يزاد عليها لكن هي مقولات على هذا الحد سواء في الأسماء والصفات، سواء في القدر، سواء في النَّبوّة، سواء في المقولات التي وردت في الغربيين أو من الشرق، تجد لهذه والعياذ بالله أصولًا من الضلال، لكن نؤكد على أمر هو أن لا يدرس طالب العلم الضلال حتى يضبط أمر العقيدة.

قوله رحمه الله: من غير تكييف ولا تمثيل، التكيف ما معناه؟ هو تعيين كيفية الصفة، يزعم أن استواء الله تعالى على كيفية معينة، فيُعين كيفية للصفة، والسؤال عن الله بكيف لا يحل بتاتًا، فلا يجوز أن يقال عن الله تعالى كيف، ولهذا لما سأل الرجل مالكًا يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١) كيف استوى؟ عَظُمَ ذلك على مالك رحمه الله تعالى حتى علاه الرحضاء، أطرق برأسه حتى علاه الرحضاء -وهو العرق- من شدة هذا السؤال ثم قال: (الاستواء معلوم -أي معلوم المعنى-، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب)، ثم أُمِرَ بالرجل فأُخْرِجَ من المسجد لأنه سأل عن الله بكلمة كيف.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: (لا يقال للأصل كيف ولا لِمَ)، والأصل ما هو؟ قال رحمه الله الأصل قرآن وسُنَّة يعني الدليل، إذا قال الله؛ لا تقل لله كيف، لا يقال لله عزّ وجلّ كيف، ولا يقال لله لِمَ، لا يقال لله عزّ وجلّ لماذا جعل الله الصلوات خمسًا؟ لماذا لمْ يجعلها أربعًا؛ لمْ يجعلها ستًا، ما يحتمل، ليس هناك أحد كائن من كان في مقام يقول لله لماذا؟ قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٢) فليس لأحد بتاتًا أن يسأل عن الله تعالى كيف أو بـ لِمَ، فالتكييف هو دعواهم أن للصفة كيفية معينة يحددها، أما التمثيل فإنه يعني تشبيه الرب سبحانه وتعالى بغيره بأن يجعل صفة الله تعالى مماثلة لصفة أحد من المخلوقين، وكلا القولين لا شك أنها من أقوال أهل الضلال والزيغ وبه نعلم أن الاتجاهات الباطلة في الصفات على ما ذكرنا؛ إما بأن يبالغ في الإثبات حتى يُمَثِّل صفة الرب تعالى بصفة المخلوق وإما أن يبالغ في النفي حتى ينفي المثبت، وهذا سيأتينا

(١) طه: ٥.
(٢) الأنبياء: ٢٣.

إن شاء الله أنه ضرب من ضروب الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته، هذه المقدمات الآن سنطيل بها إن شاء الله في المقدمة فإذا أتينا إلى النصوص من القرآن والسُّنَّة فإذا بهذه القواعد عندنا واضحة، فإذا جاءت آيات في الرحمة في السمع في البصر في الاستواء اتضحت القاعدة عندنا لأنه سواء كانت الآية التي تثبتها من الصفات الذاتية والصفات الذاتية هي الملازمة للرب تعالى لم يزل ولا يزال متصفًا بها أو من الصفات الفعلية المرتبطة بمشيئته التي يفعلها متى شاء سبحانه أيًا كانت فعندك قاعدة أن تثبتها لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق به ولا تشبهها بصفات المخلوقين وتجنبها التحريف أو التعطيل، وسواء كانت في القرآن أو في السُّنَّة اتضحت عندك القاعدة. نعم.

.....

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المسلمين

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفُوَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.

.....

بقي عندنا هنا (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه): الإلحاد في اللغة معناه الميل، ولهذا قد يطلق الإلحاد على مسلم، الآن الملحد عند الناس هو الجاحد لوجود الله مثل الشيوعي وأمثاله، الحق أن الإلحاد منه إلحاد كلي، ومنه الحاد جزئي، فقد يكون عند الإنسان إلحاد بمعنى الميل ومنه سمي الإلحاد بالإلحاد، الإلحاد هو الميل، فمن مال عن الحق صار عنده صار عنده شيء من الإلحاد، وبحسب ما يكون هذا الميل يكون إلحاده، فإن كان ميلًا كليًا صار إلحادًا كليًا، وإن صار الميل بمسألة معينة صار الميل والإلحاد بحسبه.

هنا يقول رحمه الله: (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) به نعلم أن الإلحاد لغة قلنا إنه الميل ومنه سمي اللحد في القبر، اللحد في القبر سمي باللحد لأن القبر إذا حفر لا يكون حفرة متساوية بحيث يشق شقًا، وإنما يُلحد بمعنى أن الموضع الذي توضع فيه الجنازة تُلحد أن تمال عن سمت القبر حتى تُجعل فيه الجنازة

فمنه سمي اللحد لحدًا، هذا معناه، الإلحاد على نوعين: تارة يكون في أسماء الله وتارةً يكون في آياته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾(٢)، ولهذا قال: ولا يلحدون في أسماء الله وآياته لأن الإلحاد تارة يكون في الأسماء وتارة يكون في الآيات، الأسماء تقدم الكلام عليها والآيات الآية جمع العلامة تارة تطلق الآية على الآية الشرعية وهي الآيات من كتاب الله عزّ وجلّ التي أنزلها الله تعالى في مثل هذا القرآن العظيم فإنه مجموعة آيات، وتارة تطلق الآية على الآية الحسيّة المعروفة مثل السماء والأرض ونحوه والإلحاد هنا هو الإلحاد في الآيات الشرعية، يلحدون في هذه النصوص الشرعية بأن يميلوا عن معناها الصحيح فلا يتعاملون معها التعامل السليم، لأن الإلحاد ضد الميل، إذًا عندنا منهج مستقيم في التعامل مع هذه الآيات، وعندنا منهج ملحد أي مائلٌ في التعامل مع هذه الآيات، فالإلحاد في الأسماء والصفات على أنواع خمسة وقد يزيد، من أشهر هذه الأنواع - أنواع الإلحاد - أن يُنفى ما أثبت الله لأنه تقدم أن ما أثبت الله نثبته، فهذا هو الطريق المستقيم فإذا هو نفى ما أثبت الله فقد ألحد أي مال، وهكذا لو أثبت ما نفى الله، إذا نفى الله شيئًا وأثبته هو فإنه يكون ملحدًا، لأن الطريق المستقيم ما هو؟ ما أثبت الله نثبته، ما نفى الله ننفيه، فإذا عكس وأثبت ما نفى الله فقد ألحد بمعنى أنه مال، وإذا نفى ما أثبت الله ألحد، لأن الطريق المستقيم أن تثبت حيث أثبت الله وأن تنفي حيث نفى الله، وسنوضح بمثال بيِّن: الصلاة حكمها الوجوب، السرقة حكمها التحريم، هذا هو الطريق المستقيم، فلو أن أحدًا استحل السرقة ماذا يكون فعل؟ معناه أنه ألحد في هذا الحكم بمعنى أنه جعل الحرام حلالًا، هذا نوع من الإلحاد لأنه يجب أن يُحَرِّم السرقة التي حرمها الله، وهكذا لو زعم أن الصلاة غير واجبة يكون قد ألحد أي أنه مال لأن الصلاة مما أوجبه الله، فكذلك يقال، كما يقال هذا في الأحكام يقال كذلك في أسماء الله وصفاته يجب أن نثبت حيث أثبت الله، فمن لم يثبت ما أثبت الله فقد ألحد، يجب أن ننفي ما نفى الله فمن أثبت ما نفى الله فقد ألحد بمعنى أنه مال وثمة أنواع أخرى من الإلحاد ذكرها شراح هذه الرسالة الشيخ محمد والشيخ صالح وغيرهم من أهل العلم وذكرها عدد من أهل العلم، كلُّ تعامل مع الأسماء والصفات بغير الطريق المستقيم فهو نوع من أنواع الإلحاد ومن

(١) الأعراف: ١٨٠.
(٢) فصلت: ٤٠.

ذلك أن تجعل أسماء الله عزّ وجلّ على المخلوقات كما اشتق المشركون لمعبوداتهم من أسماء الله تعالى أسماء؛ فسموا مناة من المنان والعزى من العزيز وهكذا، هذا نوع من أنواع الإلحاد، وهكذا إذا سُمِّي الله بما لا يليق به كما يسمي النصارى الرب تعالى أبًا وكتسميات الفلاسفة للرب سبحانه وتعالى ونحو ذلك، فكل هذا من الإلحاد لأنه لا يسمى الله إلا بما سمى به نفسه، والله عزّ وجلّ أعظم من أن تجعل أسماؤه تشتق منها أسماء لهذه الآلهة الباطلة، وهكذا إذًا لا يلحدون في أسماء الله تعالى ولا في آياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه.

ثم قال: لأنه؛ هذا تعليل لما سبق من بيان اعتقاد أهل السُّنَّة لأنه سبحانه لا سَمِيَّ له ولا كفؤَ له ولا ندَّ له، هذه الأسماء الثلاثة: السَّمِيُّ والكُفؤ والنّد معانيها متقاربة، وأن الله تعالى ليس له مثل سبحانه وتعالى ليس له سمي كما قال تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَه سَمِيًا﴾(١)، أي سمي يساميه ويماثله حاشا لله تعالى من ذلك، وهكذا لا كفؤ له ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٢) سبحانه وبحمده، وهكذا لا ند لله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾(٣).

قال: ولا يقاس بخلقه، القياس أنواع ثلاثة لا يحل بتاتًا أن يقاس الله تعالى بخلقه بحيث يُجعل سبحانه وبحمده في قياس شمول، وقياس الشمول الذي يضم جملة من الأفراد يشملها ويعمها لأن الله تعالى لا يمكن بحال من الأحوال أن يقاس بغيره سبحانه فهو الخالق وغيره المخلوق، ولقد نعى الله على من فعلوا هذا فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤) كيف يقاس الذي يخلُق بالذي لا يخلُق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾(٥) فلا يقاس هؤلاء الذين يُخلَقون بالذي يَخلُق سبحانه، وهذه هي بلية فِرَق الضلال، فِرَق الضلال جاءها الإشكال من جهة أنها قاست الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق، ومَنْ الذي وقع في هذا؟ هذا من نوادر العلم، الذي في الذهن أن الذي فعل هذا هم المشبهة والممثلة والواقع أن الذي فعل ذلك هم المعطلة والممثلة على حدّ سواء، أما

(١) مريم: ٦٥.
(٢) الإخلاص: ٤.
(٣) البقرة: ٢٢.
(٤) النحل: ١٧.
(٥) النحل: ٢٠، ٢١.

الممثلة فأمرهم واضح لأنهم يقولون إن صفات الله تعالى مثل صفات المخلوقين فقاسوا - قبحهم الله تعالى - صفات الله عزّ وجلّ بصفات المخلوقين فقالوا وجه الله مثل وجه المخلوق! هذا قياس قالوا لأننا لا نعلم لكلمة وجه في اللغة إلا معنى واحد والله خاطبنا بهذه اللغة إذًا فوجه الله مثل وجه المخلوق، وكذبوا قاتلهم الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة المدنية: أكثر أصحابنا على كفر المشبهة، كلام عظيم خطير أن يقال مثل هذا، ثم إنه كلام كذاب أَشِر، مَنْ يقيس الرب سبحانه وتعالى بالمخلوق، فعلم الله سبحانه وبحمده يقول عزّ وجلّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١)، ويقول عزّ وجلّ عن علم المخلوق ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢)، ويقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(٣)، فعلم المخلوق قليل جدًا نادر، أما علم الله تعالى فهو العلم الشامل الذي لا يمكن أن يقاس، فكيف يقاس علم الله على علم المخلوق، وهكذا صفات الرب سبحانه وتعالى، الرب الذي لا يعزب عن سمعه أي صوت ولا يعزب عن بصره أي مُبْصَر؛ كيف يقاس بهذا المخلوق الضعيف الذي سمعه وبصره محدود، كيف يقال: إن صفات الخالق مثل صفات المخلوق، هذا كذب صراح بيِّن وفي النصوص ما يدل على بطلانه وفي النصوص التنبيه إلى أن صفات الخالق ليست كصفات المخلوق وأسماء الله تعالى ليست كأسماء المخلوق كقوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾(٤) والحي يطلق على المخلوقات ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وهكذا لا يقاس الرب سبحانه في صفاته، يقول صلّى الله عليه وسلّم في بيان الحال التي يكون عليها الناس في القيامة: «أن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ»، هذا لا يمكن أن يقاس، لا يمكن أن يقاس، لأن الصوت عند الآدمي القريب يسمع وكلما نأى الإنسان عن الصوت قلَّ سماعُه حتى يصل إلى حد لا يسمع كما في خطب الجمعة مثلًا إذا كثر الناس فإن الذين في الصفوف الخلفية لا يسمعون إذا كان المسجد كبيرًا أو يسمعون بصعوبة، الله سبحانه ينادي الخلائق بصوت يسمعه جميع الخلائق

(١) الأنعام: ٥٩.
(٢) الإسراء: ٨٥.
(٣) البقرة: ٢٥٥.
(٤) الفرقان: ٥٨.

- القريب منهم والداني، والبعيد والنائي - على حدٍ سواء، يناديهم بصوت يسمعه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ، لأن الله لا يقاس سبحانه وتعالى.

كيف يحاسب الله الخلائق؟ يحاسبهم جميعًا دفعة واحدة سبحانه لا إله إلا هو، وهو سريع الحساب، كيف يقاس هذا، لأن الله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فلا يشتغل سبحانه كالمخلوق، لا يشتغل بحالةٍ ويترك الحالات الأخرى! أبدًا سبحانه وبحمده، ولهذا فالملايين ترفع لله تعالى دعواتها في وقت واحد وبلغات متعددة وكلٌ له طلب وحاجة تختلف عن حاجة الآخر فيعلم السميع القريب العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض دعوة هذا من هذا من هذا وهم بالملايين لأن الله لا يقاس سبحانه وبحمده بخلقه لا في كتابه ولا في سمعه ولا في بصره، فلهذا لما تورط الممثلة في القياس مثَّلوا الله بخلقه، من أين أتى أمر قياس المعطلة؟ قد يقول المعطلة: نحن أبعد الناس عن القياس! أبدًا أنتم أول من قاس، قستم صفات الخالق في عظمتها وضخامتها وجلالة قدرها وكبرها بصفات المخلوق، قستموها على صفات المخلوق أولًا، فلما بدأتم بالتمثيل بصفات الخالق بصفات المخلوق قلتم: إنه لا يليق أن يوصف الله بكذا وكذا لأن هذا الوصف وصف متدني، فقستم وصف الرب سبحانه وتعالى على وصف المخلوق فبعد ذلك نفيتم، ولهذا يقول أهل العلم كل معطل فهو ممثل، لأن المرحلة الأولى التي بدأ بها هي أنه مَثَّل صفات الله بصفات المخلوق فلما مثلها بصفات المخلوق نفاها بعد ذلك، هو لم ينفها ابتداءً وإنما مثَّلها بصفات المخلوق ثم قال لا يليق أن نمثِّل صفات الله بصفات المخلوق وهكذا فإن كل ممثل فهو معطل حتى، كل معطل ممثل وكل ممثل معطل، لأن الممثل ماذا عطل؟ عطل الوصف اللائق بالله تعالى، عطل الوصف اللائق بالله، وجعل لصفة الله العظيمة جعل لها صفة المخلوق المتدنية الفانية.

أهل السُّنَّة يقولون: إن الله لا سمي له ولا ند له ولا كفؤ له ولا يقاس بخلقه، فإذا قلنا: إن الله تعالى سميع؛ فليس سمعه كسمع المخلوقين كما سيأتي في نص الآية إن شاء الله لاحقًا.

قال: ولا يقاس بخلقه سبحانه، السبحان اسم مصدر بمعنى تسبيح، ومعنى سبح أي نزّه فأنت تقول: سبحان ربي العظيم أي أنك تقول أُنَزِّهُ ربي العظيم، وعندما تقول سبحان ربي الأعلى فإنك تقول: أُنَزِّهُ ربي الأعلى، لأنه لا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه،

الرب سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وأعلم بغيره عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(١) وقد سمى الله نفسه بهذه الأسماء ووصف نفسه بهذه الصفات وتمدَّح بها وبيَّن عظمتها، فهو أعلم بنفسه حين سمى نفسه بهذا الاسم أنه اسم لائق، وهو أعلم بنفسه حين وصف نفسه بهذا الوصف أنه وصف لائق، وقد قال في أسمائه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٢)، وقال في وصفه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾(٣) فإذا سمّى الله تعالى نفسه بهذه الأسماء ووصف نفسه بهذه الصفات فإنه لا شك أعلم بنفسه سبحانه من كل أحد وأعلم من العبد بنفسه، الرب أعلم بنا بأنفسنا (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني) مما أفعل أنا، فالله أعلم بك منك أنت من نفسك، فكيف عِلْمُ الله تعالى بنفسه، فلهذا إذا سمى الله نفسه باسم فهو لا شك أنه لائق، أما الذي لا يليق بالله عزّ وجلّ فإن الله ينفيه، ألم تقرأ قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(٤)، فالذي لا يليق بالله ينفيه الله تعالى أو ينفيه رسوله صلّى الله عليه وسلّم، قال صلّى اله عليه وسلّم: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» الذي لا ينبغي ولا يليق بالله عزّ وجلّ يُبيّنُ لك في النصوص، أما أن تأتي إلى ما أثبته الله وتقول لا ينبغي لا يليق، فهو محادة لله عزّ وجلّ، فالله تعالى أعلمُ بنفسه، فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره، وأعلمُ من العبد بنفسه تعالى.

وأصدق قيلًا، أي أصدق قولًا، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾(٥)، وأحسن حديثًا من خلقه قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾(٦)، فمادام ربك أعلم بنفسه وقوله أصدق القول وحديثه أحسن الحديث سبحانه وتعالى؛ فأذعن لما سمى به نفسه ولما وصف به نفسه وهكذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعلم بالله من كل أحدٍ من المخلوقين صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(٧)، فإذا سمّى ربَّه باسمٍ أو وصف ربَّه بوصف؛ فلا شك أنه اسم عظيم ووصف لائق بالله تعالى، فعليك السمع والطاعة، أن تسمع لقوله تعالى ولقول نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وهذا مقتضى الشهادتين أن

(١) البقرة: ١٤٠.
(٢) الأعراف: ١٨٠.
(٣) الروم: ٢٧.
(٤) مريم: ٩٢.
(٥) الأنعام: ١١٥.
(٦) الزمر: ٢٣.
(٧) النجم: ٣.

تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يترتب عليها أن تشهد أن لا إله إلا الله ثم لا تذعن ولا تخضع لهذه النصوص الآتية من ربك تعالى ومن نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم فأي شهادتين تشهدتها! فيجب أن تذعن لله تعالى وأن تثبت ما أثبته لنفسه ويثبت له تعالى أيضًا ما أثبته له رسوله صلّى الله عليه وسلّم والنفي أن ننفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وما لم يأت بالنص لا إثباتُه ولا نفيُه فإننا نتوقف كما توقف النص، نسكت كما سكتت النصوص، فحيث أثبتت النصوص نثبت وحيث نفت ننفي، وحيث سكتت نسكت، هذا هو الأدب الحقيقي والذي يتوجب على من يقرُّ بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(١).

(١) الحجرات: ١.

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

.....

نعم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالرسل، لا أحدَ أعلمُ بالله بعد الله من رسله عليهم صلوات الله وسلامه؛ الذين يوحي إليهم الوحي الذي قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾(٢)، ورسله صادقون في أنفسهم، هم صادقون هم أبعد الناس عن الكذب عليهم صلوات الله وسلامه، مَصدُوقون وفي نسخة أخرى مصَدَّقون، فهم مصدَّقون يجب أن يُصَدَّقُوا شرعًا، مصدَّقون يعني من حيث الشرع وإلا من حيث الكفار وما قدَّر الله قد يُكذَّبون، لكن من حيث الشرع هم مُصدَّقون يجب أن يُصَدَّقوا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٣)، في نسخة أخرى مَصدُوقون أي أنهم صُدِقُوا، ما كُذِّب عليهم، ما أتاهم شيء باطل، بل قد أوحي إليهم بالحق المبين، ثم قال بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، من هم الذين يقولون عليه ما لا يعلمون؟ هم جميع من خرج عن الكتاب والسُّنَّة، هذه قاعدة عندك تعرف بها من القائل على الله بلا علم، كل من خرج عن الكتاب والسُّنَّة فإنه يقول على الله بلا علم، لأنه إذا قال على الله بعلم فلا بد أن يكون من الكتاب والسُّنَّة، أما إذا قال بلا علم فلا بد أن يكون قد خرج عن القرآن وعن السُّنَّة، وبالتالي نعلم أن من تكلم في هذه المسائل العظام فما يسميه كشفًا كما تقول الصوفية وذوقًا أو بما يسميه أهل الكلام من المعتزلة والجهمية والأشعرية والماتريدية وأمثالهم بما يسمونه عقلًا وهو ليس بعقل هو هوى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾(٤)، ليس ثمّة فريق ثالث، إما الاستجابة لله ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم وإما الهوى، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾(٥)، فكل من خرج عن الكتاب والسُّنَّة فهو قائل على الله تعالى بلا علم.

---

(١) الصافات: ١٨٠ - ١٨٢.
(٢) فصلت: ٤٢.
(٣) النساء: ٦٤.
(٤) القصص: ٥٠.
(٥) القصص: ٥٠.

قال: ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١)، تقدم معنى السبحان وأنها تعني التنزيه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، العزة من صفات الله تعالى، قوله هنا ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي صاحب العزّة سبحانه، لأن الرب تطلق بمعنى الصاحب؛ فهو صاحب العزّة سبحانه وبحمده ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣)، من هم؟ كل من قال بلا علم؛ فالله يُنَزَّه عن قوله تعالى، فيدخل في هذا كلُّ من حَادَ عن الكتاب والسُّنَّة وقال في أوصاف الله بلا علم سواء كان كافرًا أو من المنسوبين إلى الملة، لأنه تكلم على الله في أمر الله تعالى بلا علم فيُسبِّح الرب ويُنزِّه عن وصفه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٤)، ماذا قال بعدها؟ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾(٥)، انظروا المناسبة العظيمة، سلَّم تعالى على المرسلين لسلامة ما قالوه لأن المرسلين لا يقولون على الله تعالى إلا بعلمٍ مما أوحاه سبحانه وتعالى إليهم، فهنا نزّه سبحانه عن قول القائلين بلا علمٍ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اليهود من النصارى، من الوثنين، من أهل البدع والضلال الذين خاضوا بلا علمٍ، يُنَزِّهُ الربُّ سبحانه عن قولهم أجمعين، ثم سَلَّم في هذا الموضع العظيم على المرسلين ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامة ما قالته الرسل عليهم الصّلاة والسّلام، وهكذا سلامة ما قاله أتباع الرسل صلّى الله عليهم وسلّم ممن استمسك بما عليه الرسل لأنهم يكونون ورثة لهؤلاء الرسل قال صلّى الله عليه وسلّم: «فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا؛ وإنما ورَّثُوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر» يعني علم النُّبوّة؛ العلم الذي أتاك من مشكاة النّبوّة إذا استمسكت به وكنت على نية صافية صحيحة فإنك تكون وريثًا لهؤلاء الرسل صلّى الله عليهم وسلّم ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

قال رحمه الله: فسبح نفسه، أي نزَّه نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وهم الذين يقولون بلا علم، وسلّم على المرسلين عليهم الصّلاة والسّلام لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وأنَّى للنقص والعيب أن يأتي في قول الرسل وهم الذين لا ينطقون عن الهوى وإنما يقولون مما أوحاه الرب تعالى إليهم، وبه نعلم أن

(١) الصافات: ١٨٠.
(٢) المنافقون: ٨.
(٣) الصافات: ١٨٠.
(٤) الصافات: ١٨٠.
(٥) الصافات: ١٨١.
(٦) الصافات: ١٨١، ١٨٢.

جميع الرسل كما قررنا سابقًا متفقون في العقيدة فإنهم جميعًا يوحى إليهم فيما يتعلق بالاعتقاد، فيما يتعلق بالأخبار، من عند علام الغيوب سبحانه الذي هو أعلم بنفسه، ولهذا موسى عليه الصّلاة والسّلام يصف الله تعالى بالوصف اللائق، نوح إبراهيم عيسى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كل الرسل يصفون الله تعالى بالوصف اللائق به تعالى، فلهذا سلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من نقص وعيب. نعم.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

.....

ذكر هنا القاعدة العظيمة في الأسماء والصفات، الأسماء والصفات لا بد فيها من نفي وإثبات، نفي ما نفى الله وإثبات ما أثبت الله، يقول: وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فيما يتعلق في الوصف واضح أن الرب سبحانه وتعالى يخبرك وينبئك عن أمور يتنزّه عنها سبحانه وتعالى، فلا بد عند ضبط الاعتقاد بالأسماء والصفات من نفي ما نفى الله كما أنه لا بد من إثبات ما أثبت الله، فإن قلت: ما علاقة النفي في الصفات؟ علاقة النفي بالصفات من جهة أنك تنفي عن الله ما لا يليق، وقد تقدم أن الرب سبحانه وتعالى نفى عن نفسه أوصافًا لا تليق به تعالى مثل الظلم ومثل الغفلة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١)، مثل الغفلة ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢)، ومثل النوم والسِّنَة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٣)، ومثل اللّغوب والتعب ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾(٤)، فهذه ينفيها الرب سبحانه وتعالى، فتنفي عن الله تعالى هذا كما نفى عن نفسه، وتثبت ما أثبت مما سيأتي ومما تقدم كالسمع والبصر والاستواء وغيره لأنه أثبته لنفسه، ما الدليل على دخول نفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه في الصفات؟ الدليل العظيم الحديث الثابت عنه عليه الصّلاة والسّلام في قصة الصحابي الجليل الذي كان يقرأ في صلاته بقل هو الله أحد مع سورة أخرى؛ فقال له من يصلون خلفه: إما أن تقتصر على هذه يعني أنه يقرأ بقل هو الله أحد ويقرأ معها سورة

(١) فصلت: ٤٦.
(٢) البقرة: ٧٤.
(٣) البقرة: ٢٥٥.
(٤) ق: ٣٨.

أخرى؛ يعني يقرأ أربع سور في الركعتين، قالوا: إما أن تقتصر على هذه السورة وإما أن تقتصر على السورة الأخرى، أما أن تقرأ قل هو الله أحد وتقرأ معها سورة أخرى كأن هذه لا تجزيك! حتى كأن قل هو الله لا تكفي حتى تُضم إليها سورة أخرى! فأبى أن يُغَيِّر واستمر يصلي بهم، فأخبروا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بذلك فقال: «سلوه لأي شيء يفعل ذلك؟» فقال - هذا هو الشاهد – قال: (لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها) فأخبره عليه الصّلاة والسّلام أن حبّه إياها أدخله الجنة، وفي لفظ آخر قال لصحابي آخر عمل نفس العمل أحدهما كان أميرًا لسرية والثاني إمام مسجد قباء كلاهما صنع هذا قال لأحدهما أن حبه لها أدخله الجنة، وقال للآخر أخبروه أن الله يحبه، الشاهد هنا أنه قال: لأنها صفة الرحمن، ما الذي في قل هو الله أحد؟ نفي وإثبات، إثبات الأحدية وإثبات أن الله تعالى هو الصمد ونفي الولادة والولد عن الله تعالى ونفي الكفؤ، فدل على أن الأسماء والصفات لا بد فيها من نفي وإثبات ولهذا قال: وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، هل هناك أسماء منفية؟ مراده رحمه الله تعالى هو نفي الصفات، أما الأسماء فمنها ما يدل على إثبات معنى موجب كالعلم العليم يثبت العلم، السميع يثبت السمع، ومنها ما سمى الله تعالى بها نفسه، وهو اسم ينفي عن الله تعالى ما لا يليق مثل اسم السّلام ففيه تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب ومثله القدوس، هي أسماء مثبتة لله تعالى لكنها تدل على نفي ما لا يليق لله عزّ وجلّ.

قال: فلا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة، أي لا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة عن هذا المنهج السّوي الذي أنزله الله تعالى لهم في كتابه وبيّنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لهم في سنته، لا عدول لهم لا يميلون بتاتًا عن هذا المنهج، فلا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، في هذا الموضع نعطيك بإجمال ما يقرره أهل السُّنَّة والجماعة في الأسماء والصفات في قواعد خمس موجزة تضبط لطالب العلم اعتقاد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته:

القاعدة الأولى: إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلّى الله عليه وسلّم من هذه الأسماء والصفات على ظاهرها، على ظاهرها البيّن الجلي الواضح من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، هذه القاعدة الأولى.

القاعدة الثانية: أن أهل السُّنَّة ينفون عن هذه الصفات مشابهة صفات المخلوقين، لهذا قال هنا: وهو سبحانه قد جمع بين النفي والإثبات لأنه أهل السنة يثبتون وينفون، يثبتون الصفات وينفون عنها المشابهة،

هذه القاعدة الثانية، ودل على هاتين القاعدتين آيات كثيرة ومنها الآية العظيمة الآتية إن شاء الله الآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١) دلت على هاتين القاعدتين.

القاعدة الثالثة: أن أهل السُّنَّة لا يتجاوزون في تسمية الله وفي وصفه القرآنَ والسُّنَّةَ، أي أن الأسماء والصفات توقيفية لا يُسمون الله تعالى بأي اسم من تلقاء أنفسهم، ولا يصفون الله تعالى بأي وصف من تلقاء أنفسهم، بل هي أسماء توقيفية تؤخذ من الكتاب والسُّنَّة فقط.

القاعدة الرابعة والخامسة، الرابعة: متعلقة بمعنى الصفات، والخامسة: متعلقة بكفية الصفات، الرابعة أن معاني الصفات من المُحْكم الواضح معناه، فتفسر معاني هذه النصوص ويبيّن أن معنى الاستواء هو الارتفاع عن العرش وأن معنى الرحمة كما سيأتي كذا، وأن معنى العلم كذا، يُبين يُفسر، وأن القاعدة الرابعة تتعلق بالمعنى أن معاني هذه الأسماء والصفات واضحة محكمة، نأتي للقاعدة الخامسة وهي متعلقة بكيفية هذه الصفات، أن كيفية الصفات مما لا يخوض فيه أهل السُّنَّة، بل يفوضون أمره لله. هذه القواعد الخمسة التي بإجمال تضبط عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب، من أكثر ما خلَّط فيه المتأخرون التخليط بين القاعدة الرابعة والخامسة، فإن أهل السُّنَّة يقولون: الصفة من حيث المعنى واضحة، لهذا أنت تفسر، وإذا نظرت في تفاسير السلف رضي الله عنهم لنصوص الآيات القرآنية وجدت أنهم يفسرون هذه الصفات من حيث المعنى واضحة، ولذلك قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم أي معلوم المعنى والكيف مجهول كما تقدم.

يأتي سؤال مهم جدًا صفات الله نحن لا نخوض في كيفيتها، فهل لها كيفية أو ليس لها كيفية؟ صفات الله كالاستواء والنزول وسائر أسماء الله وصفاته لها كيفية، هل لها كيفية أو ليس لها كيفية؟ نقول: نعم لها كيفية، فإذا قلنا بلا كيف فـ بلا كيف نعلمه، أما كيفيتها فالله يعلمها، لا شك أن لها كيفية لكن الله تعالى انفرد بعلم كيفيتها، فنحن نعلم معناها ولا نعلم كيفيتها، الممثلة والمعطلة معًا قالوا: ما هذا الكلام؟ تعرفون المعنى ولا تعرفون الكيفية! نقول: نعم، لأن الله عزّ وجلّ أخبرنا بها بلسان عربي مبين واضح المعنى جلي فهمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأفهمه الصحابة رضي الله عنهم وأفهمه الصحابةُ التابعين وأفهمه التابعون أتباعهم وتسلسل معناها في الأمة فمعناها واضح، أما الكيفية فأنت أحقر وأصغر وأذل من أن تعرف كيفية الله، ولا

(١) الشورى: ١١.

تُعرفُ كيفية الله عزّ وجلّ لا في الدنيا ولا في الآخرة، الله أجلُّ وأكبر من أن تعرف كيفيته، لا من قِبَلِ ملَك مقرب ولا نبي مرسل لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(١)، الله لا يُحاط به علم، يستحيل أن يُحاط بالله تعالى علمًا، لهذا قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾(٢) سبحانه الإحاطة مستحيلة بالله تعالى، فالله لا يُحاط به عزَّ اسمُه، ولهذا تعرف من هذه الصفات جانبًا وتجهل جانبًا فتعرف المعنى، والدليل على أنك تعرف المعنى وأن المعنى واضح حتى عند المعطل لو أنصفت أنك حين تقول: يا رحمن ارحمني؛ فإنك ترجو الرحمة، وحين تقول: يا جبار لا تعذبني؛ فإنك تعرف معنى ما تدعو به فالرحمة التي تدعو بها ويدعو بها حتى المعطل في الساجدة حينما يقول: ربي اغفر لي وارحمني، إذا قال: الرحمة هذه معناها غير المعنى المعلوم! إذًا ماذا تدعو؟ به ما الذي تدعو به؟ تسأل الله أمرًا لا تدري معناه! لا شك أن المعنى معلوم، ولهذا تأمل الآيات التي فيها الأسماء والأوصاف التي فيها ذِكْرُ الرحمة، كل مُنتسب إلى القبلة يُؤمن بأن هذا كلام الله يرجو عنده، فإذا سمعت قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٣)، أنت والمعتزلي جميعًا ترجوان، يدلك على أن قولهم أنها تغير معانيها قول كاذب أو قولهم أن معانيها غير معلومة تُصَوَّب قول كاذب، لأنك ترجو ولن ترجو إلا لأن الرحمة معلومة المعنى، وهكذا إذا سمعت قوله تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾(٤)، لا شك أنك تخاف، ما الذي جعلك تخاف؟ أنك تعلم المعنى، فلو لم تكن تعلم المعنى لما رجوت هنا وخفت هنا، ولهذا لاحظ الآيات القرآنية يُجمع فيها بين ما يستوجب ويستدعي الخوف والرجاء قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(٥)، هذا تحذير شديد جدًا أن يحذر اللهُ العبادَ نفسَه، أعظم تحذير على الإطلاق أن يحذرك الله تعالى نفسه، فلما هذا يكاد أن تتقطع معه القلوب قال: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٦)، كي لا يهلك الناس، إذا حذرك الله تعالى نفسه هنا تحذير خطير جدًا، المؤمن يتقطع قلبه من هذا التخويف قال: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٧)، حتى تجمع العبد بين الخوف

(١) طه: ١١٠.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) الفاتحة: ١.
(٤) البروج: ١٢.
(٥) آل عمران: ٣٠.
(٦) آل عمران: ٣٠.
(٧) آل عمران: ٣٠.

والرجاء، ولهذا قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾(١)، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢)، حتى يجتمع الخوف والرجاء، فلو كان معنى الغفور والرحيم غير واضح ما رجوت ولو كان معنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ غير واضح ما خفت كما تقول المفوّضة الذين يقولوا المعاني غير معلومة - الذين عطلوا المعاني - لولا أنها واضحة ما حصل خوف ولا رجاء، ولهذا يذكر الله تعالى الآيات التي تستدعي من المؤمن الخوف مع الآيات التي تستدعي منها الرجاء وقد يذكر الله تعالى ذلك في الأسماء والصفات لأن معانيها معلومة، فالذي يقول معنى الصفة غير معلوم كاذب، ويقال: له إذا كنت مسلمًا تسجد وتدعو وتبكي بين يدي الله: اللهم اغفر لي اللهم ارحمني؛ وأن تقول المغفرة والرحمة غير معلومة! تكذب أنت، ما الذي تدعو به سبعون سَنَةً؟ تدعو الله أن يغفر لك؛ المغفرة غيرة معلومة المعنى! معلومة المعنى، تسأل الله أن لا يبطش بك، البطش غير واضح؟ لِمَ لا ترجع إلى الله سنين عمرك تسأل الله أن لا يبطش بك لولا أنك تخاف من بطشه وترجو الرحمة، فالذي يقول المعنى غير واضح كاذب لا شك أنه كاذب، بل المعنى واضح، ولهذا قال مالك رحمه الله الاستواء معلوم، تريد أن أعطيك معناه؟ أعطيك معناه استوى على العرش علا على العرش وارتفع عليه، هكذا فسرها السلف، لكن تقول لي: كيف يستوي الله؟ البشر والخلق كلهم أقصر وأضعف من أن يعرفوا كيفية استواء الله أو كيفية صفاته، إذًا فالمعنى معلوم والكيفية مجهولة، فنحن نعلم من هذه الصفات معانيها ونجهل كيفياتها.

قال رحمه الله تعالى: فإنه الصراط المستقيم، يعني هذا الصراط هو الطريق الواضح البيّن مستقيم وقد أمر الله بلزومه بقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(٣)، السُّبل هذه مُرْدِيَة التي ألحدت - مالت - عن الصراط المستقيم سواء طرق المثلة أو طرق المعطلة بأنواعهم كلها لا شك سبل زاغت، ولهذا فُسِّر قولُه تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ بأنها البدع والشبهات، هذه هي السبل والطرق التي تُمِيل الناسَ عن صراط الله تعالى المستقيم.

---

(١) الحجر: ٤٩، ٥٠.
(٢) المائدة: ٩٨.
(٣) الأنعام: ١٥٣.

ثم قال: صراط الذين أنعم الله عليهم، هذا بدل، من هم الذين أنعم الله عليهم؟ هم الذين بيَّن الله تعالى في قوله ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(١)، تقدم الكلام على معنى النَّبيِّين، والصّديق صيغة مبالغة، فعّيل وهو الذي عنده تصديق عظيم وهم الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾(٢)، ثم يتفاوتون في درجة الصّديقية، فالصّديق أبو بكر رضي الله عنه أعلى هذه الأمة في هذه الدرجة رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

قال: والشهداء، الشهداء هم من قُتِلوا في سبل الله تعالى، من قُتِل في سبيل الله فإنه يكون من الشهداء إذا كان في قتال سليم، كأن يكون في قتال مع الكفار، فإن الكفار إذا قتلوه يكون شهيدًا، وفي هذا المقام ينبّه إلى أمر مهم جدًا، وهو أن الشهداء لا يمكن أن يُعلموا بحيث يقال: هذا فلان الشهيد إلا إذا كانوا قد حُدِّدُوا في النصوص ممن أخبر النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم أنهم قتلوا شهداء، أما الحاصل الآن من الجزم بالشهادة فهو من أعظم المنكرات ومن أفحشها، العجب من هؤلاء الذين يقولون: فلان شهيد؛ أنك لو قلت له: هو في الجنة؟ يقول: أعوذ بالله، أنا ما أدري، هذا كلام عجيب جدًا، الشهيد هو في الجنة، الشهيد قطعًا بالجنة، ولهذا لماذا لا يُجْزَم بالشهادة لأن الجزم بالشهادة يعني الجزم بالجنة، قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: (باب لا يقول فلان شهيد)، وجاء عن عمر رضي الله تعالى عنه وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه النهي عن أن يجزم لأحد بالشهادة، قال عمر رضي الله عنه: (إنكم تقولون: فلان شهيد؛ فلان شهيد، ولعله قد أوقر راحلته) يعني من الغنائم، وثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام في إحدى مغازيه أنه قُتِل بعضُ أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم في تلك الغزوة فصار الصحابة يقولون هنيئًا لفلان الشهادة وهنيئًا لفلان الشهادة والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يسمع وهو ساكت أقرَّ لأن هؤلاء كانوا شهداء ثم قالوا: هنيئًا لفلان أحد موالي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالشهادة، قال صلّى الله عليه وسلّم: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَة التي غلَّها لتشتعل عليه في قبره» من يعلم هذا؟ من يدري؟ إنه غيب، فلذلك لا يحل أن يقال في أحد إنه شهيد إلا إذا كان ممن بُيِّنَ في النصوص، لأن القول بأنك أنت شهيد يساوي تمامًا بأنك في الجنة، وهذا للأسف كثير بين المتدينين، وتحمل العاطفة التي لا يذمها العلم على مثل هذا والجزم، ولكن يُقال: يُرجى أن يكون من

(١) النساء: ٦٩.
(٢) الحديد: ١٩.

الشهداء، نسأل الله أن يجعله من الشهداء، هذا شيء آخر، أنت تدعو له بالجنة، كما أنت تقول: نرجو له الجنة؛ نرجو للمحسنين؛ نخاف على المسيئين، لكن هذا عام، أما فلان شهيد يعني فلان بالجنة، والعاطفة غلبت في هذا للأسف الشديد، وإلا هذا واضح وجلي في النصوص في كلام النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في كلام السلف رضي الله عنهم في ترجمة البخاري واضحة (باب لا يقول فلان شهيد) لهذا لا تقول لأحد إلا إن كان دل عليه النص كما قال عليه الصّلاة والسّلام لما رجف الجبل به وببعض أصحابه قال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد» عمر شهيد، علي شهيد، عثمان شهيد رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأبو بكر صدّيق، فالقول بالشهادة بهذه السهولة والجزم به؛ حتى بلغ الفوضى في وسائل الإعلام أن يقال: فلان شهيد وهو نصراني أو كافر، هذا من الأعاجيب، هؤلاء أصلًا ليسوا من المسلمين حتى يُرجى لهم الجنة، الجنة لا تُرجى أصلًا إلا لمن مات على الإسلام، فصارت مسألة الشهادة ألعوبة للأسف الشديد وصارت العاطفة تحمل على هذا، نحن لا نعجب من الإعلام، الإعلام فيه فظائع وبلايا كثيرة، نعجب من أهل الدين، قد يكون أحدهم خطيب مسجد ثم يقول فلا شهيد، لا يحل هذا بتاتًا لأنك تجزم الآن على رب العالمين أنه من أهل الجنة وتجزم بأن نيته صالحة وبأنه قُتِل على درب سوي، لا يحل بتاتًا أن يُجْزَم به، لهذا قال أهل السُّنَّة: نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، حتى المحسن حتى العلماء والصالحون، عمر بن عبد العزيز نرجو له رجاء وأمره إلى الله عزّ وجلّ، لكن تستطيع أن تقول إنه في الجنة؟ لا تستطيع، ما تستطيع أن تقول إن ابن تيمية، ما تقدر، ما يحل هذا، لكن نرجو بلا شك، نرجو لابن تيمية، نرجو لابن عبد الوهاب، نرجو لابن باز، نرجو لعمر بن عبد العزيز، نعم، بالأعيان نرجو رجاء، لكن فيما يتعلق بالمؤمنين نشهد بالعموم بأن الجنة للمؤمنين بالعموم، لكن إذا أتينا للأفراد لا يحل هذا؛ نشهد ونجزم بأن من قتل في سبيل الله فهو شهيد، نعم قاعدة عامة من قتل في سبيل الله فهو شهيد لكن فلان شهيد! حكمت على ربك تعالى وحكمت أيضًا على نيته بأنها صالحة، وليس هذا فقط في موضوع الشهادة؛ حتى في موضوع المعاصي، يعني من مات مسرفًا شارب للخمور عاصيًا لوالديه قاطعًا للطريق فاعلًا كذا وكذا هل تستطيع أن تقول إنه من أهل النار؟ ما تستطيع، ولهذا ثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام في خبر الذي قال: «والله لا يغفر الله لفلان؛ أن الرب تعالى قال: من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان! لقد غفرت له وأحبطت عملك» مع أن هذا كان مجتهدًا في العبادة وذاك كان مسرفًا في المعاصي، الأمر متعلق بالله، فرّ منه أشد من فرارك من الأسد، الأمر متعلق

بحكم الرب سبحانه إياك أن تخوض فيه، أحِلْهُ إلى الله رب العالمين، وإن من أنفس ما جاء عن السلف رضي الله عنهم أن أبا وائل شقيق بن سلمة رحمه الله – تلميذ ابن مسعود - قال وهو رجل يا أبا وائل أي شيء تحكم على الحجاج؟ الحجاج مات؛ تحكم عليه بالجنة أو بالنار؟ انظر كلام الفقيه العالم قال: وتريدني أن أحكم على الله؟ أنا ما أحكم على الحجاج! إذا قلت: الحجاج في النار أنا ما أحكم على الحجاج الآن؛ أنا أحكم على الله أنه سيجعل الحجاجَ في النار! وهكذا إذا قلت: فلان شهيد أو في الجنة، أنا ما أحكم الآن على فلان فقط أنه شهيد؛ انا أحكم على الله أنه سيجعله في الجنة! ولهذا قال: وتريدني أن أحكم على الله! أنا ما أحكم على الله تعالى، الشيء المُبَيَّن في النصوص وبأنه من الشهداء وبأنه من أهل الجنة. نعم. أما من لم يُبيّن؛ فإننا نحيل أمره إلى علام الغيوب سبحانه وتعالى، وهكذا الصالحون، الصالح هو من لزم أمر الله تعالى وكان ذا علم، من يدخل في الصالحين؟ كل الأصناف الثلاثة السابقة حتى الأنبياء، النَّبيّ يطلق عليه صالح كما في حديث المعراج «مرحبًا بالأخ الصالح والنَّبيّ الصالح» وهكذا ذكر الله تعالى الصالحين في عدد من الأنبياء ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١)، فسمّاهم الله تعالى بالصالحين لأن الصلاح مثل الإيمان يزيد وينقص، هناك صلاح عظيم جدًا وهو صلاح الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام وهناك صلاح للصديقين، هناك صلاح لمن هم دون ذلك، هناك صلاح للمقتصدين الذين يقتصرون على الواجبات ويتركون المحرمات، فالصلاح وصف عام، رأس الصالحين هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ثم يتفاوت الصلاح كلٌ بحسب.

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٢)، وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ

(١) الأنعام: ٨٥.
(٢) الإخْلَاص: ١ – ٤.

كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(١) وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾(١٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(١٤).

---

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الحديد: ٣.
(٣) الفرقان: ٥٨.
(٤) التحريم: ٣.
(٥) الأنعام: ١٨.
(٦) سبأ: ٢.
(٧) الأنعام: ٥٩.
(٨) فاطر: ١١.
(٩) الطلاق: ١٢.
(١٠) الذاريات: ٥٨.
(١١) الشورى: ١١.
(١٢) النساء: ٥٨.
(١٣) الكهف: ٣٩.
(١٤) البقرة: ٢٥٣.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(١).

---

(١) المائدة: ١.
(٢) الأنعام: ١٢٥.
(٣) البقرة: ١٩٥.
(٤) الحجرات: ٩.
(٥) التوبة: ٧.
(٦) البقرة: ٢٢٢.
(٧) آل عمران: ٣١.
(٨) المائدة: ٥٤.
(٩) الصف: ٤.
(١٠) البروج: ١٤.
(١١) النمل: ٣٠.
(١٢) غافر: ٧.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿كلا إذا دُكتِ الْأَرْضُ دكا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾(١٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(١).

---

(١) الأحزاب: ٤٣.
(٢) الأنعام: ٥٤.
(٣) يونس: ١٠٧.
(٤) البينة: ٨.
(٥) النساء: ٩٣.
(٦) محمد: ٢٨.
(٧) الزخرف: ٥٥.
(٨) التوبة: ٤٦.
(٩) الصف: ٣.
(١٠) البقرة: ٢١٠.
(١١) الأنعام: ١٥٨.
(١٢) الفجر: ٢١، ٢٢.
(١٣) الفرقان: ٢٥.
(١٤) الرحمن: ٢٧.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(١٣).

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) ص: ٧٥.
(٣) المائدة: ٦٤.
(٤) الطور: ٤٨.
(٥) القمر: ١٣، ١٤.
(٦) طه: ٣٩.
(٧) المجادلة: ١.
(٨) آل عمران: ١٨١.
(٩) الزخرف: ٨٠.
(١٠) طه: ٤٦.
(١١) العلق: ١٤.
(١٢) الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠.
(١٣) التوبة: ١٠٥.

.....

إذا تبيّنت لك القاعدةُ السابقةُ وما تقرر اتضح لك جميع ما يدخل في هذه القواعد، لهذا قال: وقد دخل في هذه الجملة، يتضح لك الآن أن كل ما تقدم من تقرير أهل السُّنَّة يدخل فيه جميع الآيات سواءً مما ذكر الشيخ هنا أو مما لم يذكر، تبيّنت لنا القاعدة في التعامل مع هذه الأسماء ومع هذه الصفات، فتُثبت على ما تقدم، والآيات كثيرة جدًا لكن الشيخ رحمه الله هنا توسع بيانًا لكون أهل السُّنَّة والجماعة مسلكهم هو مسلك القرآن ولذلك إذا انتهى من هذه الآيات سيبدأ بنصوص السُّنَّة، فما يقررونه من إثبات هذا الوصف العظيم اللائق بالله تعالى هذا أمر مطَّرد وليس عند أهل السُّنَّة تفريق؛ فيقولون نعمل بهذه الطريقة السليمة مع الصفات المعينة هذه ولكن ننهج نهجًا آخر مع الصفات الأخرى.

الصفات قسمت إلى قسمين كما تقدم صفات ذاتية وصفات فعلية، الصفات الذاتية التي لم يزل ولا يزال تعالى متصفًا بها كعلمه وحياته، والصفات الفعلية هي التي تكون بمشيئته؛ فيفعلها إذا شاء سبحانه وتعالى كاستوائه على عرشه ونحو ذلك، فلا تفريق عند أهل السُّنَّة والجماعة، هذه قاعدة مطّردة، جميع ما وصف الله وسمى به نفسه تقدمت عندك القاعدة في الأسماء ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(١) هذا أعظم ما تكون من الحسن، وفيما تتعلق بالأوصاف ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ﴾(٢)، أي الوصف ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فكل ما وصف الله به تعالى نفسه أو سمى به نفسه فهو مخبر متمدح به سبحانه وتعالى مُعَظِّمٌ لنفسه، ولهذا الإقرار بالأسماء والصفات أثره كبير جدًا على المؤمن، ولهذا لاحظ بعض النصوص التي يذكر الله تعالى فيها التقوى بعد ذكر الصفة، أو التحذير من بطشه تعالى بعد ذكر الصفة، يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾(٣)، نبَّهك إلى أنه يعلم ما في النفس، ماذا يستوجب؟ يوجب الحذر، لأن هؤلاء البشر من حولك قد يُحسنون بك الظن ويُحسنون التعامل معك لكن انتبه إلى ما في نفسك، احذر لأن من أوصاف الله العلم ومن عِلْمِ الله أن يَعْلَمَ ما في النفس، فإذا كان ما في النفس منطويًا على نفاقٍ فإن الله يعلمه فاحذر، لهذا رتب الحذر على العلم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الفاء هنا رتبت الحذر على العلم ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولهذا

(١) الأعراف: ١٨٠.
(٢) النحل: ٦٠.
(٣) البقرة: ٢٣٥.

إذا نفيت الصفات عن الله عزّ وجلّ تنتهي التقوى، فإن العباد يتقون الله تعالى إذا كانوا يعلمون إنه إذا كانوا يقرون أنه يسمع فيضبطون ألفاظهم، إن الله تعالى يسمع، يتقون الله في أفعالهم لأنهم يعلمون أن الله يعلمها وأنه يراها ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾(١)، يقول: رب العالمين يراني، الآن أنا في موضعٍ ناءٍ ليس عندي أحد؛ لكن أين أذهب عن نظر رب العالمين، لأنه مقرٌّ بالصفات، فأعظم ما يجلب التقوى الإقرار بالصفات، ولهذا كان بعض السلف يربي ابنه على اسم الله السميع منذ الصغر، ما يربيه على القصص والأحاجي، على اسم الله السميع، الصغير إذا رُبِّيَ على اسم الله السميع ينتبه، إذا أراد أن يتكلم قال: انتبه؛ الله يسمعك لا تكذب، يتربّى لأن الله تعالى سميع وأن سمعه حقيقي سبحانه وتعالى، فأثرها عظيم جدًا على المؤمن، لهذا خطورة نفي الصفات أنها تجرِّئُ العباد على الوقاحة وقلة الأدب، إذا نفي عن الله العلم والسمع والبصر من يتقي الله بعد هذا! فخطورة نفي الصفات كبيرة بالغة جدًا، لهذا تسمع مواقف أهل السُّنَّة التي سُجِنوا فيها وقتلوا وأهلكوا وعُذِّبوا وطُردوا في موضوع الأسماء والصفات، موضوع الأسماء والصفات خطر جدًا، هو التعريف بالله عزّ وجلّ، إذا دخلت مقولات المعتزلة والمعطلة؛ أضرت إضرارًا بالغًا جدًا بالأمة، ولهذا لما عُرِض على الإمام أحمد في موضوع قول المعتزلة الخبيث في خلق القرآن لما قيل له: يا أبا عبد الله إن عُرِضْتَ على السيف ترجع؟ قال: لا، ما أرجع، حتى (كلمة غير واضحة) ما رأى أن الإكراه في هذا الحال يجعل مثل هذا الإمام يرجع، لأن الأمر خطير، إذا هُوِّنَ من شأن الرب في قلوب العباد ينفتح الكفر والزندقة والفسق والفجور، أنت تعلم أن المؤمن أعظم ما يَجُمُّهُ عن المعصية في الخلوة الصفات، أنه مُقِرٌّ بأن الله يراه سبحانه وتعالى، وأنه إذا أغلق عليه البيت في نهار رمضان ما الذي يمنعه من الأكل والشرب؟ ما يمنعه أحد، إذا غادر هذا خارج بلاده - والفواحش عياذًا بالله - متاحة، ما الذي يمنعه من الزنى؟ أنه موقن أن الله يراه، فإذا ضُربت هذه الصفات انفتح الكفر والزندقة والضلال لأنه إذا كان الله لا يراني ولا يسمعني ولا يعلم بي؛ أي معنى للخوف منه؟ ولهذا مقولة المعتزلة السخيفة الفاسدة يقولون: الله عزّ وجلّ عليم بلا علم، سميع بلا سمع، هذا الكلام يُجَرِّءُ الناس، إن كان عليمًا لكن ما عنده علم؛ فما لها معنى وما له حقيقة، لأنه إنما كان عليمًا لأنه متصف بالعلم، لأن كل اسم لابد له من صفة، فهو عليم إذًا هو متصف بالعلم، سميع متصف بالسمع، أما تقول: سميع لكن بلا سمع! من يخاف من سميع لا سمع له؟ أو عليم لا علم له؟

(١) العلق: ١٤.

فالمقولات هذه خطرة جدًا وفُشُوُّها في الأمة لا شك أنه يفتح أبوابًا من الشر، لهذا ثبت أهل السُّنَّة هذا الثبات.

ذكر رحمه الله جملة يقول: دخل في هذه الجملة كل هذه النصوص مما ذكره ومما لم يذكر من أحدية الله تعالى ومن صمديته عزّ وجلّ ومن نفي الولادة والد عنه سبحانه وتعالى وأن يكون له كفوًا أحد، وهكذا يدخل في هذا ما ذكر الله في أعظم آية في كتابه وهي آية الكرسي وسورة الإخلاص، ثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنها تعدل ثلث القرآن، يقول: كل هذا يدخل، سورة قل هو الله أحد عَدَلَتْ ثلثَ القرآن لأن موضوعها هو رب العالمين ليس بها أحكام وليس بها قصص ولا أخبار وإنما فيها التعريف بالله عزّ وجلّ، لهذا عَظُمَ شأنُها وصارت تعدل ثلث القرآن كما توارد بهذا عدد كبير من النصوص.

آية الكرسي هذه الآية أعظم آية في كتاب الله كما ثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام، تأمل هذه الآية آية تعريفية تعرفك برب العالمين ما الذي يُثبت له كالحي والقيوم والعلي والعظيم وكون له نور سبحانه وتعالى اشتملت على عشر جمل فتثبت هذه على هذا الحدّ، وهكذا العلوّ هو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، سبحانه بنص حديث النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسَّرها كما في صحيح مسلم، وهكذا هو الحي، وحياته ليست كحياة غيره، حياة غيره تعالى مسبوقة بعدم ومسبوقة بفناء، أما الرب سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾(١)، فليس سبحانه وتعالى مسبوقًا بعدم بل هو الأول ليس قبله شيء سبحانه وبحمده، وهكذا لا يموت فليس متبوعًا بوفاة وهلاك ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٢)، وهكذا إثبات الحكمة والخبرة.

الحكيم تارة يطلق بمعنى الحاكم وتارة المعنى يطلق من جهة الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه، وكلا الأمرين ثابتين لله تعالى، وهكذا الخبير، الخبير هو العلم ببواطن الأشياء، فهو سبحانه عليم بالظواهر والبواطن، وهكذا ذكر في الآيات كالآية التي ذكرنا ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ

(١) الفرقان: ٥٨.
(٢) الرحمن: ٢٦، ٢٧.

وَالْبَحْرِ﴾(١)، فهو يعلم التفاصيل سبحانه وتعالى حتى إنك إن كنت في البرية ورفعت حصاة وجدت تحتها أمّة لا يحيط بها إلا الله سبحانه وتعالى من النمل أو الدّواب وغيرها يعلم سبحان وتعالى أعدادها وأوصل إليها أرزاقها عِلْمٌ عام في البرّ والبحر وما في السماوات وما الأرض وما بينهما وهو العليم الخبير سبحانه وبحمده.

ثم ذكر ما يتعلق بالسمع والبصر وأنه لا يعزب عن علمه شيء سبحانه وبحمده لهذا لما أجتمع ثلاثة قرشيان وقتلهما ثقفي أو ثقفيان وقتلهما قرشي فقال أحدهما: أترون أن الله يسمع؟ فقال أحدهما: إن رفعنا أصواتنا سمع وإن لم نرفع لم يسمع، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا رفعتم فإنه يسمع إن خفضتم، فأنزل الله السميع العليم: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)، فجاءهم الإشكال من جهة إحاطة سمع الله، فأنزل السميع العليم سبحانه وتعالى الذي سمع ما قالوا أنزل هذه الآية وعُنِّفُوا على هذا الاعتقاد الفاسد الخبيث فيما يتعلق بصفات الله، الله يسمع ويبصر سبحانه وتعالى وهكذا فيما يتعلق بالإرادة فلا يقع شيء إلا بإرادته، ويأتي الكلام إن شاء الله على الإرادة في الكلام عن القدر.

وهكذا المحبة فهو يحب أشخاصًا وهم أهل الإيمان ويحب أعمالًا وهي الطاعات، قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله ليرضى عن العبد» يأتي هذا في الرضا فهو يحب سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين وهو سبحانه يُحِبُّ ويُحَب، وهو ودود سبحانه فهو مودود يعني محبوب، وهو وادٌّ أي يَوَدُّ ويُحِبُّ أولياءه تعالى، وهكذا ما يتعلق بالرحمة وذكر عليه الآيات ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٣) وبيَّن تعالى أن رحمته عظيمة أعظم من أي رحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٤)، فلله عزّ وجلّ أعظم ما يكون فيما يتعلق بوصف الرحمة، وهكذا الرضا الله يرضى أقوالًا ويرضى عن أناس من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

(١) الأنعام: ٥٩.
(٢) فصلت: ٢٢، ٢٣.
(٣) الفاتحة: ١.
(٤) الأعراف: ١٥٦.

عَنْهُ﴾(١)، وهكذا قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في العمل: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة؛ فيحمده عليها، ويشرب الشربة؛ فيحمده عليها» ثم هكذا ما يتعلق بغضبه سبحانه وبحمده وأنه غضب حقيقي لائق بالله تعالى، خُذْ عندك هذه الآية من أعظم ما يُرَدُّ بها على من تأوّلوا الغضب وهي قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٢)، آسفونا أي أغضبونا وهو أشد الغضب؛ انتقمنا، المؤولة يقولون: إن غضب الله هو إرادة الانتقام، يعني حتى لا يكون وصفًا يوصف به الله، الآية هنا تكذبهم لأن الله ذكر الانتقام بعد الغضب، قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فالأشعرية يريدون أن يجعلوا الغضب هو نفس الانتقام، يعني أن الله إذا خسف بهم مثلًا الأرض أو زلزلها أو أتاهم العذاب من فوقهم قالوا: هذا معنى الغضب ولم يَقُم بالله غضب، الله تعالى بيَّنَ أن ما يترتب على الغضب هو الانتقام، قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وهكذا ما يتعلق بمجيئه لفصل القضاء لا شك أنه يجيء مجيئًا يليق بجلالة وعظمته ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾(٣)، ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾(٤)، وهكذا ما يتعلق بوجه الله، وجه الله عزّ وجلّ دلت عليه عدة نصوص وهو الذي سأل النَّبيُّ ربَّه أن يكرمه بلذة النظر إليه، قال صلّى الله عليه وسلّم: «أسألك لذة النظر إلى وجهك» إذا لم يكن لله وجه؛ فما معنى النظر وما معنى الرؤية؟ كل هذا يبطل ويضمحل، ولا شك أنه مما يُثبت لله تعالى الوجه اللائق به عزَّ اسمُه، وهكذا قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٥)، ردا على قول اليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٦)، فذكروا يد الله وذكروا أنها مغلولة، لو كان الله غير متصف باليد لنفى اليد من أصلها، فلما قالت اليهود: إن لله يدًا وأنها مغلولة كذبهم الله فيما افتروه وهو أنها مغلولة وأثبت اللائق به وأن لله يدًا ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فأثبت أن له يدين، والبسط عكس الغَلّ الذي تدعيه اليهود فنفى ما لا يليق به، لا شك أن لله تعالى يدين، وهكذا تُثبت لله تعالى العينان ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٧)، ويأتينا أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن ربكم ليس

(١) المائدة: ١١٩.
(٢) الزُّخْرُف: ٥٥.
(٣) الفجر: ٢٢.
(٤) البَقَرَة: ٢١٠.
(٥) المائدة: ٦٤.
(٦) المائدة: ٦٤.
(٧) الطور: ٤٨.

بأعور» في حديث الدجال، وأن لله تعالى العينين بإجماع أهل السُّنَّة، وهكذا ما يتعلق بالسمع والله يسمع ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾، ذكرها بصيغة الماضي وذكرها بصيغة المضارع ثم ذكرها بصيغة الاسم ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١)، كل هذا دال على إثبات هذه الصفات وهذه النصوص، والعجب من أناس يشهدون أن لا إله إلا الله ويقرؤون هذا القرآن ويعلمون أنه من كلامه تعالى؛ كيف يجرؤون على رد هذه النصوص على كثرتها وتنوعها وتعددها على هذا النحو، نسأل الله أن لا يقلب قلوبنا وأن لا يزيغنا عن الحق، والله تعالى أعلم وصلّى الله وسلّم على نبيّا محمد، والحمد لله.

(١) المجادلة: ١.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وجميع المسلمين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾(٤).

.....

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وبارك على عبد ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين

هذه صفات ينبغي أن يضبط طالبُ العلم أمرَها، المكر والكيد يجمعها أنها إيصال المكروه إلى مَنْ يستحقه من حيث لا يشعر كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٥)، فأفهم أن هذا حق وأنه من أعظم ما يخشاه ذوو القلوب الحية أن يمكر اللهُ بهم، وقد ذكر الله تعالى أنه خير الماكرين، ولما ذكر خبرَ يوسف عليه الصّلاة والسّلام وما فَعَلَ من أخذه لأخيه قال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾(٦)، فالمكر والكيد لا شك أنها مما ثبتت في كتاب الله عزّ وجلّ بجلاء، ويجمع هذه كما قلنا - المكر والكيد - يجمعها أنها إيصال للمكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر.

قال أهل العلم: لمّا كان المكر والكيد على نوعين:

النوع الأول: نوع غير لائق بالله عزّ وجلّ، وهو المكر بمن لا يستحق.

والنوع الثاني: هو المكر بمن يستحق، كان ينبغي أن لا تطلق على الله عزّ وجلّ هذه الأوصاف إلا بحسب ورودها في القرآن، فهي وردت في القرآن في مقابل كيد الكائدين، تأمل قوله ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا،

(١) الرعد: ١٣.
(٢) آل عمران: ٥٤.
(٣) النمل: ٥٠.
(٤) الطارق: ١٥، ١٦.
(٥) الأعراف: ١٨٣،١٨٢.
(٦) يوسف: ٧٦.

وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾(١)، وقوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢)، ويضيف اللهُ تعالى المكرَ إلى نفسه كما قلنا في خبر يوسف عليه الصّلاة والسّلام ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾(٣)، والمكر مما خوَّف الله تعالى منهما عباده، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٤)، فإذا لم يكن لها معان على ظاهرها وعلى حقيقتها لا شك أنه في هذه الحالة - كما قلنا - يفسد الاستدلالُ ويزول الإيمان من جهة كون هذه الصفات يمكن أن تحلَّ بالعبد، وهذه كما قلنا من جنايات التعطيل لهذه النصوص، وبه نعلم أن الكيد والمكر حيث ورد في كتاب الله لا شك أنها على ظاهرها وأنها بالمعنى الذي ذكرنا.

الأمر الثاني: أن الرب تعالى لا يطلق عليه الماكر والكائد ونحو ذلك، أولًا لأن الأسماء توقيفية كما تقدم، ولا بد أن تُؤخذ من كتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

الأمر الثاني: أن هذه الأوصاف التي سمعتَ؛ منها ما هو لائق بالله عزّ وجلّ وهو المذكور هنا، وثمّة نوع لا يليق بالله؛ وهو المكر بمن لا يستحق، فلهذا لم يُسمَّ الله بالماكر، ووصف بأنه يكيد ويمكر، وبذلك يعلم طالب العلم أن ثمّة صفات جاءت في كتاب الله عزّ وجلّ فيها تقييد وأن الأسماء لا تشتق بالاجتهاد، وهاهنا قاعدة مهمة في باب الأسماء والأوصاف: لَمَّا كان كل اسم متضمنًا لصفة؛ وكانت هناك صفات لا يشتق لله تعالى منها أسماء؛ عَلِمْنَا هذه القاعدة: باب الأسماء أضيق من باب الصفات، لأن هناك صفات يتصف اللهُ بها ولا نسمي الله تعالى بها؛ فدل على أن باب الأسماء أضيق من باب الصفات، وبالتالي باب الصفات سيكون أوسع من باب الأسماء، وباب الإخبار - الإخبار عن الله تعالى - أوسع من باب الصفات، فيُخْبَرُ عن الله عزّ وجلّ بما لا يصح أن يوصف به من جهة أن يقال: إن اتصف بكذا، لأن باب الإخبار أوسع، وعليه نعرف أن باب الأسماء أضيق من باب الصفات، وباب الصفات أضيق بعد ذلك من باب الإخبار، وإن شئت قُلْتَ: باب الإخبار أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء.

---

(١) الطارق: ١٥، ١٦.
(٢) آل عمران: ٥٤.
(٣) يوسف: ٧٦.
(٤) الأعراف: ٩٩.

في قوله ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(١)، ما علاقة هذه الآية بموضوعنا هذا؟ بعض أهل العلم فسَّرها بأن المِحَال هنا يراد به الكيد، وآخرون من أهل العلم قالوا: إن المراد الأخذ، وهو شديد الأخذ سبحانه وتعالى، فشيخ الإسلام لمّا أوردها هنا دل أنه ذلك على أنه يرجح أن المراد بالمحال هنا الكيد لأنه أوردها مع الآيات ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾(٢)، و ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾(٣) ونحو ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبدُوا خَيْرًا أَو تُخْفُوه أَو تَعفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًا قَدِيرًا﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾(١٢).

.....

(١) الرعد: ١٣.
(٢) الطارق: ١٥.
(٣) الأنفال: ٣٠.
(٤) النساء: ١٤٩.
(٥) النور: ٢٢.
(٦) المنافقون: ٨.
(٧) ص: ٨٢.
(٨) الرحمن: ٧٨.
(٩) مريم: ٦٥.
(١٠) الإخلاص: ٤.
(١١) البقرة: ٢٢.
(١٢) البقرة: ١٦٥.

هذه الآيات الأولى متعلقة بالعفو والمغفرة والرحمة والعزّة والقدرة، وهذه اتضحت بها القاعدة، تقدم أن القاعدة عند أهل السُّنَّة في مثل هذه الصفات الواردة في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم أنها تُثبت على ظاهرها اللائق بالله عزّ وجلّ، ثم إنّا لا نُشَبِّهُ الوصف الذي نضيفه إلى الله عزّ وجلّ بوصف المخلوق، فإين عزة الله من عزة المخلوق؟ أين عفو الله السابغ من عفو المخلوق؟ أين غفران الله من غفران المخلوق؟ أين رحمة الله التي قال الله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١) ؟ وهكذا المغفرة فإن الله تعالى ﴿وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾(٢)، فنضيفها إلى الله تعالى بحسب اللائق به سبحانه وبحمده، فنعرف القواعد التي قررناها ونتخذها في جميع الصفات نثبتها لله تعالى على ظاهرها الذي فهمه رسول صلّى الله عليه وسلّم وأفهمه أصحابه وأفهمها أصحابه التابعين رضي الله عنهم، ونسير على هذا الطريق وعلى هذا السبيل السليم بإذن الله تعالى غير مبدلين ولا مغيرين، ومبعدين عن طرين الملحدين في أسماء الله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

إذا عرف طالب العلم القاعدة فكل صفة ذكرت في القرآن أو السُّنَّة يعرف ما تقدم فيها أنها على ظاهرها المعروف الذي خاطب الله تعالى به أهلَ هذه الملة حيث نزل القرآن فيهم بلسان عربي مبين، وأنه على ظاهره، قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(٤) ليس بأعوج، بيّن ظاهر جلي، قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاه قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥) أي تفهمون، فإن الذي يكون من العرب أو ممن يتعلم لغة العرب ويعرفها ويضبطها؛ فإن إذا قرأ القرآن العظيم عقله أي فهمه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهون فيفهم المعنى لأنه على ظاهره، أما لو كان على غير ظاهره فإنه لا يفهم، إذا كانت هذه النصوص يراد بها جميعًا معاني أخرى غير المعاني التي فهمها الصحابة رضي الله عنهم وفهمها التابعون فالقرآن غير ظاهر فلا يكون كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(٦)، إذا كانت كل هذه النصوص لها معان – كما تقول الباطنية مثلًا - معاني أخرى أنتم لا تعون حقيقة معانيها، ما معانيها؟ قالوا: معانيها باطنة نحيط بها نحن، فليست الصلاة

(١) الأعراف: ١٥٦.
(٢) النجم: ٣٢.
(٣) الأعراف: ١٨٠.
(٤) الزمر: ٢٨.
(٥) يوسف: ١، ٢.
(٦) الزمر: ٢٨.

على ظاهرها والصوم على ظاهره والزكاة على ظاهرها، ما المراد بها؟ قال: لها معان خفية لا يدركها إلا أهل المعنى الباطن، فالصلوات الخمسة يراد بهم خمسة نتولاهم: علي فاطمة والحسن والحسين ومحسن، هذه الصلوات الخمس؟ قالوا: نعم، لو كان الأمر كما تقولون لما كان قرآنا عربيًا غير ذي عوج، لو كان كما تقولون - حاشا الله من ذلك - لكان ذا عوج، لكن أكذبكم الله تعالى، وأبى الله ما تقولون، بل هو قرآن عربي مبين، ولهذا أيها الأخوة هنا باب كبير من العلم وهو أسماء القرآن التي سمّى الله تعالى بها كتابه، سمّى الله هذا القرآن بالهدى والنور والشفاء والفصل والقيّم والفرقان والبيان، فدل على أن الهدى فيه، وأن الشفاء منه، وأن النور فيه، وأنه فصل يفصل به الحق من الباطل، وأنه بيّن وتبيان، فمن أتى إلى كتاب الله تعالى وكان من ذوي اللسان العربي أو ممن تعلم اللسان العربي وهو من ذوي العلم وقرأ القرآن فالقرآن واضح، قد يقول قائل الآن: إنا نقرأ القرآن فلا نحيط ببعض الكلمات التي فيه! فنقول: هذا بسبب البعد عن اللسان العربي وإن كنت عربيًا أنت، لأن كثيرًا مما هو من لغة العرب قد يغيب عن الناس الآن ممن هم عرب بسبب أن هذه الكلمات أضحت غير مستعملة واستبدلت بكلمات من العامية لكن إذا عرفت معانيها باللغة العربية فهمتها، تفهم القرآن، ولا سيما ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أنزل الله إليه الذكر ليتولى هو مهمة بيانه، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١)، فمهمة البيان للرسول صلّى الله عليه وسلّم، إذًا ابحث عن معنى القرآن من نفس نصوص القرآن، فإن القرآن يُفسر بعضه بعضًا، هذه مرتبة من مراتب تفسير القرآن، مرتبة أخرى: تفسير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو اعلم بإجماع من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أعلم الناس بالقرآن هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذًا أقبلْ على تفاسير الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهل فسّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئا من الآيات؟ نعم، انظر إلى كتاب التفسير في صحيح البخاري تجد أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسر آيات، ثم تولى تفسير القرآن الصحابة رضي الله تعالى عنهم وعلّموه الأمّة حتى قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، فكان ابن عباس وابن مسعود وأمثالهم رضي الله عنهم يفسرون القرآن علانية أمام الناس، أين تفاسيرهم؟ موجودة كما قلنا في الكتب المسندة، تجدها مثلًا في تفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم، تجد تفاسيرهم العقدية في كتب الاعتقاد المسندة كما نوّهنا عنه في أول الدرس، فتفاسير الصحابة رضي الله عنهم أولى التفاسير بعد

(١) النحل: ٤٤.

تفسير رسول صلّى الله عليه وسلّم، الصحابة شهدوا التنزيل وهم أهل اللغة، وقد رأوا تطبيق الإسلام عيانًا في أفضل فتراته زمن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وزمن الخلافة الراشدة، إذًا فابحث عن تفسير القرآن من خلال تفسير الصحابة، ثم مَنْ بعد الصحابة؟ أعلمُ الناس بعد الصحابة التابعون رضي الله عنهم وأرضاهم فهم تلاميذ الصحابة، فإذا رجعت إلى هذا فوالله لتهتدين ولتعرفن الحق من الباطل كالشمس في وضح النهار، تفسير النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يفسر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم آية ثم يأتي شخص بعد النَّبيّ بمئة سَنَةٍ من أهل البدع والضلال ويقول: لا، عندي تفسير آخر، تفسيرك مردود ولا يمكن أن يكون تفسيرك مقابل لتفسير الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قلنا أيها الأخوة إن الأمّة ما كان فيها أحد يفسر نصوص الصفات على خلاف ظاهرها قبل عدو الله الجعد بن درهم، ما كان بالأمّة أحد بتاتًا، وهذا العجب، العجب العجاب أن يُزهد في تفسير ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما الذي قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيه: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» أي التفسير ثم يرجع إلى تفاسير الجهمية وتفاسير المعتزلة والروافض، ولذا باب العلم هذا - العلم الحقيقي - العلم قال الله قال الرسول قال الصحابة ليس بالتمويه، قد يظن بعض الناس أن ما عند المعتزلة من العلم، ما عند الأشعرية من العلم، ما عند الماتريدية من العلم، هذا ليس من العلم في الحقيقة، لهذا قال الشافعي رحمه الله في مسألة نفيسة نادرة جدًا في كتاب الوصايا نقلها الربيع صاحبه، يقول له: لو أن رجلًا أوصى بكتبه من العلم، يعني مثلك أنت طالب علم رأيت أن ما عندك في ذريتك من سيأخذ هذه الكتب بعدك ويستفيد منها فتوصي بها، فتقول: هذه الكتب أنا أوصي أن تكون عند فلان أو في المكتبة الفلانية، يقول الشافعي: وانظر إلى كلام الفقهاء ماذا يدخل في هذه الوصية؟ عندك مجموعة من كتب العلم، قد يكون فيها كتب تفسير أحاديث كتب الفقهاء، وقد يوجد فيها كتب المعتزلة، يقول رحمه الله: لا تدخل كتب المتكلمين، لماذا؟ قال: لأن المتكلمين ليسوا علماء؛ فكتبهم ليست من كتب العلم وأنت أوصيت بكتبك من العلم، تدخل كتب الآثار، تدخل كتب الفقه، كتب التفسير السليمة، أما كتب هؤلاء فلا تدخل، قال رحمه الله: ولو أن رجلًا أوصى بثلثه لأهل العلم فقال: ثلثي هذا يصرف لأهل العلم لطلاب العلم قال: لا يدخل المتكلمون، المتكلمون من المعتزلة والجهمية ومن نحا منحاهم، قال: لأنهم ليسوا من أهل العلم، فكلام المعتزلة والجهمية - فضلًا عن كلام المتأخرين من الضّالّين كالعلمانيين وأمثالهم - هذا ليس علمًا بتاتًا، ما العلم؟ العلم في رد كلامهم، هذا هو العلم، أما كلامهم هو فقد قال الله

تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾(١)، مجرد أهواء، المعتزلي عنده هوى، والرافضي عنده هوى، والخارجي عنده هوى، والجهمي عنده هوى، والأشعري عنده هوى، والماتريدي عنده هوى، ويفسرون الصفات على غير ما فسر به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصحابة رضي الله عنهم والتابعون رضي الله عنهم، الهوى ليس علمًا، وإلا لانفتحت الدنيا علومًا، وإلا لو كان كل من مال إلى باطل فصار علمًا؛ لكانت الدنيا مليئة بالعلوم! العلم قال الله؛ قال رسوله - العلم الشرعي المقصود - قال الصحابة؛ ليس بالتمويه، أما هذه الشُّبه وهذه الضلالات وهذه البدع فالعلم هو في ردها ودحضها وليست هي بذاتها علمًا، لأن الذين قالوها ليسوا علماء.

الحاصل أن معرفة طالب العلم بهذه القواعد مهمة جدًا، فإذا ضبط قواعد الصفات فأي صفة تأتي في كتاب الله أو في سُنّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم إذا عرف القاعدة والطريق سَهُلَ عليه معرفةُ معناها وسَهُلَ عليه طريقُ الوصول، فمثلًا لو أراد طالب العلم أن يعرف المراد بالمغفرة، ما المراد بالمغفرة تحديدًا، عندك أولًا تفاسير الصحابة رضي الله عنهم، ويبحث طالب العلم هل وجد عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تفسير المغفرة مثلًا، والمعنى اللغوي الذي خاطب الله به هذه الملة بلسان عربي مبين، ما المراد بالمغفرة؟ المغفرة من الغَفْر وهو السَّتْر ومنه المِغْفَر وهو الذي جُعل على الرأس في الحرب لأنه يستر الرأس، فالله تعالى يغفر أي يستر الذنوب سبحانه وتعالى، فيكون هذا هو المعنى لكلمة المغفرة وهكذا، العزة، القدرة، وأمثالها تجدها بحمد الله تعالى جلية بينة، ولو أن عندنا شيء من الوقت لأخذنا كل هذه الصفات ووضحنا معانيها، ولكن الذي يحدث لو أنا توسعنا فيها، ما المراد بالرحمة من حيث الاشتقاق ومن حيث كذا ولا نتمكن في الحقيقة من إنهاء الكتاب في هذه المدة الوجيزة، لذلك نُرَكِّزْ على الأمور الكبار، وهي إعطاء الطالب القواعد، فإذا عرف القواعدَ العظيمة فسواء جاءت في صفة المغفرة أو في السمع أو في البصر أو في الاستواء أو في النزول أو في أي وصف في كتاب الله أو سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم فإن هذا يتضح له.

بعد ذلك ذكر جملة من الآيات في النفي، وقد تقدم أن المنهج في الأسماء والصفات إثبات ما أثبت الله ونفي ما نفاه، تأمل هذه الآيات، أولًا قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٢)، أولًا يجب أن

(١) القصص: ٥٠.
(٢) الرحمن: ٧٨.

يُعلم أن كلمة (تبارك) هذه خاصة بالله تعالى، ومن الأخطاء الشائعة عند الناس قولهم (فلان تبارك علينا) لأن (تبارك) خاصة بالله تعالى، فلا يطلق على غير الرب سبحانه هذا، لهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(١)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(٢)، وإذا كان الرجل فعلا مباركًا؛ فإنه يُقال: (فلان مبارك) ولا يقال: (تبارك)، لأن هذا (تبارك) تعالى وتعاظم الرب سبحانه وتعالى، هذا خاص بالرب، أي تبارك الله أي تعالى وتعاظم سبحانه.

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٣)، هذا فيه إثبات الاسم لله تعالى، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ واصطَبِرْ لِعِبادتِهِ هَلْ تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٤)، قوله ﴿هَلْ تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هنا هذا النوع من الاستفهام يراد به النفي، أي ليس له سمي، لكنه مُشرب معنى التحدي، الاستفهام الذي بمعنى النفي يكون قد أُشرب معنى التحدي، فلا شك ان الله تعالى لا سمي له سبحانه وبحمده، في هذا الأسلوب ﴿هَلْ تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فيه شيء من التحدي، لا والله ليس لله سمي.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٥)، نعرف قاعدة أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، كفؤًا نكرة وقد نفيت ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فتفيد العموم أنه ليس لله تعالى أي كفؤ سبحانه وبحمده.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾(٦)، تقدم الكلام على معنى النِّدِّ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾(٧)، ما الملاحظ في النفي؟ عندنا قاعدة في النفي - وهي طريقة الرسل صلّى الله عليهم وسلّم - النفي يأتي مجملًا، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فيأتي النفي مجملًا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾(٨)، وقال: ﴿هَلْ تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٩)، يتميز النفي في العموم الأغلب بأنه مجمل، أما الإثبات للصفات فكما رأيت يتميز بالتفصيل، لأن الإثبات هو الذي فيه التعريف، التعريف بالرب سبحانه وتعالى،

(١) الفرقان: ١.
(٢) الملك: ١.
(٣) الرحمن: ٧٨.
(٤) مريم: ٦٥.
(٥) الإخلاص: ٤.
(٦) البقرة: ٢٢.
(٧) البقرة: ١٦٥.
(٨) النحل: ٧٤.
(٩) مريم: ٦٥.

لأنه يتصف بالرحمة بالمغفرة بالسمع بالبصر، وهكذا بقية الصفات، عند النفي يجمل إجمالًا، هذا هو المعتاد، إلا أن يُدَّعَى دعوى كالولد فيذكر اللهُ تعالى نفيَ الولد فيذكرها الله تعالى، لكن في العموم الأغلب طريقة الرسل صلّى الله عليهم وسلّم هي النفي المجمل والإثبات المفصل، مما يدلك على ضلال المتكلمين في هذا الباب أنهم عكسوا طريقة القرآن، فصار الذي يثبتونه هو الأقل والذي ينفونه ينفونه بشكل موسع،؛ حتى بطريقة فيها شيء من قلة الأدب مع الله تعالى، الله ليس كذا ولا كذا ولا كذا - عبارات لا يليق أن قال -، الله تعالى إذا أَجْمَل في النفي دخل في هذا الإجمال كل شيء ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا من الملائكة ولا من الإنس ولا من الجن ولا من أي شيء، ليس لله تعالى كفؤًا أحد، وهكذا بقية موارد النفي ونصوص النفي تلاحظ أنها تأتي بشي من الإجمال في العموم الأغلب، فطريقة الذين خالفوا الرسل صلّى الله عليهم وسلّم أنهم عكسوا فصاروا يَقِلُّ عندهم جدًا عندهم الإثبات - هذا مَنْ يُثبت عندهم - ويكثُرُ عندهم النفي، حتى يعبرون بعبارات غير مناسبة بتاتًا مع الله، فيُجْمَلُ في النفي ولا يفصل فيها، ومعلوم أن الله تعالى إذا تنزَّه عن النقائص فمهما عددت من النقائص، كل ما تعدد من النقائص فهي داخلة، فلهذا لا بد أن يلاحظ الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السماوات وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

---

(١) الإسراء: ١١١.
(٢) التغابن: ١.
(٣) الفرقان: ١، ٢.
(٤) المؤمنون: ٩١، ٩٢.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

.....

هذه الآيات فيها نفي ما لا يليق بالله عزّ وجلّ مثل الشريك، فإن الرب سبحانه وتعالى يُنفى عنه الشريك، أي شريك، فليس لله تعالى شريك لا من الجنّ ولا من الإنس ولا من الملائكة ولا من أي مخلوق، ونفى الله تعالى الشريك في مواضع كثيرة من كتابه، ومن أعظم الكلمات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله) فإن فيها نفي الشريك، ولهذا لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، فليس لله تعالى شريك لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في ربوبيته ولا في عبادته كما تقدم، فنفي الشريك كثير في آيات القرآن، وهكذا نفي الولد، والذين ادعوا لله الولد منهم النصارى زعموا أن عيسى ابن الله تعالى، ومنهم كفرة العرب الجاهليين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، وهكذا طوائف من أهل الكفر والضلال يزعمون أن لله تعالى ولدًا، والله تعالى لا يمكن أن يكون له ولد، لأن الولد نقص في حق الله تعالى، ولذلك قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾(٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(٤)، فالولادة يستحيل أن تكون أساسًا في حق الله تعالى، فلم يلده أحد سبحانه وهو لا يَلِدُ عزَّ اسمه وتبارك وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبرًا، فكل هذه الآيات في نفي الشريك وفي نفي الولد مما كان يقوله الجهلة.

قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾(٥)، ضرب المثل هو أن يُشَبَّهَ حال بحال معين، فلا يحل بتاتًا أن يضرب لله المثل سبحانه وبحمده، فالمثل لله سبحانه لا يليق لأن الله تعالى ليس له مِثْلٌ حتى يُقاس عليه كما تقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، وإنما ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾(٦)، وهو أن كل كمال يتصف به المخلوق ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ فالله أولى به، وهو قياس الأولى، وقلنا: إن

(١) النحل: ٧٤.
(٢) الأعراف: ٣٣.
(٣) المؤمنون: ٩١.
(٤) الإخلاص: ٣.
(٥) النحل: ٧٤.
(٦) النحل: ٦٠.

الأقيسة على نوعين، هناك قياس الشمول، وهناك قياس الأولى، وهناك القياس المعروف وهو الذي يقاس فيه الفرع على الأصل الذي يتحدث عنه الأصوليون، الله لا يقاس هذا القياس سبحانه وتعالى لا قياس شمول – تستوي أفراده فيه - ولا قياس فرع على أصل لأنه لا يمكن أن يكون هناك من يقاس على الله تعالى بتاتًا، إنما يذكر المثل الأعلى، القياس قياس الأولى، فكل وصف ثبت للمخلوق ليس فيه نقص فالله أولى به، لماذا نقول: ليس فيه نقص، لأنه قد يثبت للمخلوق وصف كمال بالنسبة للمخلوق، لكنه هو بالنسبة لله تعالى لا يليق، فالولد بالنسبة للمخلوق - الذي يأتيه ولد - هذا كمال لا يقاس الرب هذا القياس، لأن الولد بالنسبة لله تعالى هذا فيه نقص، وإنما كل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ فالله أولى به، فهذا هو المراد، فالحاصل أن الله تعالى لا تُضرب له الأمثال، ولا يقاس سبحانه وتعالى كما تقدم في كلام الماتن رحمه الله تعالى.

وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١) فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ، فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٢).

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٣).

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْد ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٤).

وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿الرحمن اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٥).

وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرْقَان: ﴿ثم اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَن﴾(٦).

وَقَالَ فِي سُورَةِ السَّجْدَة: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٧).

---

(١) طه: ٥.
(٢) الأعراف: ٥٤.
(٣) يونس: ٣.
(٤) الرعد: ٢.
(٥) طه: ٥.
(٦) الفرقان: ٥٩.
(٧) السجدة: ٤.

وَقَالَ فِي سُوْرَةِ الحَدِيْد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(١).

.....

هذه الآيات السبع وردت في كتاب الله أولها في سورة الأعراف وآخرها في سورة الحديد، كلها فيها إثبات استواء الله تعالى على العرش، هذه مسألة من المسائل الكبار جدًا، وبذلك يتميز المبتدع من السُّنِّيّ، السلف رضي الله عنهم وأرضاهم فسروا الاستواء تفسيرًا واضحًا جدًا، وهو الذي دلت عليه اللغة، لأن كلمة استوى إذا عُدّيت بحرف على فإنها ليس لها إلا معنى العلو والارتفاع، هذا أمر معروف، فسّر السلف رضي الله عنهم الاستواء بما يدل على هذا، ولهم في تفسير الاستواء أربعة تفاسير لا يناقض بعضها بعضًا، ذكرها ابن القيم رحمه الله بقوله في النونية:

(فلهم عبارات عليها أربع *** قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك *** ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو أربع *** وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره *** أدرى من الجهمي بالقرآن)

فالاستواء على العرش معناه العلو على العرش والارتفاع عليه، والعرش هو أعظم مخلوقات الله تعالى على الإطلاق، الله تعالى يقول في محكم القرآن في الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٢)، وجاء في الحديث أن السماوات السبع بالنسبة إلى الكرسي كسبعة دراهم ألقيت في ترس، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة - أي في بريّة - الحلقة التي تُلقى في فلاة ما هي؟ الحلقة شيء صغير جدًا، محدود، الكرسي هذا الذي وسع السماوات والأرض بالنسبة للعرش كحلقة في بريّة، وهذا يدل على عظمة العرش، ولهذا ذكر الله العرش في مواضع من كتابه، وعظَّم من شأنه وفخَّم من أَمْرِهِ لأنه أعظم مخلوقات الله تعالى على الإطلاق، ولهذا قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا سألتم الله تعالى فأسالوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفه عرش الرحمن» فالفردوس هو أعلى الجنة، سقف الفردوس - الذي هو فوق الفردوس قطعًا - هو عرش الرحمن، والعرش هذا لا يقدر قدره إلّا الذي خلقه سبحانه، إذا علمتَ أن

(١) الحديد: ٤.
(٢) البقرة: ٢٥٥.

السماوات والأرض - السماوات السبع والأرضين جميعًا - قد وسعها الكرسي، ثم هذا الكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة، فهذا يدل على عظمة شأن العرش، والصحيح أن العرش هو أول مخلوقات الله عزّ وجلّ، أوَّل ما خلق الله هو العرش سبحانه، أما حديث «أوَّلُ ما خلق اللهُ القلم» فليست الأوليّة هنا أوليّة مطلقة لحديث ابن عمرو رضي الله عنهما: «إنّ الله قدَّر مقادير السماوات والأرض قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام؛ وكان عرشه على الماء»، فدل على أن العرش قبل التقدير، والقلم لمَّا خلقه الله تعالى أمره سبحانه وتعالى أن يكتب مقادير الخلق فجرى في تلك الساعة بما هو كائن، في حديث ابن عمرو قال: «وكان عرشه على الماء»، فدل على أن العرش قبل ذلك، استواء الله على عرشه وعلوه عليه، والرب سبحانه وتعالى ذكر استواءه على العرش في كتابه معرِّفًا بنفسه ومعظمًا من شأن استوائه تعالى على العرش، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(١)، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام هذا مما يُمدح الرب به، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾(٢)، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ كل هذا تعظيم من الرب لنفسه تعالى ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، استواء الله تعالى على العرش كما يليق به، و استواء الله على العرش من الصفات الفعلية ليس من الصفات الذاتية، يجب أن تفرق بين العلوّ وبين الاستواء على العرش، العلوّ صفة ذاتية ملازمة لذات الله عزّ وجلّ، أما الاستواء على العرش صفة فعلية، الصفات الفعلية متعلقة بالمشيئة، ودل على أنه من الصفات الفعلية هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(٣)، فدل على أن استواءه تعالى على العرش بعد خلق السماوات والأرض، وتقدم أن السلف رضي الله عنهم وأرضاهم يُقرّون أن الاستواء على العرش حق لا شك فيه، ولهذا فسروا بهذه التفسيرات: استوى على العرش، علا على العرش، ارتفع على العرش، صعد على العرش، استقر على العرش، كلها تفاسير تؤكد أن الاستواء على العرش على ظاهره، فإذا جئنا إلى الكيفية تقدم كلام مالك لما سأله رجل عن الكيفية قال: الاستواء معلوم، يعني من جهة المعنى كما فسره السلف بهذه التفاسير الأربعة،

(١) الأعراف: ٥٤.
(٢) الأعراف: ٥٤.
(٣) الأعراف: ٥٤.

وكل هذه التفاسير - وهذا يُنتبه له في تفاسير السلف - كل هذه التفاسير لا تناقض بينها، فليس الذي يقول: علا على العرش يختلف كلامه عن الذي يقول: ارتفع أو صعد أو استقر، كلها دالة على أمر واحد؛ وهو أن الرب تعالى استوى عليه استواء حقيقيًا، فإذا سُئِل المؤمن عن الكيفية فمثل ما تقدم، لا يجوز السؤال عن الكيفية، ولهذا روى الصابوني رحمه الله في كتابه اعتقاد أهل الحديث أن بعض أهل العلم: قال: إذا قال لك الجهميُّ: كيف استوى على العرش؟ فقل له: إنّا لم نُؤتى من الغيب إلا ما قد أُعْلِمْنَاه من نصوص، وقد أخبرنا الله أنه استوى على العرش ولم يُبين لنا كيفية ذلك، لو أن الله بيّن لنا كيفيته - وحاشا لله أن يُبين لأن الله لا يُحاط بالأصل - لكن نقول: لو أن الله بيّن لنا الكيفية لأخبرنا بالكيفية، لكن أخبرنا الله بالاستواء ومعناه واضح؛ فنحن نُقِرُّ بالاستواء، أما أن تسأل عن الكيفية؛ فالله ما أخبرنا بالكيفية، ولو رُويت له كيفية - على فرض أنها رويت في حديث صحيح أو أن الله بيّنها في القرآن - لقلنا بها، فنحن في موضع الأسماء والصفات - كما تقدم - عندنا المعنى واضح، ولهذا في الاستواء تُبيِّن وتُوضحْ معناه، وقال مالك رحمه الله في الاستواء: هو معلوم، وتفسر وتقول: استوى على العرش أي علا وارتفع على العرش، فالمعنى واضح، فإذا جاء ابنُ آدم الضعيف المسكين ليقول: كيف استوى على العرش؟ فكما قال السلف؛ يقال له في هذه الحالة: روحك التي بين جنبيك لو أنها خرجت لهلكت، وإذا بقيت فيك فلو أصيب جسمك بما أصيب به من الأدواء فإنك تبقى حيًا، يقول: نعم، ما هي الروح؟ قال أهل العلم: جَعَلَ اللهُ الروح في جسد الإنسان يجهلها عبرة لأمور الغيب، فقبل ما تتسور تذهب تسأل عن كيفية استواء الله عزّ وجلّ! هات كيفية روحك هذه؟ التي هي عجب في الإنسان، لو سقط من جبل وتكسر كل عضو فيه؛ فما دامت روحه فيه فإنه حي، لو احترق معظم جسده وأصيب إصابات شديدة؛ مادامت الروح فيه فيبقى حيًا، ثم إنه في كامل عافيته جالس يأكل أو يشرب أو يضحك أو يتكلم فجأة يهلك، خرجت روحه، ما هذه الروح العجيبة، ابن آدم ما يعرف هذا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١)، فالذي لا يستطيع أن يعرف الروح التي بين جنبيه أيريد أن يتسور ويسأل عن كيفية صفات الله عزّ وجلّ، فالحاصل أن استواء الله على عرشه على ظاهره حق لا شك فيه، ويبقى أمر الكيفية إلى الله تعالى لا نقول فيه.

(١) الإسراء: ٨٥.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾(٥).

.....

ذكر رحمه الله تعالى هنا أدلة العلوّ، وقلنا: إن العلوّ ذاتي، فهو من الصفات الذاتية، أما الاستواء فهو من الصفات الفعلية، والصفات الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها سبحانه وتعالى، والصفات الفعلية هي التي تكون بحسب مشيئته -متعلقة بمشيئته-، متى شاء سبحانه وتعالى اتصف بها، علوّ الله عزّ وجلّ على خلقه وأنه تعالى فوق سماواته هذا دلت عليه نصوص كثيرة، والنصوص في هذا قال أهل العلم: تزيد على ألف نص، وأنواع الأدلة الدالة على علوّ الله عزّ وجلّ واحد وعشرون نوعًا، لا نقول واحد وعشرون دليلًا، نقول: واحد وعشرون نوعًا، تحت كل نوع عدد من الأدلة، نعطي بعض الأمثلة على هذا، نقول: النوع الأول من أدلة علوّ الله عزّ وجلّ: التصريح بأن الله تعالى في السماء، عندنا آيتان في القرآن ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾(٦)، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾(٧)، هذه الآية الثانية، وعلى قراءة من قرأ في سورة الأنعام ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٨) إلى قوله ﴿وَهُوَ اللهُ فِي

(١) آل عمران: ٥٥.
(٢) النساء: ١٥٨.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) غافر: ٣٦، ٣٧.
(٥) الملك: ١٦، ١٧.
(٦) الملك: ١٦.
(٧) الملك: ١٧.
(٨) الأنعام: ١.

السَّمَاوَاتِ﴾(١) وقف ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾(٢) فتكون هذه الآية الثالثة، ومن قرأها بالوصل ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يكون المعنى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾(٣) أي هو معبود أهل السماوات ومعبود أهل الأرض.

من الأدلة السُّنَّة: قوله صلّى الله عليه وسلّم «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وقال للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» وهكذا، عدد من الأدلة التي فيها التصريح بأن الله تعالى في السماء، فصار هذا النوع - التصريح بأن الله في السماء - فيه عدد من النصوص في القرآن والسُّنَّة وهكذا، التصريح بالفوقية، التصريح بالعروج إليها تعالى، التصريح بالصعود إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(٤)، ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٥)، والعجيب العجيب في النفاة أنهم يُقرون بمعراج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الله، ومعراج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الله من أَدَلِّ الأدلة وأوضحها على أن الله تعالى في العلوّ، فالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما هو معلوم أُسري به إلى بيت المقدس ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾(٦)، أما المعراج فعُرِج به إلى السماء، وفُرِضَت عليه الصلوات الخمس، وجاء في النصوص تفاصيل لأمر المعراج، وأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ارتفع به إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام - أقلام الكتبة - ، وأن الله تعالى أوجب عليه الصلوات؛ خمسين صلاة، ثم لَمَّا نزل إلى موسى قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فصعد به جبريل مرَّة أخرى وخفف الله تعالى عنه حتى صارت خمسًا، وصار يتردد بين موسى عليه الصّلاة والسّلام وبين ربه، على ما يدل هذا؟ على أن الله تعالى في العلوّ، فإذا جاءوا إلى دلائل النّبوّة، قالوا: من دلائل النّبوّة وثبوت نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم - وهو مما يحتجون به حتى على الكفار وفي مناقشاتهم مع اليهود والنصارى، ولا شك أنه من الدلائل - عروج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى ربه، ثم تنفون العلو! ما أعجبكم!! الآن أنتم تقرّون بالعروج ثم تقولون: إنا لا نقرّ بأن الله في العلو!! العروج واضح أنه إلى السبع

(١) الأنعام: ٣.
(٢) الأنعام: ٣.
(٣) الزخرف: ٨٤.
(٤) فاطر: ١٠.
(٥) المعارج: ٤.
(٦) الإسراء: ١.

الطباق، عُرج به صلّى الله عليه وسلّم إلى ربه وكلّمه الله تعالى كفاحًا، ولهذا تميّزت الصلاة من بين الأحكام الأخرى بأن الله فرضها بنفسه، أما الصوم والزكاة والحج فنزل بها جبريل عليه الصّلاة والسّلام في آيات القرآن، فما الذي ميَّز الصلاة؟ ميّز الصلاة أن الرب تعالى فرضها بنفسه وعُرِج بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى ربه، ثم تقولون: ما في علوّ؟ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(١)، هؤلاء قوم عجب، كيف تستدل بأحاديث العروج ثم تقول: إني لا أقرّ بالعلوّ! العروج من أدلة العلوّ، ولهذا قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾(٢) إلى الله تعالى، وهكذا بقية الأنواع، أوصلها ابن القيم رحمه الله إلى واحد وعشرين نوعًا، وذكرها رحمة الله تعالى عليه في النونية، وفصلها تفصيلًا كثيرًا، وأشار إلى الأحاديث الواردة فيها عليه الرحمة، قال أهل العلم: إذا جمعت جميع أدلة العلوّ زادت على ألف دليل، يعني مثلما ذكرنا قبل قليل في النوع الأول التصريح بأن الله تعالى في السماء فيه هذه الأدلة، مثلًا التصريح بالفوقية ورد في القرآن في ثلاثة مواضع ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾(٣)، والثانية ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٤)، والثالثة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(٥) في سورة الأنعام في موضعين، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والآية الأخرى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ التصريح بالفوقية، هذه ثلاثة مواضع في القرآن، ثم تجد مواضع في السُّنَّة، من ضمن ذلك الحديث العظيم الصحيح في مسلم حيث خطب صلّى الله عليه وسلّم في حجة الوداع قال: «وأنت تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: (نشهد أنك قد أديت وبلَّغت ونصحت)، فماذا فعل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمام هذا العدد الكبير، قال بعض أهل العلم: إنه خطب في مئة ألف، قال صلّى الله عليه وسلّم هكذا: اللهم - يشير بأصبعه صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء - اشهد - ثلاث مرات -، على ما يدل هذا؟ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما أتى المطر حسر عن ردائه كما في صحيح مسلم حتى يصيب المطر جسده الكريم عليه الصّلاة والسّلام، فسألوه عن ذلك «حديث عهد بربه» يعني أنه آت من العلوّ، كل هذا ما يدل على العلوّ! النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يبيّن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾(٦)،

(١) النور: ٤٠.
(٢) المعارج: ٤.
(٣) النحل: ٥٠.
(٤) الأنعام: ١٨.
(٥) الأنعام: ٦١.
(٦) النحل: ٤٤.

فإذا لم يكن هذا بيانًا، يقول للجارية لما قالت: إن الله تعالى في السماء، وقالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنه مؤمنة» إذا كان اعتقاد أن الله في السماء اعتقاد المجسمة كما يقول المعتزلة هو اعتقاد كفري ولا يجوز، كيف يفعل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كل هذه الأفعال وتأتي النصوص على هذا الوضوح والبيان؟ لا شك أن الله تعالى في السماء وأن الأدلة على هذا كثيرة، لكن نُركِّز على هذه الآية لأنها مما أجلب به أهل الضلال كالمعتزلة ونحوهم، قالوا: إن قول فرعون ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾(١) قالوا: هذا يدل على أن اعتقاد العلوّ عقيدة فرعون! فمن اعتقد علوّ الله؛ فإنه يكون قد اعتقد عقيدة فرعون! ما أعجب هؤلاء القوم! تأملوا يا أخوة، الذي يستدل بآيات القرآن وهو غير متدبر يظهر على استدلاله من الخلل والفساد شيء عجيب للغاية، مثل استدلالات الروافض، الروافض يستدلون بآيات القرآن فتكون دليلًا عليهم، الآن فرعون حين يقول: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾(٢) هذه الآية من أدلة العلوّ وليست من الأدلة الدالة على عدم العلوّ، فرعون هل كان يُقرّ بالرب حتى يقرّ أنه في العلو؟ ألم يقل: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) ؟ ألم يقل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(٤)، ألم يقل لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(٥)، من قال إن فرعون يقرّ بالرب حتى يقر أنه في العلوّ!! قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (أنا ألتزمُ أن لا يستدل مبطل بنص من النصوص إلا جعلت دليله دليلًا عليه)، فإذا أرادوا أن يستدلوا بالقرآن أو بالسُّنَّة؛ نقول: تعالوا، يا ليتكم تستدلون بالقرآن والسُّنَّة، لأن القرآن والسُّنَّة أدلة عليكم لا لكم، ألا تجدون في كلام فرعون أنه قال ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ -بالإضافة- وهو لا يقرّ بوجود رب، فلماذا قال: إله موسى؟ لأن موسى أخبره أن إلهه في العلوّ، فلهذا قال: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ هذا الذي يقول إنه في العلو ربه - اجعلني اطلع عليه - أما من حيث اعتقاد فرعون فيقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، يقول:

---

(١) غافر: ٣٦، ٣٧.
(٢) غافر: ٣٦، ٣٧.
(٣) الشعراء: ٢٣.
(٤) القصص: ٣٨.
(٥) الشعراء: ٢٩.

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ فما أعجب هؤلاء القوم! من قال: إن فرعون مقرّ بالرب حتى يعتقد أن الرب في العلوّ؟ أيها الأخوة هذه الآيات العظيمة كما قال شيخ الإسلام: الدليل إذا أعطي حقه من التدبر ومن العلم بمدلوله صار استدلالُ المبطل به دليلًا عليه، فصارت هذه الآية من أدلة العلوّ وليست من أدلة - كما يزعمون - أن من اعتقد هذه العقيدة فإنه يعتقد عقيدة فرعون! ثم يقال: ألا تستحون أن تقولوا إنها: عقيدة فرعون والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أما إني أسأل، اللهم» ويشير إلى السماء «اللهم اشهد؟» ألا تستحون أن تقولوا هذا والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما قالت الجارية لما سألها أين الله قال: في السماء، لِمَ لَمْ يقل: أنت مشبهة مجسمة، أنت كافرة لا تستحقين أن تكوني ممن يُعْتَق، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» لأنها عرفت أن ربها تعالى في السماء وعرفت أن محمدًا رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، ولهذا يقول أهل العلم: إنه لولا وجود الشبهة لَكُفِّرَ هؤلاء، يعني هؤلاء القوم لا يتصورون ما يترتب على كلامهم، لأن فيه طعن في الرسول صلّى الله عليه وسلّم مباشرة، وأن فيه طعنًا في دلالة القرآن، فيأتي هذا الذي لا يفهم ويقول: إن فرعون يعتقد أن الله في العلوّ مع أن فرعون لا يقرّ أصلًا بالرب، ومع وجود كلمة (إله موسى) لولا أن موسى أخبره أن إلهه في السماء لَمَا قال: (إله موسى)، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(١)، فمن تدبر آتاه الله العلم وانتفع، أما من لم يتدبر فإنه يأتي بالعجب العجاب، ولهذا الآن مجموعة حتى من العلمانيين وغيرهم يستدلون بالقرآن، يستدلون بالقرآن على ماذا؟ على بلاياهم وعلى مخازيهم، هذه الكفرية الفاجرة، والله إنها لعجائب، القرآن ليس كلأً مباح، وليس الاستدلال لكل من هبّ ودبّ، القرآن أعظم وأجلّ وأكبر من أن يُستدل به على الباطل، فإذا استدل به أحدٌ على الباطل، فمن أعجب ما في القرآن أن في الدليل نفسه الذي استدل به المبطل ما يرد على هذا المبطل قبل الأدلة الأخرى، فلهذا هذا النص لما استدلوا به وفرحوا به، وقالوا: إن هذا يدل على أن فرعون يعتقد بالعلوّ؛ كان استدلالهم عليه من الفضائح، إذ جهلوا أن فرعون لا يقرُّ أصلًا بالرب حتى يُقِرّ له بالعلو، ولهذا ذكر أهل العلم هذه الآية في ضمن الأدلة الدالة على علوّ الله لأن قوله ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾(٢) دال على أن موسى أخبره أن ربه تعالى في السماء.

---

(١) ص: ٢٩.
(٢) غافر: ٣٧.

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٧).

.....

هذه الآيات كلها في المَعِيَّة، تلاحظ أنها يعبر فيها بأن الله تعالى مع الذين اتقوا، مع المحسنين، مع الصابرين، مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، مع الصابرين، هذه المَعِيَّة إذا علمتَ ما تقدم من أن الله تعالى في العلوّ وأنه في السماء وأنه إذا قيل لك: أين ربك؟ تقول: في السماء سبحانه وتعالى، تعرف به هذه المَعِيَّة.

المَعِيَّة على نوعين، النوع الأول: مَعِيَّة عامة، هذه المَعِيَّة العامة تقتضي الإحاطة فتشمل جميع المخلوقات من برّ وفاجر وإنس وجن وشجر وحجر وما في السماوات وما في الأرض، الله عزّ وجلّ معيته بهؤلاء جميعًا محيطة، فلا يخرج عن معيته أحد سبحانه وتعالى، هذا النوع الأول من المَعِيَّة وهو المَعِيَّة العامة.

---

(١) الحديد: ٤.
(٢) المجادلة: ٧.
(٣) التوبة: ٤٠.
(٤) طه: ٤٦.
(٥) النحل: ١٢٨.
(٦) الأنفال: ٤٦.
(٧) البقرة: ٢٤٩.

النوع الثاني: المَعِيَّة الخاصة، وهذه لا تكون إلا لرسل الله عليهم الصّلاة والسّلام ولمن سار على نهجهم كما في الآية، ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾(١)، ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢) ممن سلكوا مسلك الرسل، ولهذا قال تعالى لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٣) فهي تقتضي التأييد وتقتضي الحفظ والنصرة.

هل مَعِيَّة الله عزّ وجلّ تنافي علوّه هنا؟ لا، فهو سبحانه وتعالى على عرشه فوق سماواته، وهو سبحانه وبحمده مع عباده المؤمنين ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٤) وليس معنى المَعِيَّة أن الله تعالى مختلط بعباده المؤمنين وأنه معهم في الأرض، لأنّا نعلم القاعدة الكبيرة وهي أن الله تعالى في السماء، فمعيَّتُه سبحانه وتعالى لا تقتضي أنه سبحانه مختلط بهم في الأرض وأنه معهم في بيوتهم وفي مساجدهم! هذا لا يقوله مسلم يعي ما يقول، إنما الرب تعالى فوق عرشه على سماواته سبحانه وتعالى وهو معهم سبحانه وتعالى مَعِيَّة لا تقتضي الاختلاط بهم في الأرض وأن يكون معهم في بيوتهم وفي أسواقهم ونحو ذلك، حاشا لله من ذلك، تقول العرب - كما سيأتي إن شاء الله تعالى -: مازلنا نسير والقمر معنا، هل القمر معهم في طرقاتهم وفي أسواقهم وفي بيوتهم؟ لا، المَعِيَّة لا تقتضي بتاتًا الاختلاط، والمعنى أن المسافر إذا كان يسافر فإن القمر معه، يلاحظ القمرَ لهذا يستنير به في الليل، ويلاحظ أن القمر معه دائمًا مادام في الليل، هل كون القمر معهم - مازلنا نسير والقمر معنا - فأنه معهم في رواحلهم وعلى دوابهم؟ لا، فهو في العلوّ - القمر - وهو معهم، المَعِيَّة تقتضي المصاحبة ولا تقتضي المخالطة، فكذلك ما يتعلق بمَعِيَّة الله، فالله تعالى مع عباده سبحانه وتعالى سواء كانت المَعِيَّة العامة أو المَعِيَّة الخاصة وهو سبحانه وتعالى على عرشه فليس ثمّة معارضة بين هذا وهذا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾(٧).

---

(١) النحل: ١٢٨.
(٢) الأنفال: ٤٦.
(٣) طه: ٤٦.
(٤) النحل: ١٢٨.
(٥) النساء: ٨٧.
(٦) النساء: ١٢٢.
(٧) المائدة: ١١٦.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿ونَادينَاه مِنْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيمَنِ وقَرَّبنَاه نَجِيًا﴾(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾(٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾(٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾(٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُم قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾(١١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾(١٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِيْ هُمْ فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ﴾(١٣).

.....

(١) الأنعام: ١١٥.
(٢) النساء: ١٦٤.
(٣) البقرة: ٢٥٣.
(٤) الأعراف: ١٤٣.
(٥) مريم: ٥٢.
(٦) الشعراء: ١٠.
(٧) الأعراف: ٢٢.
(٨) القصص: ٦٥.
(٩) التوبة: ٦.
(١٠) البقرة: ٧٥.
(١١) الفتح: ١٥.
(١٢) الكهف: ٢٧.
(١٣) النمل: ٧٦.

كل هذه الآيات ساقها رحمه الله تعالى لإثبات أن القرآن كلام الله وأن الله تعالى تكلم به، والدلالات في هذه الآيات كثيرة، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾(١). فسمى الله القرآن بالحديث، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾(٢) فسماّه بالقول سبحانه وتعالى، ونصّ تعالى أن الله تعالى كلم موسى تكليمًا، فذكر تكليمه سبحانه وتعالى لموسى بصيغة الفعل وأكده بالمصدر أنه تكليم حقيقي، وهكذا النداء قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣)، وكذلك النجاء ﴿وقَرَّبنَاه نَجِيًا﴾(٤)، المناداة تكون بصوت مرتفع، والمناجاة تكون بصوت غير مرتفع، كل هذا يدل على أن القرآن كلام الله وعلى أن الله تعالى يوصف بالكلام، يعني عندنا نص لله تعالى بالكلام، فيكلم سبحانُه ملائكتَه ويكلم أهل الجنة ويكلم أهل النار ويكلم العباد في القيامة كفاحًا «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان»، وكلم اللهُ آدم وإبراهيم وموسى ومحمدًا عليهم الصّلاة والسّلام، فيتكلم سبحانه وتعالى بما شاء متى شاء، فالله تعالى يتكلم، ومن كلام الله القرآن والتوراة والإنجيل كما تقدم أنه تكلم بها سبحانه وتعالى، فلا شك أن الله تعالى تكلم بها، ثم إن في موضوع الكلام لأن هذه من المسائل الكبيرة التي فيها مفاصلة عظيمة بين أهل الحق وأهل الباطل، القرآن هو كلام الله بلفظه وبمعناه، يعني أن الله سبحانه وتعالى هو الذي قال: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(٥) إلى آخر هذه السورة وسائر القرآن، جبريل عليه الصّلاة والسّلام سمع هذا من الله ونزل به هذا الروح الأمين إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم، ما مهمة جبريل؟ البلاغ، وما مهمة محمد صلّى الله عليه وسلّم؟ البلاغ ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(٦)، فالله تكلم به وجبريل نقله ولهذا سماّه تعالى بالأمين، نقله كما أمره ربه تبارك وتعالى، لم يزد حرفًا ولم ينقص حرفًا، محمد صلّى الله عليه وسلّم بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونقل للأمة ما قاله ربه في كتابه لم يزد حرفًا ولم ينقص حرفًا، الرسل هذه هي مهمتهم، فالقرآن كلام الله بلفظه وبمعناه، فسواء كتبنا القرآن في المصاحف فنقول: هذا كلام الله، أو قرأناه نقول: نحن نقرأ ما تكلم الله به، والكلام يُضاف إلى من تكلم به ابتداءً، أما من تلاه فإنه يقول أنا أتلو كلام عزّ

(١) النساء: ٨٧.
(٢) النساء: ١٢٢.
(٣) الشعراء: ١٠.
(٤) مريم: ٥٢.
(٥) الفاتحة: ٢ - ٤.
(٦) النحل: ٣٥.

وجلّ، فالله تعالى هو الذي تكلم به، ثم في أمر الكلام؛ كلام الله تعالى بصوت وحرف، بصوت كما يأتينا في حديث «إن الله تعالى يتكلم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ»، إن شاء الله يأتي الحديث، ثم إنه صوت مسموع سمعه موسى عليه الصّلاة والسّلام، سمع الخطاب ورد الجواب، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(١) لما سمع قول رب العالمين ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ أجاب، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(٢)، فسمع ربَّ العالمين يقول له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾(٣) فسمع وأطاع ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(٤) إلى آخره الآية، فدل على أن كلام الله بصوت لأنه سمعه موسى، وهكذا بقية الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾(٥) أي القرآن، يعني إذا طلب منك أحد المشركين من المحاربين أن يأتي إليكم ليسمع القرآن، قال: أنا أريد أن أعرف الإسلام منكم أنتم، وأنا رجل من قوم محاربين؛ فإن أتيت قتلتموني، أنا أريد أن تجيروني حتى أسمع هذا الذي تقولون إن الله تعالى أنزله وحيًا، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾(٦) فدل على أن القرآن كلام الله وأنه يكون مسموعًا، وأنه حروف، مؤلف من هذه الحروف، والدليل على هذا قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، وهو واضح أنه حروف، كقولك ألف لام ميم صاد قاف هذه حروف، فكل هذا مما نعتقده في القرآن أنه كلام الله وأنه بحرف وصوت وأنه يُسمع، ولهذا سمعه جبريل من رب العالمين وأن كلام الله لمّا كلم موسى سمعه، والمؤمنون في الجنة حين يكلمهم ربهم يسمعون، وأهل النار حين يكلمهم ربهم ويقول لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾(٧) - نسأل الله العافية والسلامة - يسمعون، فهو لا شك أنه مسموع، وقد ذكر اللهُ تعالى في خبر موسى أنه ناداه وناجاه، والمناداة هي الكلام من بُعد، والمناجاة تكون من قُرْب، المناداة تكون بصوت مرتفع، والمناجاة تكون بصوت غير مرتفع، كل هذا

(١) طه: ١٧.
(٢) طه: ١٨.
(٣) طه: ١٩.
(٤) طه: ٢٠.
(٥) التوبة: ٦.
(٦) التوبة: ٦.
(٧) المؤمنون: ١٠٨.

يدل على أن القرآن كلام الله وأنه مُنَزَّل كما سيأتينا إن شاء الله تعالى؛ وأنه غير مخلوق، غير مخلوق لأنه صفة من صفات الله، الكلام صفة من صفات الله، ولمّا كان القرآن من كلام الله استحال أن يكون مخلوقًا، الصفة هي كلام الله، والقرآن من كلام الله، وما دام القرآن من كلام الله، وكلام الله صفة من الصفات فيستحيل أن يكون القرآن مخلوقًا لأن كلام الله وصف من أوصافه، وليس من أوصاف الله تعالى شيء مخلوق، فهذا مجمل الكلام في موضوع الاعتقاد في كلام الله، وهي من المسائل الكبار جدًا، ولا يكاد توجد مسألة امتُحِنَ بها أهل السُّنَّة امتحانًا عامًا مثل هذه المسألة، وهي التي وقف لها أئمة الإسلام الكبار كأحمد بن حنبل وغيره من أئمة الإسلام رحمة الله تعالى عليهم حين قالت المعتزلة: إن القرآن كلام الله مخلوق، المعتزلة لا تناقش بأن القرآن كلام الله – هو كلام الله - ولكن يقولون: إنه مخلوق، لأنهم - قاتلهم الله - يقولون: إن صفات الله مخلوقة، هذا الكلام وقف له أهل السُّنَّة بالمرصاد حتى قُتِلَ منهم من قُتِلَ، وسُجِنَ منهم من سُجِن، وثبتوا حتى رفع الله المحنة على يد المتوكل رحمه الله تعالى، وإلا في زمن المأمون وفي زمن المعتصم وفي زمن الواثق كان هناك امتحان على مستوى دولة الخلافة كلها، قديمًا ما كان هناك إلا دولة إسلام ودولة كفر، العراق والشام ومصر واليمن والجزيرة والحرمين كلها دولة واحدة، فلا تتصور أنه كان يستطيع أحمد بن حنبل أن يذهب من العراق إلى مصر، هي دولة واحدة، فليس ثمَّة إلا دولة إسلام ودولة كفر، فلهذا لم يكن عندهم مجال بتاتًا للهجرة من ذاك الموضع الذي امتُحِنُوا فيه إلى موضع آخر، فلهذا لمّا امتُحِنُوا رضي الله عنهم وأرضاهم ثبتوا، وقُتِل منهم مَنْ قُتِل رضي الله عنهم، ومات في السجن منهم مَنْ مات، وتعرض للعذاب مَنْ تعرض منهم رحمهم الله تعالى وثبتوا رضي الله عنهم، لأن القول بأن القرآن خطر جدًا، مقتضاه أن صفات الله مخلوقة، وإذا قيل: إن شيئًا من صفات الله تعالى شيء مخلوق ينفتح باب الزندقة، من الذي خلقه؟ نسأل الله العافية والسلامة، ولهذا بعض المغفلين قالوا: لماذا عَذَّبَ أحمدُ بن حنبل نفسه هذا التعذيب، وأئمة السُّنَّة وقفوا هذا الموقف حتى سُجن منهم مَنْ سجن! البويطي رحمه الله تعالى أُتِيَ به من مصر - البويطي هو تلميذ الشافعي، هو أنبل تلاميذ الشافعي على الإطلاق - أُتِيَ به من مصر إلى العراق قد جُعِلَ في رقبته ثِقَل، يعني حتى يكون طوال الطريق محدودبًا حتى يرجع، ومكث في السجن رضي الله عنه ورحمه الله حتى مات وأبى، يصرون هذا الإصرار على أمر سهل؟ لا والله، ليس بالسهل، الأمر خطير لأنه إذا قيل: إن من صفات الله شيئًا مخلوقًا؛ فمعنى ذلك القدحُ في ربوبية الله وفي استحقاقه العبادة، حيث لا يشعر المغفل الذي يقول: ما الذي جعلهم

يتعرضون لمثل هذا كله؟ المسألة قول من الأقوال التي نشأت! وبعضهم يقول: إنها مسألة أصلًا لا حاجة للنقاش فيها، يقال: كلام الله وخلص لا يُتعرض هل هو مخلوق أو غير مخلوق! بل يقال: غير مخلوق، لأنه إذا قيل: إن القرآن مخلوق فمعنى ذلك - والقرآن من كلام الله - معنى ذلك أن كلام الله مخلوق، وإذا كان كلام الله الذي هو صفته مخلوق ينهار عندنا الاعتقاد بأسره، الله تعالى يقول: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١) يسقط الاستدلال بالآية، قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾(٢) فتسقط هذه الآيات، حاشا لله تعالى أن تسقط، تسقط دلالتها، إذا قيل: إن من الله تعالى شيئًا مخلوقًا ينفتح بابٌ من الكفر والزندقة ليس بالهين، ولهذا هذا المقولة قد يقولها أناس ليسوا زنادقة في أصل مقولتهم وإن كانت مقولة كفرية بلا شك، المقولة هذه كفرية قد نقل الإجماع على كفر من قالها أهلُ العلم رحمهم الله، حتى عدّ اللالكائي أكثر من خمسمئة من علماء الأمّة ممن يكفرون من قال: إن القرآن مخلوق، قال ابن القيم رحمه الله تعالى لَمَّا ذكر رحمه الله تكفيرَ العلماء من أهل السُّنَّة لمن قال بأن القرآن مخلوق ذكرَ ما أورده اللالكائي رحمه الله تعالى من نقله عن خمسين في عشرة، يعني خمسون في عشرة تعادل كم؟ تعادل خمسمئة، بل خمسمئة وزيادة من العلماء، بأن من قال: إن القرآن مخلوق فإنه يكفر، أئمة الإسلام الكبار كلهم قد نُقِلَ عنهم هذا، فمن قال: إن القرآن مخلوق لا شك بأنه قال بقول كفري، وقد يكون مراد الزنادقة من إطلاق هذه الكلمة أن يَلِجُوا من خلالها إلى القدح في ربوبية الله تعالى، لأنه إذا كان في رب العالمين شيء مخلوق يُقدح في استحقاقه للعبادة، ويقدح في ربوبيته سبحانه وتعالى، ولهذا وقف علماء الأمّة رحمة الله عليهم بالمرصاد لهذه المقولة، وواجهوا ثلاثة من الخلفاء، المأمون كانت دولته قوية جدًا ضاربة، المعتصم صاحب عمورية الذي أنقذ عمورية بتسعمئة ألف، فكانت الدول العباسية في ذلك الوقت قوية جدًا وليس من السهولة أن يقاوموها، وما كانوا يريدون المقاومة أو الخروج عليها، بل لَمّا اجتمع فقهاء بغداد عند الإمام أحمد رحمه الله في زمن الواثق وهو الخليفة الثالث وأرادوا الخروج عليه قال: لا تشقوا عصا المسلمين حتى يستريح برٌّ أو يُستراح من فاجر، لكن الموقف (كلمة غير واضحة لعلها: ثابت) ما يمكن أن نقبل أن القرآن مخلوق، ولهذا عُذِّب رحمه الله الإمام أحمد التعذيبَ المعروف، وقال رحمه الله: جُلدت لأموت، يعني الجلد

(١) النحل: ١٧.
(٢) النحل: ٢٠، ٢١.

الذي تعرض له رحمه الله ليس جلد من يُراد تعذيبُه أو تأديبُه، كان يُراد أن يموت تحت التعذيب وأبى رحمه الله تعالى أن يرجع، أبى رحمة الله تعالى عليه، وعلماء السُّنَّة استعظموا أن يقال هذا، ينفتح باب الزندقة، ولهذا مقامهم رحمة الله عليهم مقام كبير جدًا عليهم الرحمة والغفران، فالمقولة هذه خطرة جدًا وإن كان حثالات المعتزلة من سفهاء الخوارج الآن الإباضية وأمثالهم يقولونها ويجهرون بها، وهي مقولة كفرية رغم أنوفهم، والإجماع على أن المقولة كفرية هذا تجده ذكره الطبراني وذكرها اللالكائي رحمهم الله تعالى، يقول ابن القيم رحمه الله فيمن قالوا إن القرآن مخلوق: (ولقد تقلد كفرَهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان)، خمسون في عشرة بخمسمئة، (واللالكائي الإمام حكاه عنهم بل حكاه قبله الطبراني)، فالمقولة كفرية، القرآن كلام الله غير مخلوق ويجب الجزم بأنه غير مخلوق، ولا يصح أن يُقال: إنه كلام الله ونقف! هذا مذهب الواقفة، وهم فئة من الجهمية، لأن الجهمية منهم من يقول مخلوق ويصرح به، ثم لَّما خذل الله الجهمية وتسلط عليهم المتوكل رحمة الله تعالى عليه، المتوكل لّما أتى نصر مقولةَ أهل السُّنَّة وأذلَّ الجهمية والمعتزلة إذلالًا شديدًا حتى إن ابن أبي دؤاد وهو الذي تصدر هذه المسألة قد صادر أمواله وأذلَّه حتى صار فقيرًا وأهانه إهانة بالغة، هذه المقولة مقولة كفرية، وكتب إلى آفاق الخلافة الإسلامية بمنع أن يقال: إن القرآن المخلوق، بعد أن كان مَنْ قَبْلَهُ يقول: إن القرآن مخلوق، فرفع الله تعالى تلك الغُمَّة، وبعدها سقطت المعتزلة، وهذا من آيات الله عزّ وجلّ، أبغضت أمَّةُ محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم المعتزلةَ بغضاء شديدة، أيها الإخوة بعض المعتزلة صنف مئتي مصنف، الآن تتعب تعبًا بالغًا حتى تجد مصنفًا واحدًا للمعتزلة، دمَّر الله عزّ وجلّ - وهو القدير العزيز - دمّر معظم كتب المعتزلة، فلا تجد كتب المعتزلة إلا نادرة قليلة، مع أنهم في زمن المأمون والمعتصم والواثق كان القضاة منهم وكان الوعاظ منهم، بلغت الأمور حدا أن الأسير الذي يكون عند الروم إذا أريد أن يُفادى بلغوا من النذالة وقلة خوف الله عزّ وجلّ حدا أن يُعرض على الأسير - كثير من المجاهدين أصلًا ليسوا من العلماء وليسوا من أهل العلم - يقال: تقول القرآن مخلوق؟ قال: لا، طبعًا غير مخلوق، كذا يقول علماء الأمّة، أحمد بن حنبل ومن قبلهم ومن بعدهم، قالوا: إذًا تبقى عند الروم أسيرًا حتى تقول: إن القرآن مخلوق! تسلطوا تسلطًا عظيمًا، كانت العاقبة أن سلط الله تعالى - الذي عنده التسليط الإلهي - أن سلط على معتقد المعتزلة الهلاك، ولهذا معتقد المعتزلة لم يرتفع ذلك الارتفاع وإنما تقلَّدته الآن الرافضة منذ قرون، ورثه الرافضة، ورثه الإباضية في عُمان، ورثه الزيدية في اليمن، لكن رؤوس الاعتزال الكبار الذين كانوا في تلك

الأوقات قد دُمرت كتبهم، دُمرت، ما أحرقها أحد، دمّرها العلي العظيم سبحانه وتعالى، مع أنهم كانوا هم القضاة وهم المفتون، لكن شاء الله سبحانه أن يضمحل جزء كبير جدًا من هذه الكتب حتى أنك إذا كنت تريد أن تقف على مقولة المعتزلة تجد صعوبة بالغة، لأن كتب المعتزلة الموجودة الآن المنسوبة إلى رؤوسهم قليلة جدًا الموجود منها، قليلة للغاية بالنسبة لما أُلِّف، فإن مثل الجُبَّائي ألَّف مئتي كتاب، بعضها تفسير كامل للقرآن على طريقة المعتزلة الرَّدِيَّة هذه، أين هي؟ هلكت ولله الحمد والمِنَّة وتلفت، لأنها مبنية على باطل وعلى قبح وعلى شر، فالحاصل أنه ينبغي أن نعرف لماذا وقف علماء السُّنَّة ذلك الموقف الكبير، أن هذه المقولة مقولة خطرة جدًا أن يقال: إن القرآن - عياذًا بالله - مخلوق، لأن معنى ذلك أنه يكون من الله تعالى شيء مخلوق، وإذا كان من الله تعالى شيء مخلوق، فالله تعالى بيّن عدم استحقاق المعبودات سواه سبحانه - عدم استحقاقها للعبادة - لأنها مخلوقة، فإذا قيل: ومن الله تعالى شيء مخلوق أيضًا، ينقدح - يعني يُقدح - في أصل استحقاق الله تعالى للعبادة بل وفي ربوبيته سبحانه وتعالى، نسأل الله تعالى العافية من قالات السوء.

الكلام - صفة الكلام - أصله صفة ذاتية، أصل الكلام صفة ذاتية ملازمة لذات الله، أما آحاده فصفات فعلية، ما معنى آحاده؟ يعني كلّم اللهُ تعالى آدمَ في وقت، كلّم محمدًا صلّى الله عليه وسلّم في المعراج، كلّم موسى لمّا أوحى إليه، يُكلم أهلَ الجنة، إذا تكلم الله عزّ وجلّ بكلام في وقت دون وقت فهذا صفة فعلية، أما أصل صفة الكلام فهذا صفة ذاتية.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(٣).

.....

(١) الأنعام: ١٥٥.
(٢) الحشر: ٢١.
(٣) النحل: ١٠١ - ١٠٣.

المقصود بهذه الآيات الدلالة على أن القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، وأنه كلامه سبحانه لا كلام غيره، وأن مهمة جبريل هي مجرد البلاغ، وأنه سمع كلام الله تعالى فكان أمينًا عليه حتى أوصله إلى الأمين الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، ومحمد صلّى الله عليه وسلّم بلغ جميع ما أنزل إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(١)، فبلغ كلام ربه الذي نزل به جبريل عليه الصّلاة والسّلام الأمين من عند الله تعالى.

والكلام - كما قلنا - بلفظه وبمعناه من الله سبحانه وتعالى، يأتينا إن شاء الله أيضًا تفصيل للكلام لاحقًا بعون الله تعالى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٥).

.....

ذكر رحمه الله تعالى ما يتعلق بالرؤية، مما يثبته أهل السُّنَّة ويتفقون عليه إثبات رؤية المؤمنين لربهم تعالى، والآيات في هذا جلية جدًا، ﴿وُجُوهٌ﴾ والوجوه هي اتجاه النظر ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾(٦) بالضاد أخت الصاد من النضارة والبهاء والحسن، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٧) بالظاء أخت الطاء من النظر، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(٨)، ثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما رواه مسلم «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله»، وكما قلنا قبل قليل أيها الأخوة القرآن فسَّر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم منه آيات،

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) القيامة: ٢٢، ٢٣.
(٣) المطففين: ٢٤.
(٤) يونس: ٢٦.
(٥) ق: ٣٥.
(٦) القيامة: ٢٢.
(٧) القيامة: ٢٣.
(٨) يونس: ٢٦.

فإذا فسره النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أغنانا عن تفسير كل أحد، ولهذا هذه التفاسير التي أتت لاحقًا من تفاسير المعتزلة وغيرهم تخالف تفسير النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الثابت الصحيح في صحيح مسلم حيث فسّر الزيادة بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ، فإذا جاءت المعتزلة وقالت: لا، الزيادة المقصود غير النظر! أيعقل أن يُترك تفسيرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتفسير عَمرو بن عبيد ولتفسير واصل بن عطاء ولتفسير الزمخشري وعبد الجبار وأمثالهم من هؤلاء المبتدعة الضلال؟ تفسير النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مروي بالسند الصحيح في مسلم، فالرؤية مما يثبتها أهل السُّنَّة، وأنه سبحانه وبحمده مما أعدَّ كرامةً لأوليائه وهو أجلُّ وأعلى وأعظم الكرامات في الجنة أن ينظروا إلى رب العالمين سبحانه وتعالى الذين عبدوه على الغيب سبحانه، فأشوق وأعظم وألذّ نعيم أن يروا هذا الذي عبدوه سبحانه وبحمده وأخلصوا له في السِّرِّ وفي العلانية وأنفقوا أوقاتهم وأعمارهم في سبيل رضاه، فيدخلون الجنة فينظرون إليه سبحانه وبحمده، هذا أعلى نعيم أهل الجنة، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «أسألك لذّة النظر إلى وجهك»، ولهذا إذا جاء وقت النظر إليه سبحانه وتعالى في الجنة ذهلَ أهلُ الجنة عن كل نعيم هم فيه وأقبلوا إلى النظر إلى الكريم المنَّان.

نبدأ إن شاء الله تعالى لاحقًا في الكلام على أدلة السُّنَّة إن شاء الله تعالى، نتحدث عنها في الغد وبقية الكتاب إن شاء الله في اليوم الذي يليه.

أسئلة

- الأخ يسأل يقول: لَبَّيْتُ بالحج في العام السابق دون لبس ثياب الإحرام؛ فماذا يلزمني الآن؟

أولًا: لاحظ أمرًا مهمًا جدًا، إذا كان هذا ما طرأ عليك إلا بعد انتهاء الحج فاتركه لأن هذا من الوسوسة، لكن ما طرأت المسألة إلا لاحقًا، أما إذا كنت تقول: أنا متذكر في أثنائها؛ فيقال: الحج يكون صحيحًا لكن تكون تلبست بمحظور من محظورات الإحرام، لكن انتبه إذا كان هذا الخاطر ما أتاك إلا بعدما انتهى الحج، ثم لَمَّا أتيت من شهر أو شهرين قلت: الظاهر أني كنت كذا، هذا من الشيطان، قال أهل العلم: - عندنا قاعدة - إذا انتهت العبادة بيقين، متأكد أنك صليت، متأكد أنك توضأت، ثم لما مضيت قلتَ: يمكن أني تركت ركعة، يمكن أني ما مسحت رأسي، اترك هذا لأن العبادة انتهت بيقين، فيكون هذا من الوساوس.

- يقول: إن من استدلوا على خلق القرآن - عياذًا بالله - استدلوا بقوله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

(١) الأنعام: ١٠٢.

هذا من عجائب استدلالاتهم، الله بأسمائه وبصفته سبحانه وتعالى، لهذا يجوز أن تحلف باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته فتقول: وعزّة الله، فالله عزّ وجلّ إذا قلنا الله بذاته وأسمائه وصفاته هو خالق كل شيء سبحانه، والعجيب في المعتزلة الذين يقولون هذا يستدلون بهذا على أن القرآن مخلوق أنهم يقولون: إن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد مع أن أفعال العباد داخلة في قوله ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، فلو كانوا صادقين في الاستدلال لاستدلوا بها مطلقًا، لكن يقولون: أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يقولون: العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، فلو كانوا صادقين في أن الآية شاملة في زعمهم لاستدلوا بها على أفعال العباد، لكن إذا قلنا: الله خالق كل شيء؛ فالله عزّ وجلّ خالق كل شيء مخلوق، والله تعالى يقول: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١)، فالله تعالى بأسمائه وصفاته هو الخالق، وما سواه تعالى هو المخلوق فهو خالق كل شيء مخلوق.

- يسأل عن صلاة الجنازة إذا رُئِيت؟

من أهل العلم من يرى أن حديثها ثابت، الحديث ثابت، من أهل العلم من يرى أن حكمها باق، ومنهم من يرى أنه منسوخ، وأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قام ثم قعد، ومنهم من يقول: إنه يُقام مطلقًا؛ حتى لو كانت الجنازة لغير مسلم لا إكرامًا له ولكن لأجل الموت كما في الحديث «إن في الموت لفزعًا».

- يتكلم عن موضوع الأقيسة وذكرناه.

- وكذلك الإلحاد في الأسماء والصفات ذكرناه في الأمس.

- يقول: مَنْ وضع هذه العناوين في هذه العقيدة؛ هل هو من صنيع شيخ الإسلام؟

لا أظن، أظن من الشراح.

والله تعالى أعلم، وصلّى الله على محمد وسلّم.

(١) النحل: ١٧.

الِاسْتِدْلَالُ عَلَى إِثْبَاتِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ مِنَ السُّنَّةِ

الحمد لله والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المسلمين

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ، ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم، فَالسُّنَّة تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عزّ وجلّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزْلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؛ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ- وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ -؛ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَتَقُولُ: قَط قَط». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «يَقُولُ تَعَالَى: يَا آدَمَ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ».

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فَيَبْرَأُ». حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». حَدِيْثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. أَنْتَ الْأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

.....

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تكلم رحمه الله هنا في نصوص السُّنَّة بعد أن تكلم في نصوص القرآن، نصوص القرآن أشهر وأوضح لأن القرآن يقرؤه المسلمون، ونصوص السُّنَّة يحيط بها في الغالب طالب العلم الذي يلتمسها ويعرف مظانها ويدري بصحيحها من ضعيفها، فبدأ رحمه الله تعالى في ذكر هذا في نصوص السُّنَّة، نصوص السُّنَّة لا شك أن أحاديث الصفات فيها يصعب جدًا أن تُحصى، كثيرة للغاية، حتى إن الصفة الواحدة تجد فيها من الأحاديث الثابتة الصحيحة تجد شيئًا كثيرًا من الأحاديث والصفات من حديث ورودها من جهة النصوص، تارة تكون واردة من طريق القرآن والسُّنَّة معًا، كالاستواء والعلم والسمع والبصر، وتارة تنفرد السُّنَّة بشيء لم يرد في القرآن كالنزول إلى السماء الدنيا فإن هذا ورد في السُّنَّة ولم يرد في القرآن، والسُّنَّة بإجماع أهل العلم

مصدر إذا صحت السُّنَّة عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو وَرَدَ الحديث بسند حسن فإن الواجبَ الأخذُ به في مسائل الاعتقاد وفي مسائل الأحكام معًا، ولم يكن هناك تفريق بتاتًا بين مسائل الاعتقاد فيقال: إنها لا بد أن تكون أحاديثها متواترة بخلاف أحاديث الأحكام! فإن هذه بدعة ضالّة لا تُعرفُ بتاتًا في سلف الأُمَّة، وإذا أردت الدليل على هذا فانظر في الكتاب العظيم الذي صنَّفه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى - كتاب الرسالة -، فإنه من أوائل من تكلم فيها بكلام نفيس، فمسائل الاعتقاد ومسائل الأحكام إذا ثبتت فيها السُّنَّة؛ فسواء كانت السُّنَّة متواترة أو غير متواترة فإن الواجب قَبولُها، ويدل على هذا أولًا فعل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان يرسل صلوات الله وسلامه عليه كتبًا إلى ملوك الآفاق يرسل بالكتاب رجلًا واحدًا، ما الذي في الكتاب؟ في الكتاب الاعتقاد، «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، أسلم تسلم، أسلم؛ فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين»، ما الذي في الخطاب؟ الذي في الخطاب أنه رسول الله، وكونه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا أمر عقدي لا شك فيه، وهكذا كتب إلى المقوقس وكتب إلى النجاشي وكتب عليه الصّلاة والسّلام إلى كسرى، يحمل الكتاب رجل واحد من أصحابه عليه الصّلاة والسّلام، ويدلُّكَ على أن هذا هو المعروف المعهود زمن الصحابة رضي الله عنهم أمرُ القبلة، فإن القبلة أمر عقدي، كون القبلة إلى الكعبة هذا أمر اعتقادي، لو أن أحدًا قال: إن القبلة إلى غير الكعبة؛ فإنه بإجماع أهل العلم يكفر، لو قال: القبلة إلى غير الكعبة يكفر بلا شك بالإجماع، كان الصحابة رضي الله عنهم -كما هو معلوم- كان الإسلام أول ما نزل كان الاستقبال لبيت المقدس في مكة، وكذلك الحال بقي أشهرًا في المدينة، لمّا مضى نحو من ستة عشر شهرًا في المدينة حوّل اللهُ تعالى القبلةَ من بيت المقدس إلى الكعبة، فصلّى رجل من الأنصار رضي الله عنهم مع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد غُيِّرت القبلة إلى الكعبة، قبلة أهل المدينة الآن جهة الجنوب، ومعنى ذلك أنهم حين كانوا يستقبلون بيت المقدس أنهم كانوا يتجهون جهة الشمال، وصلّى هذا الصحابي الجليل مع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأتى مسجد قُباء، وإذا بالناس يصلون إلى جهة بيت المقدس؛ فقال: أشهد وصليت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الكعبة يعني الآن، اليوم؛ غُيِّرت القبلة، ماذا فعل الصحابة هؤلاء؟ الإمام والمأمومون ما قالوا: خبر واحد، ما يثبت! لأن الواحد ثقة، فتحوّل المأمومون مكان الإمام، وتحوّل الإمام مكان المأمومين، لأن الإمام متجه جهة الشمال وهم خلفه، فتحول الإمام في نفس الصلاة، ما أكملوها، واتجه إلى جهة الجنوب جهة الكعبة

واتجهوا هم وصاروا مكان الإمام، مسألة الكعبة لا شك الاتجاه إلى القبلة مسألة عقدية، لكن لما ثبت بطريق الواحد الثقة أن القبلة حوّلت قَبِلُوا هذا رضي الله عنهم، هذا هو المعروف حتى جاءت بدعة الاعتزال والضلال وقالوا: إن الأحاديث لا تُقبل في مسائل الاعتقاد إلا إذا كانت متواترة، هذا بدعة صلعاء لا تعرف بتاتًا، فإذا كانت متواترة تقبلونها؟ يقولون: إن وافقت قواعدَنا قبلناها وإلا أوّلناها كما نؤول نصوص القرآن، إذا ما الفائدة من كونكم تتحدثون عن كونها متواترة أو آحاد، ما الفائدة؟ الفائدة في كون الحديث متواترًا أو آحادًا هو من ناحية إسنادية، أن يقال هو ورد بطريق متواتر، معنى ذلك أنه مشتهر ومنتشر، وكثير الانتشار في الأُمَّة، فتجده في الغالب في الأمصار كلها، في العراق، في الشام، في مصر، في الحجاز، تجد أنه منتشر لأنه متواتر، يرويه مثلًا من الصحابة ثلاثون كأحاديث الرؤية، يرويها نحوٌ من ثلاثين صحابيًا، نعم لا شك أنها متواترة، وهكذا أحاديث الشفاعة في أحاديث معروفة، فنقول هذه متواترة معناها أنها مشتهرة، فإذا جاء حديث واحد يرويه سيد الصحابة رضي الله عنهم أبو بكر، لم يثبت إلا من طريق أبي بكر، ما نتردد فيه، ثابت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأَنْعِم وأَكْرِم براويه رضي الله عنه وأرضاه، فكونه يروى بطريق واحد أو بعدة طرق، ويكون هذا الطريق الواحد ثابتًا لا شك أنه يقبل، والتفريق في القبول بين الآحاد والمتواتر هذه بدعة ولم يكن عليها علماء الإسلام حتى نشأت الضلالات وكان من ضمن ما نشأ من بدع المتكلمين هذا التفريق.

يقول رحمه الله تعالى: ثم في سُنَّة رسول صلّى الله عليه وسلّم يعني من النصوص التي وردت بالصفات كما ورد بها القرآن، فالسُّنَّة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتُعَبِّرُ عنه، السُّنَّة مع القرآن على ثلاثة أنحاء: تارة تفسر القرآن، كما سيأتينا إن شاء الله تعالى في أحاديث الرؤية حين قال عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(١)، قال: «الزيادة النظر إلى وجه الله»، هذا تفسير، تفسير منه عليه الصّلاة والسّلام للقرآن، وتبيِّنُهُ، يكون الأمر في القرآن في بعض الأحيان مجملًا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(٢)، إذا أردت أن تطيع الله بإقامة الصلاة من خلال آيات القرآن لا تستطيع، القرآن ذكر اللهُ فيه الركوعَ والسجودَ، ذكر الله فيه استقبال القبلة، ذكر الله إجمالًا الصلوات ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا

(١) يونس: ٢٦.
(٢) البقرة: ٤٣.

مِنَ اللَّيْلِ﴾(١)، لكن تحديد تفاصيل الصّلاة من كون الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات والفجر اثنتين والمغرب ثلاثًا، أين نجد هذا في القرآن؟ وهكذا تفاصيل الزكاة، أمر الله تعالى بالزكاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(٢)، هل الزكاة في كل مال؟ وهل الزكاة تجب في كل وقت؟ فتأتي السُّنَّةُ لتبين أن الزكاة إنما تكون فيما بلغ النصاب، وأن الزكاة لا تجب إلا في المال الذي حال عليه الحول، وأن نصاب الإبل كذا وأن نصاب الأغنام كذا وأن نصاب البقر كذا وما لم يبلغ النصاب، وكذلك المال، وما لم يبلغ النصاب فإنه لا زكاة فيه، ولا بد أن يحول عليه الحول، كل هذه التفاصيل لا توجد إلا في السُّنَّة، فالسُّنَّة تُبين ما أُجمل في القرآن، والسُّنَّة أيضًا، هذا الأمر الثالث تزيد أحكامًا لأن السُّنَّة وحي، كما قال حسان بن عطية رحمه الله: (كان جبريل ينزل بالسُّنَّة على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما ينزل بالقرآن)، الله تعالى يقول عن رسول صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٣)، عليه الصّلاة والسّلام، فهو يُوحى إليه صلوات الله وسلامه عليه، سواء فيما أخبر أو فيما نهى أو في ما أمر أن يُتعبد لله به، ما يتكلم من قِبَلِ نفسه عليه الصّلاة والسّلام، فمن ذلك أنه عليه الصّلاة والسّلام نهى عن الجمع بين المرأة وعمتها، إذا تأملت المُحَرَّمَات الواردة في سورة النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾(٤) الآية، وإذا بها لم يذكر فيها أمرُ الجمع بين المرأة وعمتها، فيقال: لا يجوز الجمع بين المرأة وعمتها بالسُّنَّة، ولا يجوز الجمع بين المرأة وأختها بالقرآن، فإن الله نهى عن الجمع بين الأختين، وفي السُّنَّة جاءت السُّنَّة بالزيادة، الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها، كل هذا يقبل، سواء وردنا من القرآن أو من السُّنَّة كله وحي من عند الله عزّ وجلّ، المهم أن تَثْبُتَ السُّنَّةُ وأن لا يقع الإنسان في الأحاديث الموضوعة والمكذوبة عليه - عليه الصّلاة والسّلام - والأحاديث التي لا تثبت عنه، وهذا يحتاج فيه إلى ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى.

يقول: فالسُّنَّة تفسر القرآن وتبيّنه وتدل عليه وتُعَبِّرُ عنه، وما وصف الرسول صلّى الله عليه وسلّم به ربه من الأحاديث الصحاح، الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علّة، ففيه خمسة أشياء معروفة عندكم إن شاء الله؛ لأنها معروفة عند طلبة العلم عادة،

(١) هود: ١١٤.
(٢) البقرة: ٤٣.
(٣) النجم: ٣، ٤.
(٤) النساء: ٢٣.

وكذلك الحديث الحسن، أيضا الحديث الحسن الثابت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكثيرًا ما يطلق أن الحديث صح عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تارة يكون صحيحًا بالتعريف السابق، وتارة يكون ثابتًا عنه عليه الصّلاة والسّلام بطريق حسن، فسواء ثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام بطريق صحيح أو حسن فإنه يُقْبَل، لهذا قال الشيخ رحمه الله: التي تلقاها أهل المعرفة، من هم أهل المعرفة؟ أهل المعرفة هم أهل التخصص وأهل الشأن وهم المُحَدِّثُون الذين يعرفون صحيح الحديث من ضعيفه؛ فإن المردَّ إليهم في هذا، فإذا قالوا: إن الحديث صحيح لأن رواته عدول ثقات فإنه يقبل الحديث لأنهم رحمة الله عليهم سبروا هذه الأحاديث وسبروا الرواة وسخرهم الله عزّ وجلّ تسخيرًا لهذا الأمر الذي هو من مزايا هذه الأُمَّة، من مزايا أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم أمر الإسناد ومعرفة الرجال، لهذا فالإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا تلقى الحديثَ أهلُ الشأن وأهل الاختصاص - وهم المُحَدِّثُون - بالقبول؛ فإن الحديث يثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام، ولهذا قال وجب الإيمان بها كذلك، يعني إذا وردت، وبه تعرف الآن قاعدة: أنه إذا وردنا صفة عن الله عزّ وجلّ فالله أعلم بنفسه، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(١)، فإذا وردنا حديثٌ عنه عليه الصّلاة والسّلام ثابت بطريق حسن أو بطريق صحيح؛ فإنّا نقول: لا أحد بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أعلم الناس بالله عزّ وجلّ هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم به» عليه الصّلاة والسّلام، ولا شك في هذا، ما يمكن أن يوجد أحد أعلم بالله من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، اصطفاه الله تعالى ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢)، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٣)، أين عِلْمُ مَنْ ينزل عليه الوحي مِنْ عِلْمِ غيره ممن يتعلم العلم، لا مقارنة، ولهذا إذا أخبرنا أعلم الناس بربه عليه الصّلاة والسّلام بصفة من صفات الله قَبِلْنَاها على الرأس والعين ولا نتردد في هذا بتاتًا، حتى إن استوحش منها كالمعتزلة والجهمية وأضرابهم وقالوا: كيف تكون هذه الصفة؟ هذا لا يصلح، هذا لا يليق بالله، نقول: أما من عنده الثقة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنه لا ينطق عن الهوى عليه الصّلاة والسّلام فإنه يَقْبَلُ عن

(١) البقرة: ١٤٠.
(٢) الأنعام: ١٢٤.
(٣) النساء: ١١٣.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما أخبر النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، أمر الصفات وأمر الوحي جِدٌّ ليس بالهزل، وليس بأمر مزاح أمر عظيم أمر جِدّ، ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(١)، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(٢)، فليس هو ألعوبة، الموضوع موضوع يخبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأحاديث ثم يأتينا المعتزلة والجهمية يقولون: يقصد بها كذا، ويغيِّرونها عن معناها ويحرفونها، والأُمَّة قبلهم من الصحابة والتابعين قد قَبِلَت هذه النصوص، هذا تلاعب بالدين فتقرّ الصفات كما أخبر بها صلوات الله وسلام عليه عن ربه، فهو أعلم الناس وأنصح الأُمَّة للأمة عليه الصّلاة والسّلام وأفصح وأَبْيَن صلوات الله وسلامه عليه في منطقه وفي كلامه وجُمِعَ له الحديث واختُصِر له اختصارًا عليه الصّلاة والسّلام، فلا أحد أعلم بالله منه ولا أحد أنصح للأمة منه، ولا أحد أفصح وأبين منه صلوات الله وسلامه عليه؛ فيجب قبول أحاديثه عليه الصّلاة والسّلام، سواء في الصفات أو في الأحكام أو في أي باب، فهو عليه الصّلاة والسّلام إنما يخبر عن ما يوحى به إليه.

بدأ رحمه الله بذكر حديث النزول، وهو حديث معروف مشهور عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثبت عنه من عدة طرق صلوات الله وسلامه عليه، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر» يعني إذا بقي من الليل ثلثه، فإذا كان الليل من اثنتي عشرة ساعة، فإنه إذا بقي على الفجر أربع ساعات فإنه يكون وقت الثلث الأخير، وإذا كان الليل في الصيف قصيرًا كما هو الآن نحوًا من تسع ساعات؛ فإن الثلث الأخير من الليل يبدأ إذا بقي على الفجر ثلاث ساعات، وتعرف الثلث الأخير من الثلث الأول من الثلث الثاني تعرف نصف الليل من خلال معرفة وقت غروب الشمس ووقت طلوع الفجر، فإذا كانت الشمس تغرب - كما في الشتاء - الساعة الخامسة وقليل؛ ويؤذن الفجر الساعة الخامسة معنى ذلك أن الليل اثنتا عشرة ساعة، فأضف أربع ساعات من الخامسة إلى التاسعة هذا الثلث الأول، ثم أضف أربع ساعات أخرى تكون الساعة الواحدة، يكون الثلث الثاني بدأ من التاسعة إلى الواحدة، فيبدأ الثلث الآخر من الواحدة إلى الثانية والثانية إلى الثالثة والثالثة إلى الرابعة والرابعة إلى الخامسة يكون ثلث الليل الآخر وهكذا، ولهذا قد يطول الثلث الأخير وقد يقصر بحسب الصيف والشتاء.

---

(١) مريم: ١٢.
(٢) الطارق: ١٣، ١٤.

ينزل رب العالمين وهو الغني الحميد الكريم الجواد الذي هو الغني عن عباده نزولًا يليق به لا تُضْرَبُ له الأمثال ولا يُسأل عن كيفيته ولا تورد عليه الإيرادات ولا يقال ما الذي يلزم؟ ولا يقال ما الذي يترتب؟ لأن هذا خوض في الكيفية، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا، السماء الدنيا هي القريبة هذه، السماوات سبع، ينزل ربنا سبحانه نزولًا يليق بجلاله وعظمته نزولًا يليق به إلى السماء الدنيا فيقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» في اللفظ الآخر قال صلّى الله عليه وسلّم: «وذلك كل ليلة إلى الفجر»، فهذا الموضوع موضوع عظيم جدًا فيه إثبات، هذا النزول الإلهي على ما يليق بالله عزّ وجلّ، وفيه حث كل مؤمن على أن يستفيد من هذا الوقت وأن ينتفع من نزول الرب سبحانه وتعالى، فإن هذا الوقت من أعظم الأوقات إن لم يكن أعظمها حين ينزل رب العالمين إلى السماء الدنيا في هذا الثلث العظيم فيقول ما تسمع: «من يستغفرني فأغفر له؟ من يدعوني فأستجيب له؟»، فمن شؤم البدع والضلالات أن الخوض في الصفات على غير طريقة السلف يُنسي الناسَ الفائدة العظيمة من الصفات، ما الفائدة العظيمة التي نستفيدها الآن؟ مادام رب العالمين الغني الحميد المالك للملوك كلهم الذي عندهم سبحانه وتعالى تصريف كل شيء ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل؛ فانتهز الفرصة، انتهز الفرصة لتصلي في هذا الوقت، واحذر يا طالب العلم أن تكون من اللاعبين اللاهين الغافلين الذين يمضون الليالي مضيعين لأوقاتهم، فيا ضيعة الأعمال تمضي سبهللة، يسهرون إلى آخر الليل في كلام ومزاح، هذا إن سَلِمَ من المحرمات كالنظر إلى صور النساء في الشاشات أو المحرمات الأخرى، ومنها فاكهة السفهاء وهي الغيبة والسخرية بالمسلمين، والبقاء على النظر إلى هذه الشاشات وما فيها من المحرمات وما يُسمع فيها من الأغاني الموسيقى ونحوها ورب العالمين الغني الحميد يقول: من يستغفرني ؟ وهؤلاء يزيدون في الذنوب والمعاصي، حتى لو سلمت المجالس من هذا فهذا من التفريط العظيم، هذا السهر إلى آخر الليل ويأتي هذا الوقت الشريف العظيم والناس في هذر وضحك، فيقول بعضهم: أنا الحمد لا أنظر إلى حرام ولا أسمع حرامًا، نحن نتكلم بكلام ليس فيه غيبة لأحد من المسلمين، ما الذي أضعتم؟ أضعتم أعماركم، وقت عظيم شريف يجب أن ترتفع الهمم لاستثماره، نسأل الله أن لا يجعلنا وإياكم من المحرومين، وقت عظيم ينبغي الحرص على مثل هذه الفرص العظيمة، لو أن مَلِكًا من ملوك الدنيا المساكين قيل إنه سيأتي إلى موضع من المواضع وسيعطي الناس مَنْ يأتي في ذلك الموضع سيعطون كذا وكذا لرأيت الناس كأنها قطارات وهو عبد من عباد

الله سبحانه وتعالى، هؤلاء الملوك عبيد من عبيد الله سبحانه، لا يخرجون عن ملكه، يولدون ويمرضون ويموتون ويدفنون ويخلفهم غيرهم، ملك الملوك سبحانه يقول لك: من يدعوني فاستجيب له؟ عندك أمراض وعندك ذرية وعندك ديون وعندك هموم وعندك غموم؛ استعن برب العالمين سبحانه وتعالى، فإن الله تعالى يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ فهذه فوائد من فوائد الإقرار بالصفات، لكن إذا قيل إن رب العالمين لا ينزل وإن الحديث هذا يُتَأَوَّل، فليست فائدة، ولهذا نفاة الصفات أقسى الناس قلبًا، الذي ينكر الصفات، لأن أمر الصفات أمرها عظيم جدًا تخضع لها القلوب وتقشعر لها الأبدان، تعريف رب العالمين لنفسه، يُعرِّف رب العالمين بنفسه ويعرِّف به رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ فتخضع القلوب وتخشع وتحرص على ما فيه، مثل هذه الفرص العظيمة الحقيقية لاستثمار هذا الوقت ودعاء الله عزّ وجلّ، فإذا قيل: لا؛ لا ينزل، ما الفرق إذًا بين ثلث الليل الأول والثاني والثالث؟ وما الفرق بين وسط النهار وثلث الليل الآخر؟ لا فرق، فهذا من شؤم هذا التلاعب بهذه الصفات، فينزل سبحانه وبحمده ينزل إلى سماء الدنيا في هذا الوقت الشريف العظيم، وكما قلنا: لا تضرب له الأمثال، ولا يقال ينزل على كيفية كذا وكذا، عندك القاعدة: يُثْبَتُ لله تعالى الصفة ويُجْتَنَبُ الكلام في الكيفية.

ومن ذلك حديث «لله أشد فرحًا» مما يثبت لله تعالى الفرح، وفرح الله عزّ وجلّ على ما يليق به، وليس مثل فرحي وفرحك نحن المساكين الضعفاء، نحن نفرح فرح من؟ فرح الضعيف، فرح المتشوّف إلى شيء، أما الله تعالى ففرحه فرح الغني سبحانه، ولهذا توبة العبد - التوبة - مصلحة من؟ مصلحتك أنت ليس مصلحة الرب، لهذا قال الله تعالى في الحديث الصحيح القدسي «يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد؛ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»، الله عزّ وجلّ لن يتضرر ولن ينتفع بطاعتك، ومع ذلك فضل منه ومِنَّة عزّ وجلّ وكرم وإحسان وعظمة صفات أنه يفرح بتوبتك التي ستنتفع أنت بها مع أنه تعالى لا تضره معصية العاصي ولا تنفعه طاعة الطائع، فيفرح لا كفرحنا سبحانه، لأن فرحنا بالشيء فرح دائمًا فرح المتشوف إلى أمر يحبه لحاجته إليه، لهذا أنت إذا درست ونجحت فلأنك لا تستطيع أن تنجح لزامًا وتُقَدِّرَ هذا تقديرًا، تبذل أسبابًا وتحاول حتى يتحقق لك النجاح وتفرح، مشيئة ابن آدم المسكين الضعيف، أما الله ففرحه ليس كفرحك، بل هو فرح الغني عنك وعن عملك وعن

طاعتك سبحانه وبحمده، فيفرح فرحًا يليق بجلاله وعظمته، وعندنا القاعدة: الصفة تضاف إلى الموصوف، فبحسب الموصوف، فإذا أضيفت الصفة إلى العبد فهي صفة ضعيف والصفة نفسها ضعيفة، أما إذا كانت صفة الرب سبحانه المضافة إلى علام الغيوب الغني الحميد سبحانه وبحمده فهي صفة لا يمكن أن تقاس ولا يمكن أن تقارن بصفة المخلوق سواء أكانت فرحًا أو كانت نزولًا أو كانت استواءً أو سمعًا أو بصرًا أو كانت أي شيء سوى ذلك من هذه الصفات، «الله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته»، الحديث في بقيّته أن هذا العبد أضل راحلته بأرض فلاة وعليه طعامه وعليها متاعه فبينا هو كذلك قد أَيِسَ منها وأتى تحت شجرة قال: أموت تحت هذه الشجرة؛ وإذا براحلته على رأسه واقفة، فرحة العبد عظيمة جدًا، يقول الرب - في مثل هذه الحال - يقول: الرب سبحانه أعظم فرحًا من هذا، لأن الله دائمًا في الصفات له أعظم الصفات، فالمغفرة واسع المغفرة، الرحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١)، فصفات الله أعظم وأجل وأكبر سبحانه من صفات المخلوقين.

ومن ذلك صفة الضحك، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة»، جاء بيان هذا في اللفظ الآخر أن أحد هذين الرجلين كافرٌ لقي مسلمًا في قتال فقتل الكافرُ المسلمَ؛ فدخل المسلمُ الجنةَ شهيدًا، ثم مَنَّ الله تعالى على الكافر هذا فأسلم فقُتِل أيضًا في سبيل الله عزّ وجلّ فصار شهيدًا؛ فاجتمع القاتل والمقتول في الجنة، فيضحك الرب إلى هذين الرجلين الذين يعلم علام الغيوب خبرهما وحالهما، القاتل حين قتل كان كافرًا وكان على أشد ما يكون من البغضاء لهذا الذي قتله ثم هدى الله هذا القاتل فأسلم وبذل نفسه في سبيل الله حتى قُتِلَ فلحق بأخيه بعد أن أسلم وصار شهيدًا مثله فيضحك الرب سبحانه لأنه يعلم خبرهما سبحانه وأن أحدهما قَتل كافرًا ثم قُتِل مسلمًا، فاجتمعا به بإذن الله تعالى في الجنة، فيضحك الله عزّ وجلّ إليهما، والضحك أيضًا فيه أكثر من حديث، والفرح فيه أكثر من حديث، كلها وردت بأحاديث صحيحة ثابتة عنه عليه الصّلاة والسّلام، وردت فيها أحاديث صحيحة عنه عليه الصّلاة والسّلام مما يدل على ثبوت هذه الصفات.

ومن ذلك العجب، «عجب ربنا من قنوط عباده وقُرْبِ غِيَرِه»، العجب أيضًا في الرب سبحانه وتعالى ليس كالعجب في المخلوق، أنت تعجب من أشياء كثيرة لأنك تجهلها، تجهلها ثم تراها فتتعجب منها، تسمع

(١) الأعراف: ١٥٦.

بأشياء ثم إذا رأيتها تعجبت منها؛ لنقص علمك، هكذا الخلق، أما عجب الرب سبحانه فليس ناشئًا - حاشاه تعالى - من مثل هذا، الرب عزّ وجلّ له العلم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فليس عجب الخالق مثل عجب المخلوق، فعجب الرب عزّ وجلّ على ما يليق به، وعجب المخلوق على ما يليق به، فليس العجب هنا ناشئًا عن جهل حاشا لله تعالى، لأن كثيرًا من عجبنا ينشأ من مفاجأتنا بالشيء، نعجب من هذا الأمر، نأتي ونرى أمرًا من الأمور فتتعجب منه لنقص علمنا وقلة علمنا، فإذا رأيناه عيانًا تَعَجَّبْنا، أما الرب سبحانه تعالى فليس عجبه عجب من عزب عنه الشيء ثم عَلِمَهُ! بل هو عجب يليق بجلاله وعظمته، «عجب ربنا من قنوط عباده» قنوط العباد شدة اليأس، يئسوا من أمر من الأمور «وقُرْبِ غِيَرِه» بكسر الغين وفتح الياء، أي وقُرْبِ تغييره سبحانه وبحمده، «ينظر إليكم أزْلين» الأَزْل هو الضيق، «قنطين» فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب سبحانه وبحمده، الرب سبحانه يعلم الغيب، ويعلم سبحانه أن فرج هؤلاء العباد قريب، والعباد لأنهم لا يعلمون الغيب وقعوا في اليأس والقنوط، فيضحك علّام الغيوب لأنه يعلم أن فرجهم سيأتي قريبًا جدًا، ولو كان العباد يعلمون أن الفرَج مثلًا هو آخر هذا النهار أو الفرَج سيكون غدًا ما قنطوا، لكنهم قنطوا لأنهم ظنوا أن هذا هو الحال الذي سيستمرون عليه، الرب يعلم أنهم لجهلهم بالغيب لا يدرون أن فرجهم قريب؛ فيضحك سبحانه وتعالى لأنه عزَّ اسمُه يعلم أن الفرَج قريب، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك، أيضًا هذا الحديث دل على الضحك ودل على العجب، يعلم أن فرجكم قريب.

وذكر بعده حديث «لا تزال جهنم يُلقى فيها» نسأل الله العافية والسلامة، يعني يُلقى فيها أهلها، يُرمون رميًا، نسأل الله العافية والسلامة، وهي تقول: (هل من مزيد)، وقد وعدت بالملأ، نسأل الله العافية والسلامة، كما في الحديث «احْتَجَّتِ الجنةُ والنارُ» وفي آخره «ولكليكما عليَّ ملؤها»، فالله تعالى سيملأ الجنة وسيملأ النار، فإذا ألقي فيها؛ تقول: هل من مزيد، ثم يلقى فيها - نسأل الله العافية ونعوذ بالله أن نكون منهم - تقول: هل من مزيد، الله تعالى وعدها أن تمتلئ، ووعد الله لا يتخلف، فيضع رب العِزَّة، قوله: رب العِزَّة، العِزَّة صفة من صفاته تعالى، فرب العِزَّة أي صاحب العِزَّة، الرب يطلق على الصاحب، رب البيت صاحب البيت، رب العِزَّة هو ذو العِزَّة سبحانه وتعالى، «حتى يضع رب العِزَّة فيها رجلَه» سبحانه وفي رواية «عليها قدمه» فينزوي بعضها على بعض، الله أكبر، فينزوي بعضها على بعض أي تجتمع أطرافها، لأن

الرب سبحانه قد وضع فيها قدمَه العظيمة عزَّ اسمه وتقدس وتعالى، فتقول: قط، قط، قـط معناهـا حـسبي يكفيني، وأيضًا مما يأتي بمعنى حسبي ويكفيني قد قد، فإنك إذا أردت من أحد أن يتوقف عن أمر تقول لـه: قد قد، يعني يكفي حسبك، فيملؤها عزَّ اسمُه، فينزوي بعضها على بعض، فتقول: قط قط يكفيني، فتمتلـئ - نسأل الله العفو والعافية -، وتطلب الكفَّ.

ومن ذلك حديث النداء، يقول الله تعالى: «يا آدم» واضح أنه فيه نـداء، وأنـه يكـون بحـرف وصـوت، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي، هذا دليل على أن كلام الله تعالى منه ما هو نداء، كما قال تعـالى: ﴿وَنَادَيْنَـاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾(١)، ومنه ما يكون نجاء ﴿وقَرَّبنَاه نَجِيًا﴾(٢)، وقلنا: إن النداء يكون الكـلام مـن بُعْد، والنجاء يكون الكلام من قُرْب، فيقـول: «يـا آدم، فيقـول: لبيـك وسـعديك» فينـادي - أي الـرب - بصوت يسمعه - في حديث آخر يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ، لأن صوت الله تعالى لا يُقارن بصوت المخلوق ولا يُقاس عليه، تقدم بيانُ مَنْ بَعُدَ يسمع كما يسمع مَـنْ قَـرُبَ، وأن هـذا لأن وصـف الله تعـالى لا يقاس بوصف المخلوق، فينادي بصوت - هذا الشاهد - أن كلام الله تعالى بصوت، ولهذا سمع - كما قلنا - سمع موسى كلام الله لأنه بصوت، سمع الخطاب ورد الجواب عليه الصّلاة والسّلام، فينـادي بـصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار - نسأل الله العافية - يقول: مِنْ كم؟ فيقول: من كـل مئـة تـسعة وتسعون - نسأل الله العافية والسلامة -، لأن أهل النار كثير جدًا، ويدخل النار عياذًا بـالله تـسعة وتـسعون وينجو واحد.

ثم ذكر حديث «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه» هذا أيضًا فيه إثبـات الكـلام، وتقـدمت النـصوص الدالة على الكلام ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(٣)، وقوله عزّ وجلّ ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾(٤)، وفيـه دلالة على أن الله تعالى سيكلم كل واحد منا، ليس بينه وبينه ترجمان، ليس هناك من يترجم بـين الـرب وبـين عبده، المترجم هو من ينقل الكلام من لغة إلى لغة، بل سيكلم الله تعالى عباده جميعًا، ومن عظـيم صـفات الله سبحانه وبحمده أنه يكلم العباد جميعًا ولا يشغله سبحانه وبحمده تكليمُ هـذا عـن هـذا، مـرة أخـرى لأن

(١) مريم: ٥٢.
(٢) مريم: ٥٢.
(٣) النساء: ١٦٤.
(٤) التوبة: ٦.

وصف الله لا يقاس، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِل كيف يكلم اللهُ تعالى العبادَ وهم كثير مرّة واحدة، لأنه يكلمهم سبحانه وتعالى مرّة واحدة؟ قال: كما أنه يسمع دعاءهم جميعًا، العباد يرفعون الدعاء في وقت واحد مثل موقف عرفة على سبيل المثال يضم ملايين الناس وهكذا في أوقات الصلوات التي تكون متقاربة، وقد يكون في المسجد الواحد العدد الجمّ، وفي المسجد المقارب مثله والمساجد الأخرى فتكون صلاتهم متقاربة فيدعون الله عزّ وجلّ، ألوف بل ملايين تدعو الله عزّ وجلّ فلا يشتغل سبحانه وتعالى بدعاء هذا عن هذا، بل يحيط سبحانه بأدعيتهم جميعًا، فيجيب هذا ويؤخر دعاء هذا ويرد دعاء هذا لعلمه سبحانه وتعالى بدعاء كل واحد منهم بلغاتهم وباختلاف حاجاتهم سبحانه وبحمده، لهذا نقول ونقول دائمًا كما قال أهل السُّنَّة: ولا يقاس بخلقه، المخلوق لا يمكن أن يحيط، بل المخلوق يتبرّم ويسخط، إذا كلمه اثنان يغضب على الثاني، يقول: كيف تريدني أن أسمع منك وأنا أسمع من هذا، أنت الآن تشوش عليَّ، ما أستطيع أن أركّز مع الأول حتى تأتي وتكلمني أنت ثم يكلمني ثالث! أنا ما أستطيع أن أستوعب، هذا في المخلوق، أما في وصف الخالق سبحانه وتعالى فكما يسمع الملايين دفعة واحدة فإنه سبحانه يكلمهم دفعة واحدة ويحاسبهم ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١)، يحاسب الخلائق جميعًا سبحانه وتعالى مرة واحدة، ولا يشغله حساب هذا عن هذا، وهذا مما ينبغي أن يُعلم كما قلنا، عندنا القاعدة العظيمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٢)، لذا قلنا: الضلال والزندقة والكفر والبلاء يأتي من قياس الخالق على المخلوق، تقول: كيف؟ لا يمكن، لا يمكن أن نقيس، لا يمكن فيك وفيّ أنا وفي المخلوقين، أما في الخالق فلا تضرب لله تعالى الأمثال ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾(٣)، فكما أنه يسمع الدعاء من الملايين فإنه يحاسب الملايين ويكلم الملايين ولا يشغله سبحانه هذا عن هذا، فهذا ينجو بعد كلام الله وهذا يعاقب وهذا يُستر عليه وهذا قد يكون من أهل الأعراف فيُؤَجَّل لا يكون من أهل الجنة ولا من أهل النار، كل هؤلاء يحاسبون ولا يشغله سبحانه وتعالى شأن عن شأن، كما أنه يعلمهم، يعلم أن هذا عَمِلَ كذا وكذا، وهذا عَمِلَ كذا وكذا، وأن هذا استحق كذا وكذا، وأن هذا من أهل الجنة، وأن هذا من أهل النار، وأن هذا يعاقب، وأن هذا يكون من أهل الأعراف،

(١) الرعد: ٤١.
(٢) الشورى: ١١.
(٣) النحل: ٧٤.

فلا يشغله سبحانه وتعالى العلمُ بهذا العبد عن العلم بذلك العبد، ولا يشغله سبحانه وتعالى دعاء هذا العبد عن دعاء هذا العبد، ولا يشغله كلام هذا العبد عن كلام هذا العبد لأنه لا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى.

ثم ذكر ما يتعلق بالعلوّ لله عزّ وجلّ وتقدم الكلام عليه، ذَكَرَ في رقية المريض هذا الدعاء «ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء؛ اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا» الحوب هو الذنب، لكن إذا اجتمع الحوب والخطايا يكون الحوب للكبائر والخطايا للصغائر، وإذا أطلق الحوب فإنه يجمع الخطايا كلها سواء أكانت صغيرة أو كبيرة «أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك» الشاهد قوله «ربنا الله الذي في السماء»، وهكذا قوله صلّى الله عليه وسلّم كما قال الخارجي: «إنها قسمة ما أريد بها وجه الله» نسأل الله العافية والسلامة، ما أعجب الخوارج وأقل حياؤهم! يقول مقدمُ الخوارج الأول للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في لُعاعة دنيا لما قسم عليه الصّلاة والسّلام قال: «اتق الله يا محمد، اعدل؛ فإني لا أراك تعدل» فقال عليه الصّلاة والسّلام: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء» يعني أَمِنَنِي اللهُ عزّ وجلّ على وحيه ولا تأمنوني على هذا الحطام!! «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» هذا الشاهد، كقوله «ربنا الله الذي في السماء» وهكذا قوله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه»، أخبر عليه الصّلاة والسّلام بأن بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة خمسمئة سَنَة، وبين السماء الدنيا والتي تليها خمسمئة، وهكذا التي تليها، وبين السماء السابعة وبين البحر - الماء - الذي عليه العرش ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(١) مسيرة خمسمئة سَنَة، وبين الماء والعرش خمسمئة سَنَة، والله فوق العرش سبحانه وتعالى وهو يعلم ما أنتم عليه، يعني وهو سبحانه في عليائه العظيمة لا يعزب عنه شيء مما أنتم عليه حتى مما توسوس به الصدور، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾(٢)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾(٣)، فلا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه وتعالى فوق السماوات على عرشه مستو سبحانه، وهكذا قوله للجارية «أين الله؟» قالت: في السماء، الجارية هذه أراد معاوية بن الحكم رضي الله عنه أن يعتقها، فقال عليه الصّلاة والسّلام:

---

(١) هود: ٧.
(٢) ق: ١٦.
(٣) البقرة: ٢٣٥.

«ائتني بها» سألها سؤالان حتى يعرف هل هي مؤمنة لتعتق، قال: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» لأنها عرفت ربها وعرفت نبيّها عليه الصّلاة والسّلام، الشاهد «الله في السماء» فأقرَّها رسول الله عليه الصّلاة والسّلام على ذلك.

وذكر حديث «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت» معية الله عزّ وجلّ، فالله فوق السماوات سبحانه وتعالى وهو مع عباده لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقلنا: إن المَعِيَّة نوعان: معيّة عامة وهي معيّة إحاطة بالجميع من مسلم وكافر ورطب ويابس وما في السماوات وما في الأرض؛ فإن الله محيط به، والنوع الثاني المَعِيَّة الخاصة وهي التي تقتضي النصرة والتأييد، وهي خاصة بالمؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾(١)، وقوله عزّ وجلّ لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٢) إلى آخره مما تقدم ذكرُه، الشاهد قوله (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت) أن ترقب الله سبحانه، سواء كنت في بَرٍّ أو في بحر أو أغلقت على نفسك الباب أو خرجت خارج البلاد ولا يعرف بك أحد من أهل تلك البلاد؛ أن تعلم أن الله معك، وأنه إن غاب المخلوقون؛ فإن الرب عزّ وجلّ لا يغيب عنه شيء، فهذا أفضل الإيمان أن تراقب الله تعالى، أن تعلم أن الله معك حيثما كنت.

ثم ذكر حديث «إذا قام أحدكم إلى الصلاة؛ فلا يبصق قِبَل وجهه» يعني لا يجوز - عياذًا بالله - أن يتفل الإنسان وهو يصلي أمامه، فهذا محرم ولا يجوز، ولا عن يمينه، لأن عن يمينه ملكًا، ولكن عن يساره، يتفل عن يساره، وهذا قطعًا في المساجد في المواضع التي تكون مثلًا من الحصباء وإذا لم يتأذى بها أحد، فقد تكون من الحصباء ومن التراب كالمساجد القديمة فيتفل؛ فيمكن أن يدفنها في مثل هذا الحال، ولا يكون هذا في المساجد المفروشة، لأن المساجد المفروشة لا يتأتى فيها هذا، يبقى فيها هذا الأذى، ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه، في اللفظ الآخر أخبر عليه الصّلاة والسّلام قال: «أو ليقل هكذا، فأخذ صلّى الله عليه وسلّم طرف ثوبه وتفل فيه ودلكه»، المهم أن لا يتفل أمامه، لا يحل هذا، لِمَ؟ لأن الله قِبَل وجهه، إذا صلّى المصلي أقبل اللهُ تعالى عليه، فالله تعالى كما تقدم في نصوص القرآن وفي نصوص السُّنَّة وهو محل إجماع أهل السُّنَّة أن الله تعالى في السماء، ولكنه سبحانه وتعالى يُقْبل على المصلي سبحانه وبحمده إذا هو صلّى وهذا من

(١) النحل: ١٢٨.
(٢) طه: ٤٦.

فضل الصلاة وعظيم قدْرِها؛ فإن الله تعالى يُقْبل على المصلي، فإذا أقبل الله تعالى عليه فلا يحل ولا يجوز ولا يسوغ بتاتًا أن يتفل قِبَل وجهه، وليس معنى ذلك أن الله بين العبد وبين الجدار، لا، ليس هذا هو المراد، بل الله عزّ وجلّ في السماء ويقبل على عبده سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

ثم ذكر الحديث «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، مُنْزِل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرّ نفسي، ومن شر كل دابّة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء» لاحظ الآن تفسير السُّنَّة للقرآن كما قلنا، تقدم أن أفضل تفسير لا يمكن أن يكون أفضل من تفسير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أفضل التفاسير تفسير الرسول صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١)، هنا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مقام بيان هذه الأسماء، أنت الأول فليس قبلك شيء، ليس قبل الله بتاتًا أي شيء لأن له الأولية المطلقة، وأوليته تعالى ليست مسبوقة بعدم، لهذا أنكر أهل العلم أن يطلق القديم لأن القديم يكون مسبوقًا، كما قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾(٢)، آباؤنا الأقدمون قبلهم آباؤهم الأقدمون، وقبلهم أجدادنا الأقدمون، ولهذا لا يطلق على الله قديم، فيسمى سبحانه وتعالى بالأول، «أنت الأول» الأول بيَّنه النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «أنت الأول فليس قبلك شيء»، «وأنت الآخر فليس بعدك شيء» ليس بعد الله تعالى شيء، الله تعالى هو الباقي وحده، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٣)، فإذا أراد الله سبحانه وبحمده إنهاء هذه الدنيا مات كل الأحياء ولم يبق إلا هو، فصار هو الفرد كما كان أولًا صار هو الفرد سبحانه وتعالى آخرًا، فهو الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو الآخر فليس بعده سبحانه وتعالى شيء، ثم قال: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء» نص صريح جدًا في علو الله تعالى، الظهور معناه العلوّ كما في حديث «لا تزال طائفة من هذه الأُمَّة ظاهرين» أي أنهم يعلُون من سواهم، وقال تعالى في خبر يأجوج ومأجوج: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(٤)، فلم يستطيعوا أن يظهروه أي أن يعلوه ويرتفعوا عليه،

(١) النحل: ٤٤.
(٢) الشعراء: ٧٦.
(٣) الرحمن: ٢٦، ٢٧.
(٤) الكهف: ٩٧.

فالظاهر هو العالي الذي ليس فوقه شيء، أنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، من جهة الإحاطة، فإنه محيط بكل شيء سبحانه وتعالى، فصارت هذه الأسماء؛ الاسمان الأولان الأول والآخر يتعلقان بالزمان، والظاهر والباطن يتعلقان بالمكان، فالرب عزَّ اسمُه ليس قبله أحد وليس بعده أحد سبحانه وبحمده، وهكذا ليس فوقه أحد وليس دونه أحد سبحانه جلَّ في عُلَاه، «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، ثم ذكر هذا الدعاء، بعد هذا التعظيم العظيم لله قال: «اقض عني الدين» لأمر الدَّيْن وثِقَلِه وشدته، فسأل الله هذه الأسئلة العظيمة بهذه الأسماء وبهذه الصفات سائلًا الله تعالى أن يقضي عنه الدين وأن يغنيه من الفقر، وهذا يدل على شدة الدَّيْن وعلى أن هذا التوسل العظيم بهذه الأسماء والصفات يسوغ ولا بأس به وحسن أن تطلب به أمرًا دنيويًا، كقضاء الدين أو أن تطلب به شفاء مرضك أو أن يُؤَمِّنَ اللهُ روعتَك، ونحو ذلك، كل هذا لا إشكال فيه، تدعو الله تعالى بأمر الدنيا والآخرة معًا.

لَمَّا رفع الصحابةُ رضي الله عنهم أصواتهم بالذكر، الذكر لا ينبغي أن يُرفع الصوت به إلا في المواطن التي ورد فيها رفع الصوت، مثل التلبية ومثل بعد السّلام، بعد السّلام هذا من السُّنن التي تكاد تموت للأسف، بعد السّلام يشرع رفعُ الصوت، طبعًا ليس شديدًا يعني بحيث أنه صاخب، لكن إذا صار كل واحد يستغفر يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السّلام ومنك السّلام إلى آخره، هذا وهذا والذي في آخر المسجد والذي في وسطه يكون هناك ارتفاع للصوت، لذا كان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون انقضاء صلاة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالتكبير، الناس من خلفه يبدؤون في ذكر الله عزّ وجلّ فيُعلم أنه انتهى صلّى الله عليه وسلّم من الصلاة، وروى الشافعي أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول بصوته الأعلى، يعني أنه كان يرفع صوته بالذكر بعد السّلام، وفي البخاري أن الذِّكْر بعد السّلام زمن ابن الزبير في المسجد الحرام كان لهم به لَجَّة، ففي الصوت لجّة، لكن خفتت هذه السُّنَّة وقلّت، ولا يعني ذلك الصراخ والصياح الشديد بالذكر لأن هذا غير مشروع، ولكن يكون بالوضع الذي ذكرنا، أما بقية الأذكار فالأصل أن تكون بغير صوت رفيع، حتى القرآن لا يشرع الجهر به على من يقرآ، فأنت تقرأ وأخوك يقرأ؛ فإذا رفعت صوتك عليه فإن هذا يشوش عليه لأنه هو يقرأ ويناجي ربه وأنت تقرأ وتناجي ربك، فكذلك الحال، لكن المواضع التي جاء في السُّنَّة الدلالةُ على رفع الصوت فيها فإنه يرفع الصوت كالتلبية؛ يشرع رفع

الصوت بها، وهكذا مثلما قلنا الذكر بعد السّلام - بعد الفراغ من الصلاة - وما ورد، أما بقية المواضع فإنه لا يشرع رفع الصوت به.

قال عليه الصّلاة والسّلام: «أربعوا على أنفسكم» أمرهم بالترفق، «فإنكم لا تدعون أصمّ» وهو الذي لا يسمع «ولا غائبًا» وهو غير الحاضر، «إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» سبحانه وبحمده، قريب ممن دعاه عزَّ اسمه، قريب ممن يذكره، فلا حاجة إلى أن تصيح وترفع الصوت، الأصم الذي لا يسمع إلا بكلفة يحتاج إلى أن يُرفع الصوت، وهكذا الغائب، أما الرب تعالى فليس أصم ولا غائب، فهو على عرشه فوق سماواته ومع ذلك أقرب إلى الواحد منا من عنق راحلته، الراكب على الراحلة عنق الراحلة قريب جدًا منه، ومع ذلك فالله تعالى أقرب إلى العبد من عنق راحلته، وليس معنى ذلك الاختلاط - أن الله مختلط بعباده -، بل هو أقرب إلى عباده وهو فوق عرشه سبحانه .

مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا
إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ

وَقَوْلُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ؛ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ عَنْ رَبِّهِ؛ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ، فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

.....

ذكر ما يتعلق برؤية الله، والرؤية ثبتت أحاديثُها عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم متواترة، وردت عن نحو من ثلاثين من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وألَّف فيها الدّارقطني رحمه الله تعالى كتابًا، وأوردها اللالكائي رحمه الله تعالى في سياقين كبيرين جدًا في كتابه العظيم شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة، واعتنى بها ابن القيم في كتابه حادي الأرواح وذكر الأحاديث وتفسير النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للقرآن الدال على الرؤية وذكر تفاسير الصحابة رضي الله عنهم للآيات الدالة على الرؤية، وذكر أقوال الصحابة وأقوال التابعين وأقوال الأئمة كأحمد ومالك والشافعي وابن المبارك وغيرهم، فذكر كلامهم بما هو محل إجماع عند أهل السُّنَّة أن المؤمنين يرون ربهم، قال: «كما ترون القمر ليلة البدر»، القمر في العلوّ كما هو معلوم، «لا تُضامُون» من الضَّيم وهو الظلم، لا تُضامُون في رؤيته، بضم التاء وتخفيف الميم، لا تُضامُون: أي لا يلحقكم ضيم، أو لا تَضامُّون بفتح التاء وتشديد الميم، من التَّضام، لا تحتاجون أن ينضم بعضكم إلى بعض، لأن القمر فوق فلا حاجة إلى أن ينضم الناس حتى يروه، بل هو في العلوّ يستطيع كل واحد أن يراه، يرفع رأسه ويراه، فهذا تشبيه لرؤية الرب برؤية القمر، وليس تشبيها للرب بالقمر، بل تشبيه للرؤية بالرؤية، ترون ربكم، أي أن رؤيتكم لربكم كما أنكم ترون القمر، وهذا يدل على أن الله تعالى في العلوّ وأنهم يرفعون إليه عزَّ اسمه رؤوسَهم كما يرفعون رؤوسهم إلى القمر، «فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا» والمراد بهاتين الصلاتين أعظم الصلوات، صلاة الفجر وصلاة العصر، في هذا دلالة على عظم شأن هاتين الصلاتين، وأن المحافظ عليهما يكون من أجره أن يرى رب العالمين في الجنة، نسأل الله الكريم من فضله، هذا من عظم شأن الصلاة، الصلاة من أعظم الأعمال، كما ورد

في الحديث «الصلاة خير موضوع»، الصلاة شأنها عظيم جدًا، والله يجازي أهلها أعظم الجزاء، فإذا صلوها في وقتها في جماعة المسلمين؛ فإن شأن هذه الصلاة شأنها كبير كبير جدًا عند الله تعالى، فمن حافظ على هاتين الصلاتين فصلّى الفجر قبل طلوع الشمس وصلّى العصر قبل غروبها، أي صلاهما في وقتهما؛ فإنه يكون من ثوابه أن يرى رب العالمين في الجنة، فالأحاديث في هذا كثيرة جدًا متواترة عنه عليه الصّلاة والسّلام، لا يشك أهل السُّنَّة، ونفي الرؤية أمر عظيم وخطير جدًا على من نفاه، حتى صرَّح بعضُ أهل العلم بكفر من نفاه، من نفى الرؤية، الرؤية أدلتها جلية جدًا في كتاب الله كما تقدم وفي السُّنَّة بهذا العدد الكبير من الصحابة رضي الله عنهم، وإذا تواتر في جيل الصحابة فهو في جيل التابعين أكثر تواترًا، ثم بعدهم في أتباع التابعين فتكون مسألة معلومة، لهذا تجد إجماع الصحابة والتابعين وأتباعهم وعلماء الأُمَّة على هذا الأمر لأنه من الوضوح الشديد الذي لا يخفى، شديد الوضوح، فأمر الرؤية أمر متواتر وردُّ هذه المسألة العظيمة ردٌّ صريح لنصوص القرآن والسُّنَّة.

ثم قال رحمه الله: إلى أمثال هذه الأحاديث، أمثال هذا الذي أوردناها أحاديث كثيرة جدًا وهي الأكثر، الذي لم يورده رحمه الله أكثر من الذي أورده، أحاديث كثيرة جدًا يخبر فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن ربه، يخبر عن رب العالمين خبر الصادق المَصْدُوق صلوات الله وسلامه عليه، فالأُمَّة الصادقة في اتِّبَاعه عليه الصّلاة والسّلام وهم الفرقة الناجية -أهل السُّنَّة والجماعة- يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، يعني كما أنَّا نؤمن بما تقدم من الآيات التي أثبتت الصفات؛ فإنا نؤمن بهذه الأحاديث التي أثبتت الصفات لما تقدم من أن هذا كله من عند الله عزّ وجلّ.

ثم قال: ومن غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، أي أن هذا الأسلوب الذي نتعامل به مع نصوص القرآن هو الأسلوب الذي نتعامل به مع نصوص السُّنَّة، على ظاهرها لا نحرّف، لا نعطل، لا نكيف، لا نمثل.

مَكَانَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ فِرَقِ الْأُمَّةِ

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّة؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّة هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ، فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ، وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ وَغَيْرِهِم، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أسماء الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ.

.....

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(١)، فهذه أُمَّة وسط بين الأمم، وهي أعظم الأمم، وهي الشاهد على الأمم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، فهذه أفضل الأمم، منهجها هو الوسط، والوسط ما هو؟ فسّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما هو في البخاري (الوسط هو العدل)، فالأمر هو كما قال أبو بكر بن عياش رحمه الله: (أهل السُّنَّة وسط في الفرق كما أن الإسلام وسط في الأديان)، الذين هم على الإسلام الصافي النقي الصحيح هم أهل السُّنَّة، والإسلام وسط، لهذا تجلَّت الوسطيةُ على أكمل ما تكون في أهل السُّنَّة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

معنى الوسط في اللغة هو الذي يكون بين طرفين، هذا من حيث اللغة، وسطية الأُمَّة بينَّها عليه الصّلاة والسّلام بأنه هو عدلها، ولهذا في تفاسير السلف أنهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قالوا: عدولًا خيارًا، فهذه الأُمَّة أعدل الأمم وأوسط الأمم وهي خيرة الله عزّ وجلّ في هذه الأمم، أهل السُّنَّة هم الذين حملوا الإسلام الصافي النقي، فلهذا هم الوسط في هذه الفرق، وما أضرَّ الأُمَّةَ مثل الإفراط والتفريط، الإفراط والتفريط هو الذي أضرَّ بالأُمَّة هذا الإضرار الشديد، والوسط ينبغي أن يُعلم فيه قاعدة كبيرة جدًا، يجب أن يؤمن بها كلُّ من يشهد أن محمدًا رسول الله، الوسط هو الذي كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالذي على المنهج الذي عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا بد أن يُحكم بأنه هو الوسط، لو قال أحد: إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس على الوسط يكفر بإجماع المسلمين، لأن الوسط هو المنهج الذي عليه الأُمَّة ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، لو قال: إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس على الوسط؛ يكون

(١) البقرة: ١٤٣.

على ماذا؟ ليس بعد الوسط إلا الإفراط أو التفريط، فلو قال في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثل هاتين الكلمتين لخرج من الملة، إذًا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الوسط، فمن هو الوسطي؟ الذي ينهج منهج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أمّا أن يدعي الوسطيةَ كلُّ أحد، أو أن يُظن أن الوسطية ما هي؟ كما هو الحاصل الآن والمنتشر، أن الوسطية اللعب بالدين، أن يُسْتَسْهَل بالمنكرات، لا تكون متشددًا! لا تكون على هذا الجانب من الحماس لدينك والاهتمام والغيرة لله ورسوله والعناية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولاء والبراءّ! ترفّق! المسألة ليست هكذا! لا تكن ضَيّق الأفق! كن إنسانًا محسنًا للتعامل! يكون عندك تعامل راقي مع الكفار ومع من يخالفونك في العقيدة! أيُّ تعامل هذا؟ هذا منهج علماني قذر استُقْدِم من أعداء الله من الغرب، ليس معنى الوسطية أن نتنازل عن دين الله عزّ وجلّ وأن نتساهل في أمر ديننا، هذا ليس وسطًا، هذا عبث ولعب بدين الله عزّ وجلّ، لذا من أعجب العجب أن يتحدث عن الوسط من هم أبعد الناس عن الوسط، أكثر من أزعج الناسَ بالوسطية أعداءُ الله من الليبراليين، الوسط والوسط! أنتم أشد ما يكون من طرف، أخزاكم الله وأراح الأُمَّة من أمثالكم، أين أنتم من الوسط؛ وأنتم تستقدمون ما عند أعداء الله من الكفرة وتحسِّنُون وتدعون إليه شباب المسلمين وشابّاتهم حتى يكونوا على النهج القذر في الغرب! هذا أطرف الطرف وأخسّ الخسة، وهو المقابل لطرف الخوارج، فأولئك غلاة وأنتم جفاة، وقد ثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الخوارج وفي هذا الصنف الخبيث أنه قال فيهم جميعًا كلمة واحدة «شرار أمتي»، قال صلّى الله عليه وسلّم في الخوارج: «شرار أمتي»، وقال في هؤلاء الذين يجتلبون إلى الأُمَّة طرائق أهل الكفر من اليهود والنصارى قال: «ليحملن شرار أمتي على سَنَنِ مَنْ كان قبلهم -أهل الكتاب- حذو القُذّة بالقُذّة»، وقال في الخوارج عليه الصّلاة والسّلام: «شرار أمتي»، فدل على أن الشر في الطرفين، في أهل الإفراط والزيادة والمبالغة من الخوارج والغلاة وفي أهل التفريط العابثين بدين الله، المعادين صراحة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المعادين صراحة لأمور الإسلام الكبار كالولاء والبراء والجهاد في سبيل الله - الجهاد السليم الصحيح - الذين يريدون أن يعبثوا بالدين، ثم يقول: هذا هو الوسط! كل أحد يدعي الوسط حتى الشيوعي واليهودي والنصراني، المسألة ليست لعبًا، الوسط عند من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله واضح جدًا هو الذي عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي قال صلّى الله عليه وسلّم وخطَّ خطًا مستقيمًا فقال: «هذه سبيل الله»، ثم خطَّ عن يمينه وعن شماله خطوطًا ثم قال: «هذه

سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها» الوسط هو الذي قال الله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعدما خطَّ الخط قرأ الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(١)، ليس الوسط أن يُجاوَزَ الدينُ باسم الحماس وباسم الغَيرة، ويُزاد على دين الله ويُشوه دينُ الله عزّ وجلّ ويُبَغَّض للأمم، ليس هذا هو الوسط، هذا هو الغلوّ، وليس الوسط التنازل عن دين الله عزّ وجلّ، الدين لله عزّ وجلّ ليس ملكًا لأحد، أنت تستطيع أن تتنازل عن ما تملك، أما دين الله فتقول: نتنازل عن كذا! ليس لك الدين وليس لأحد، الدين لله عزّ وجلّ، قال تعالى في أهل الكتاب - وهذه هي الطريقة الصحيحة في الحوار معهم -: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾(٢)، لست عليهم بمسيطر، ما لك ولهم؟ وضِّحْ لهم الحق، فإذا قالوا: لا أنتم عندكم إشكال، عندكم إشكالات لا تناسبنا في المرأة ولا في أمور الغيب ولا في أمور الولاء والبراء، من قال: إن الهداية لك! الله يقول لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾(٣)، فأنت من باب أولى، أنت وضِّحِ الحق، وبيّنه بأجمل وأحسن عبارة، وحببه للقلوب، فإذا قيل: هذه المسألة الحق لا نطيقها ولا نتحملها لا بد أن تتنازل، قل: أنا أملكها! أنا لا أستطيع أن أتنازل، هذا دين الله عزّ وجلّ، مهمتنا هي حمله ونقله بأمانة إلى الأجيال ثم الأجيال بعدنا كذلك، كما استلمناه ممن قبلنا إلى أن وصل إلى الصحابة، بدءًا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هذه مهمة أهل العلم وأهل تقوى الله عزّ وجلّ، أما أن نتنازل! هذا لا يريد أحكام الإسلام في المرأة! وهذا لا يريد أحكام الإسلام في الجهاد! وهذا لا يريد أحكام الإسلام في الولاء والبراء! وهذا لا يريد أحكام الإسلام! متضايق من الغيبيات والجنة والنار وعذاب القبر، دين الله ليس ألعوبة، هذا دين الله عزّ وجلّ فيه النجاة؛ تَقْبَلُهُ؟ الحمد لله، ما تَقْبَلُهُ؟ إنما تضرّ نفسك، أما أن تتنازل عنه! سلني عن شيء أملكه حتى أتنازل عنه، فأمر الوسطية أمر خطير جدًا ومن أكثر بل أكثر ما يقال في الوسطية قاطبة؛ أكثر ما يسمع ويكتب فيها كذب وغير صحيح للأسف، لأن الوسطية يتكلم فيها من ليسوا من الوسط بسبيل، واعلم أنه يستحيل أن تُعْرَف الوسطيةُ إلا بالعلم، ما يمكن أن تُعرفَ الوسطيةُ إلا بالعلم، حتى تعرف أن هذا منهج

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) البقرة: ١٣٧.
(٣) البقرة: ٢٧٢.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فمن زاد تقول: هذا غلا، ومن قصَّر: تقول: جفا، أما أن تقول وسطية! سهل على الناس! يَسِّرْ لهم الأمور! دين السماحة! هو دين السماحة في حال وجود السماحة، ودين القوة في الله عزّ وجلّ في حال وجود القوة، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١)، أما أن يُظَنَّ أن دين الله عزّ وجلّ هو السماحة مطلقًا؟ يستحيل أن يكون هذا هو الدين الذي يرتضيه الله عزّ وجلّ، السماحة لها مواضع والقوة لها مواضع، ليست المسألة بالوضع الذي يفهمه كثير من العامة أن دين الله تعالى معناه أن يُستسمح وأن يُتساهل في أمر الأحكام والفتاوى وفي أمور عظام من شأن دين الله فيقول: هذا هو الوسط! ليس هذا هو الوسط، الوسط هو في العلم بأن تعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على هذا الحدِّ، فمن زاد فيه فإنه من الغلاة، وهم من شرار الأُمَّة كما تقدم في الحديث، الحديثان هذان شأنهما عظيم جدًا، حينما يقول صلّى الله عليه وسلّم في الغلاة من الخوارج «شرار أمتي»، وحين يقول في الجفاة الذين يحملون الأُمَّة على سَنَنِ من قبلها «شرار أمتي» هذا يدل أن من أبعد عن هذا الوسط فهو من أهل الشر، لأنه سواء زاد وبالغ باسم الحماس والغيرة والحب لدين الله والقيام بأعباء الدعوة؛ إذا زاد فهو من الأشرار لأنه خرج عن الوسط، وإذا قَصَّر وجفا وعدل بدين الله فهو من الأشرار، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: شرار أمتي هنا وشرار أمتي هنا، لأن الشر هو في البعد عن الوسط، فمسألة الوسط ليست مسألة دعوى ومجرد ظنون وتخرُّصات، بل الوسط عِلْمٌ بحال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الأمور ثم تُوزن الأمورُ على هذا، فمن سار على هذا النهج فهو على النهج الوسطي، ومن زاد عليه فهو من الغلاة ومن قَصَّر عنه فهو من الجفاة.

يقول رحمه الله: هم الوسط في فرق الأُمَّة، كما قلنا كما أن هذه الأُمَّة هي الوسط في الأمم، ثم ذكر أمثلة على هذا وفصّلها رحمه الله تعالى في مواضع في منهاج السُّنَّة وفي الفتاوى، فصلها تفصيلًا عظيمًا في الأحكام، عند اليهود وعند النصارى، كيف أن عند اليهود شيء من التشدد في النجاسات وفي التعامل مع المرأة إذا حاضت وفي المحرمات عليهم وهي كثيرة، وعكسهم النصارى، النصارى فيهم قذارة، يباشرون النجاسات ولا يكترثون بها، ويطؤون المرأة وهي حائض، وجاء الإسلام بالوسط، لا غلو اليهود ولا قذارة النصارى، وذكر أمثلة كثيرة من هذا، في أبواب الأحكام وفي أبواب الاعتقاد وغيرها.

---

(١) المائدة: ٥٤.

ثم ذكر وسطية الأُمَّة ووسطية أهل السُّنَّة بين الفِرَق، ذكرها هنا مجملة، وفصلها في منهاج السُّنَّة رحمه الله وفي كتاب العقيدة الكبرى وفي الفتاوى في مواضع نفيسة جدًا، نذكر الآن ما ذكرها منها.

يقول في باب صفات الله، هم وسط بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهذا وضحناه أن أهل السُّنَّة لهم منهج، لا يبالغون في الإثبات حتى يُشَبِّهُوا، ولا يبالغون في التّنزيه حتى يعطلوا.

وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، الجبرية الذين يزعمون أن العبد ليس له فعل أصلًا وإنما هو مجبور، فبالغوا في تقرير القدر، عكسهم القدرية، وهم طائفتان: القدرية الغلاة الذين ينفون علم الله أصلًا للأشياء حتى تقع، ويقولون: الأمر محال للعبد بالكلية، والقدرية الذين خالفوهم وهم المعتزلة فأثبتوا العلم والكتابة فيما يتعلق بمراتب القدر ولكن قالوا: الله تعالى لا تعَلُّقَ لمشيئته وإرادته تعالى بأفعال العباد، فالعباد هم الذين يخلقون أفعالهم استقلالًا عن الله، نعوذ بالله من قالة أهل الزيغ.

فأهل السُّنَّة وسط كما سيأتينا إن شاء الله بيانه في القدر بين الجبرية والقدرية.

قال: وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية، الوعيدية هو الخوارج، والقدرية يركزون كثيرًا على الوعيد، ولهذا يكون عندهم شدة مبالغ فيها في شأن العصاة، فيتعاملون معهم ويحكمون عليهم حكمًا أكثر من الحكم الذي بيّنه الله تعالى، فالخوارج ترى أن صاحب الكبيرة كافر، ولهذا نقول لهؤلاء الموجودين الآن من الإباضية: إنكم من الخوارج، فيأبون، فقل: انظروا عقيدتكم في صاحب الكبيرة، عقيدتكم في صاحب الكبيرة هي عقيدة أسلافكم السابقين وهم الخوارج الذين يُعْظِمُون القَالة في صاحب الكبيرة، وصاحب الكبيرة من أهل الملة مسلم لا شك، وهو فاسق بما عنده من كبيرة وهو تحت مشيئة الله إن شاء الله تعالى غفر له وإن شاء عذبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(١)، فما دون الشرك مما يقع من عصاة أهل هذه الملة يُمنعون، تقام عليهم أحكام الله، يُحتسب عليهم نعم، لكن ليسوا كفارًا، لا يبالغ هذه المبالغة، فالوعيدية من الخوارج يقولون: إنه يُنتقل بالكبيرة إلى حكم الكفار، المعتزلة ابتدعوا بدعة قالوا: لا نقول: إنهم كفار ولا نقول: إنهم مسلمون، ولكن نقول: هم في منزلة بين المسلم وبين الكافر، منزلة يسمونها المنزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة قالوا: نقول كالخوارج هو مخلد في النار، فبالغوا مبالغة شديدة، عكسهم المرجئة، المرجئة سُموا بالمرجئة من الإرجاء، وهو أنهم يؤخرون العمل، يخرجون العمل عن

(١) القصص: ٥٦.

الإيمان، ركزت المرجئة عكس ما ركزت الخوارج، ركزت على الآيات والأحاديث التي وردت بالعفو والمغفرة والصفح، وتجد عندهم عبارة: الله غفور رحيم مباشرة، ويهونون من أمر المعاصي حتى قال قائلهم أخزاه الله: (وأَكْثِرْ ما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم على كريم!!) نسأل الله العافية، حرَّضوا الناس على المعصية، فربك كريم، ربك غفور رحيم! لا تستوحش من المعاصي! نسأل الله السلامة والعافية، قطعًا ليس المرجئة جميعًا يقولون هذا، لكن المرجئة درجات، فهؤلاء سهلوا في أمر المعصية وأخرجوا العمل عن الإيمان، وقالوا: العاصي لا ينقص إيمانُه ولا يضعف، بل إيمانه مثل إيمان جبريل وميكائيل، فجرّؤا العصاة على المعاصي وجرّؤا العصاة على ترك الطاعات، عكسهم الوعيدية وهم الخوارج والمعتزلة كما قلنا في شدتهم على صاحب الكبيرة، فأهل السُّنَّة بحمد الله وسط، يمنعون أمر المعاصي ويحتسبون على أهلها وينكرون المنكر ويقيمون الحدود عليهم ويقولون: إن هذه المعاصي قد يعاقبون عليها العقوبة الشديدة في دنياهم وفي قبورهم وقد يدخلون بها النار كما دلت النصوص لكن أمرهم إلى الله، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم لأنهم مؤمنون بما عندهم من إيمان؛ فاسقون بما عندهم من فسق، فتوسّطوا بين قول هؤلاء وقول هؤلاء.

وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، أسماء الدِّين كالأسماء التي أطلقت، مسلم مؤمن فاسق عاصي منافق، هذه أسماء دينية أطلقها الشرع، هذه الأسماء ضلَّت فيها الفرق أعظم الضلال، نفس الوضع، الحرورية المقصود بالحرورية الخوارج نسبوا إلى حَرُوْرَاء وهي بلد انحازوا إليها زمن علي رضي الله عنه فنُسِبُوا إلى هذا البلد حروراء، الحرورية وسائر الخوارج والمعتزلة في أسماء الإيمان بالغوا مبالغة شديدة كما قلنا الخوارج، صاحب الكبيرة هو مسلم لا شك في ذلك لكنه عاصي، فيجتمع أن يكون مسلمًا عاصي، لم يستطيعوا أن يستوعبوا أنه مسلم عاصي، قالوا: إما أن يكون مؤمنًا عنده إيمان كامل وإما ان يكون كافرًا، فغَيَّرُوا في أسماء الدين، فاسم الدين فيه فاسق وفيه عاصي وفيه غالي وفيه كافر وفيه منافق، النفاق منه نفاق أصغر ونفاق أكبر، وهكذا الكفر والشرك ليست إطلاقًا واحدًا، هم ليس عندهم إلا شيء واحد، إما أن يكون على الوضع الذي يرونه ويكون أيضًا واحدًا منهم على نفس طريقتهم ومعتقدهم وإلا فهو كافر، فبالغو هذه المبالغة.

المرجئة سهلت من أمر المعاصي وأضاعت الدين إضاعة شديدة حتى كانوا كما قال بعض السلف جعلوه كثوب دساتري أو نحوه ثوب شفاف، صار رقيقًا جدًا، لعبوا بالدين لعبًا عظيمًا جدًا مثل هذه

التصرفات، فهوَّنوا من المعاصي، المعاصي شديدة، وصاحب الكبيرة فاسق تُرَدُّ شهادتُه ولا تقبل ويجب أن يحتسب عليه وأن يقام عليه حكم الله ولا يسهل من أمر المعاصي، فسهلوا من أمر المعاصي، قال: صاحب الكبيرة عندهم إيمان كإيمان جبريل وميكائيل، فغَيَّروا في أحكام الدِّين، فأهل السُّنَّة ولله الحمد وسط، قالوا: هو مؤمن بما عنده من إيمان - صاحب الكبيرة - فاسق بما عنده من فسق، فيجتمع فيه الأمران، ثم الناس يتفاوتون في درجات الإيمان، فالإيمان يزيد وينقص، وحتى الفسق يتفاوت في شأنه، فمنه فسق أعظم وهو فسق الكفار وهو الفسق الذي ذكره الله عن إبليس ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(١)، هذا فسقه فسق كفر، لأن الفسق يطلق على الكفر، وهناك فسق دون ذلك ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾(٢)، فيكون من فساق المسلمين كأن يكون كاذبًا في حديثه أو نحو ذلك، فأسماء الدين من الخطر البالغ جدًا أن يُلعب بها، لأن لاحظ شيئًا، اسم الدين معه ماذا؟ معه حكم، أسماء الدين معها حكم، فإذا قلت: إن صاحب الكبيرة كافر؛ معناه أن صاحب الكبيرة يَحِلُّ قتلُه! أصحاب الكبائر لهم حدود، وكونهم لهم حدود معنى ذلك أنهم ليسوا كفارًا، فكون السارق إذا سرق قطعت يده لا يعني ذلك أنه كافر، لأنه لو كان كافرًا لما قطعت يده، لو كان كافرا لقُتِلَ على الردّة، لكن تقطع يده ويترك، والشارب يجلد ويترك، فلو كان شارب الخمر كافرًا لما جُلِد وتُرِك، بل قطعت رقبته على الردّة أيضًا، لأنه قد يُقتل المسلم قتلًا لا على الردّة، فإنه لو قتل أحدًا فإنه يقتل به، لكن لا يكون قتله قَتْلُ المرتد، وإنما يكون قتله قَتْلُ المسلم الذي قتل أخاه المسلم فكلاهما سماه الله تعالى بالأخ، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، هذا في قتل العمد ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٣) فسمى اللهُ القاتلَ ووليَّ الدم من المقتول سماهما أخوين، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾(٤)، فدل على أنه يمكن أن يقع الاقتتال - وهو كبيرة - بين المؤمنين، ففصّل أهلُ السُّنَّة هذا التفصيل، أما الخوارج فما استطاعوا أن يستوعبوه، ولهذا أتباع الخوارج عندهم التكفير سريع جدًا، سريعون جدًا إلى التكفير، والتكفير عندهم ليس له قاعدة، لو تنظر في قاعدة التكفير عند الخوارج وتسبرها سبرًا دقيقًا جدًا لاختصرتها في كلمة واحدة: من خالفني فهو كافر، هذه طريقة الخوارج، لكن أن تكون دقيقة على

(١) الكهف: ٥٠.
(٢) الحجرات: ٦.
(٣) البقرة: ١٧٨.
(٤) الحجرات: ٩.

وصف التكفير في كتاب الله وسُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبدًا ليسوا كذلك، ولهذا ابتلي الخوارج في أنفسهم بتكفير بعضهم بعضًا، لأن التكفير ما عنده قاعدة، الخارجي ما عنده قاعدة في التكفير، من هو الكافر؟ الذي يخالفني! شأنك صار شأن الرسل في هذه الطريقة! من خالفك كفر، من خالف ما تُقَرِّرُهُ كفر! هذا أمر عظيم وخطير جدًا أن يقال، لأنك جعلت نفسك في مقام الرسل؛ الذين يخالفون الرسل المخالفةَ الكفريةَ يكفرون أيضًا، لأنه قد يخالفوا الرسل مخالفةَ معصيةَ، فلو تنظر في الأزَارِقة النَّجَدات الإباضية الخوارج متقدمهم ومتأخرهم ليس هناك قاعدة دقيقة في التكفير، لأن الخارجي سريع جدًا إلى التكفير، إذا غضب كفَّر، إذا لم يستوعب المسألة كفَّر، عكسه المرجئ، المرجئ يفتح الباب، ويُسَهِّلُ من أمر المعاصي، بل قد يدخل المرجئة في الدين من هم كفار فعلًا من شدة التساهل، فلنحمد الله تعالى على السُّنَّة ونسأله الثبات على الوسط الحقيقي الذي بين هؤلاء الغلاة وبين هؤلاء الجفاة.

قال: وفي باب أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين الرافضة والخوارج، يأتينا إن شاء الله تعالى الكلام على الصحابة رضي الله عنهم، والرافضة معلوم موقفهم فلا نتحدث عنهم، لكن هل الخوارج نالوا من أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ نعم، وهذا كله من دلائل ما عند الخوارج - عياذًا بالله - من الشطط، أفضل الأُمَّة وأجلّ الأُمَّة والذين لهم الفضل على الأُمَّة إلى قيام الساعة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم أصحاب رسول الله، ومع ذلك ما سلم أصحاب رسول الله من نقد الخوارج، وذلك أن الخارجيَّ في واقع الأمر مع جهله بالنصوص كما جاء فيهم - كما قال ابن عمر - انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المسلمين؛ أن عنده شيئًا من الغرور كما جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام أنه قال: «سيخرج رجل لا يكلمه منكم أحد، فلما أتى قال: أنشدك الله؛ أترى نفسك أفضل من غيرك؟ قال: اللهم نعم»، هذه صفة الخوارج، حتى لو لم يشعروا بها، يرى الخارجي أن إليه المنتهى في التقوى وفي الدين وفي الخير وفي العلم وفي كل شيء، هذه بلية كبيرة معها البلية الأخرى وهي قوله صلّى الله عليه وسلّم كما ثبت عنه عليه الصّلاة والسّلام في مسلم في شأن الخوارج وهذه خطرة جدًا على الخارجي وعلى غير الخارجي قال: «يقرؤون القرآن؛ يحسبون أنه لهم وهو عليهم» فيقول: الدليل عندي قال الله، والدليل عليه وليس له، ولهذا هو ينطلق مثلًا في سفك الدماء وغيره يقول: أنا عندي آية من القرآن يقول تعالى: كذا، مع قول ابن عمر: انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين، ولهذا يسهل على الخارجي القتلُ، لأنه يظن أن القرآن يؤيده،

والآيات نزلت في الكفار وأنزلها على المؤمنين كما قال ابن عمر رضي الله عنه، ولهذا يرى أنه على صواب، وأنه الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الحَدِب على الأُمَّة، القائم بالإسلام حق القيام، ولهذا لا يكاد يسمع الخارجي - سبحان الله -، الخارجي لا يكاد يسمع، عنده شيء من الاعتداد بنفسه، وعنده شيء من النظر إلى غيره بالنقص، كما قال عليه الصّلاة والسّلام لذلك الرجل الذي خرج عليهم ينظر إلى غيره بأنه هو المتساهل المتلاعب المداهن في دين الله العابث المنافق المرائي الذي تهُمُّه الدنيا ونَظَرُهُ إلى السلاطين وإلى أموالهم، مع أن العالِمَ قد لا يرى سلطانًا أصلًا، لا يلتقي به نهائيًا ولا يهُمُّهُ بتاتًا.

الحاصل أن هذا باب خطر جدًا؛ أن يُخرِجَ عن الوسط الذي كان عليه أهل السُّنَّة والجماعة، والخطر أن يُؤتى إلى الإنسان من باب الحرص على الدين والحَدَب عليه والحرص عليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بأمر الله؛ فيلعب به الشيطان من حيث لا يشعر، ولهذا قد يستغرب طالبُ العلم، وفي باب أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أهل السُّنَّة وسط بين الرافضة والخوارج، يعني هل نال الخوارج من الصحابة؟ نعم، لأن الخارجي قلنا لك معتد بنفسه، فبلغت بهم الأمور أن رأوا أن عثمان رضي الله عنه خرج عن أحكام الله وتلاعب بدين الله فدخلوا عليه رضي الله عنه في شيبته وفي كبر سِنِّه وقد جاوز الثمانين وقتلوه رضي الله عنه في بيته وعند زوجته، وقد كانت عنده قبل زوجته هذه بنتان من بنات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فمعنى ذلك أن هؤلاء الهمج لو أُطيل في عُمُرِ رُقية وأم كلثوم لَما اكترثوا أن يدخلوا على عثمان ويقتلوه بين بنتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم كمنوا لعلي رضي الله عنه فقتلوه رضي الله تعالى عنه وأرضاه، واتجهوا إلى عمرو ليغتالوه -ابن العاص- فصلّى بدلًا منه خارجة؛ فقتلوا خارجة، وضرب الخارجي معاوية، لأنهم قرروا أن يغتالوا ثلاثة، عمرو ومعاوية وعلي رضي الله عنهم، يفكرون وعندهم طريقة أن الاغتيالات هذه ستَحُلُّ المشكلةَ، قالوا: ثلاثة أشخاص، علي وقتَلَه ابنُ ملجم، وعمرو بمصر، واتفقوا في يوم واحد، كلهم حددوا يومًا في صلاة الفجر، فعلي رضي الله عنه قتله ابن ملجم، وعياذًا بالله نسأل الله أن لا يزيغنا في الزائغين، جعل السيفَ -أَشربَه بالسّمّ- بحيث لو أنه ضربه ضربة ما كانت ماضية؛ يمضي السّمّ منه رضي الله عنه، فضرب عليًا كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «أشقاها يا علي قاتل الناقة، وأشقاها من يضربك على هذه -يشير صلّى الله عليه وسلّم إلى رأسه- فيسيل الدم على هذه» فكمن لعلي وقتله في صلاة الفجر، واتجه الخارجي الآخر إلى مصر فأراد قتل عمرو أيضًا في صلاة الفجر فصلّى خارجة

بدل عمرو، ففي ظلمة الليل ضرب الرجل -يظن أنه عمرو بن العاص- وإذا به خارجة، فقال كلمة صارت مثلًا: أردت عمرو وأراد الله خارجة، والذي اتجه إلى الشام لقتل معاوية ضرب معاوية ضربة غير ماضية فضربه على أسفل ظهره رضي الله عنه فانقطع منه النسل ونجا، فكانت نظرتهم إلى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن الصحابة قد فرَّطوا في دين الله وأنهم هم الذين سيقومون بدين الله، ولهذا قاتلوا الصحابة رضي الله عنهم وقاتلوا عليًا رضي الله عنه والصحابة في قتال علي رضي الله عنه لأهل حَروراء حتى أبادهم رضي الله عنه ولم يبق منهم إلا قليل ومع ذلك استمروا في قتال بني أمية حتى سقطت دولة بني أمية واستمروا، وقد جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام أنه قال في الخوارج: «كلما خرج قرن قطع؛ حتى يلحق آخرهم بالدجال» نسأل الله العافية والسلامة، انظر عاقبة الغلوّ، عاقبة الغلوّ ونهاية الغلوّ أن يلحق هؤلاء بالدجال، الذي يدعي الربوبية، نسأل الله العافية والسلامة، الوسط الوسط، الوسط الحقيقي الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة لا يمكن أن تناله إلا بالعلم المُؤَصَّل على ما عليه أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولذا قلنا اعتنوا عناية كبيرة بكتب العقيدة المسندة التي تروي عن الصحابة وتنقل عن التابعين رضي الله عنهم حتى تعرف الوسط حقًا، وتروي عن أئمة الإسلام، وتربط ما بين علماء السُّنَّة في الحديث بعلماء السُّنَّة ممن قَبْلَهُم إلى زمن الصحابة وتربط الأمور بالأحاديث؛ وإلا فإنك قد تزيغ وتضيع من حيث لا تشعر، نسأل الله العفو والعافية، فأمر الوسط أمر كبير الأهمية، والتصنيف فيه والبيان والخطابة فيه في غاية الأهمية في الحقيقة حتى لا يظن الإنسان أنه على هدى وهو عن الهدى بعيد، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأله العون لما فيه رضاه والثبات على الحق، والأسئلة نجعلها غدًا إن شاء الله وفيه نختم الكتاب بعون الله تعالى.

وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِاسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَمَعِيَّتِهِ لِخَلْقِهِ وَأَنَّهُ لَا تَنَافِيَ بَيْنَهُمَا

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المسلمين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّة؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١)، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا - حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(٢)، وَقَوْلِ النَّبِيِّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، وَمَا

(١) الحديد: ٤.
(٢) البقرة: ١٨٦.

ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة، مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه، لَا يُنَافِي مَا ذِكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

.....

ذكر رحمه الله في هذا الموضع ما يتعلق بالجمع بين الإيمان باستواء الله تعالى على عرشه وتقدم أن العرش هو أعلى المخلوقات وهو فوق السماوات السبع؛ ومع ذلك فالله تعالى مع عباده لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

كلام شيخ الإسلام وأهل العلم رحمهم الله كلام دقيق، ذكر عندك هنا منهج التلقي، يقول رحمه الله: وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمانُ بما أخبر الله به في كتابه، هذا أولًا، أن طريقنا للتَّعَرُّف على ربنا سبحانه من كتابه، وتواتر عن رسوله صلّى الله عليه وسلم، فالطريق الثاني ما جاء عن الرسول صلّى الله عليه وسلم، لكن ذكر التواتر هنا لأنه ورد بطريق متواتر وإلا فإن كل ما تقدم وما ورد وثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه يؤخذ به سواء تواتر أم لم يتواتر، وأجمع عليه سلف الأُمَّة، فهذه الآن الطرق التي يُعْرَفُ من خلالها الحقُّ وسيعود إليها ويذكرها إن شاء الله تعالى لاحقًا.

تعرف العقيدة من خلال نصوص القرآن ومن خلال نصوص السُّنَّة ومن خلال ما أجمع عليه سلف الأُمَّة رضي الله تعالى عنهم، ومن ذلك ما حصل هنا من أن هذه المسألة موجودة في القرآن وفي السُّنَّة بل تواترت في السُّنَّة وأجمع عليها سلفُ الأُمَّة من أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه، ولهذا إذا سُئِل المسلمُ أين ربك؟ يقول: في السماء، ويربي ابنَه ويلقِّنَه أن ربه في السماء، وإذا سأله الابن الصغير - وهذه من عادة الصغار - أين ربنا؟ تقول له: في السماء كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلم للجارية قال: «أين الله؟» قالت: في السماء، فهو سبحانه وتعالى فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه عال سبحانه وبحمده وهو معهم سبحانه أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك أي بين كونه على عرشه وبين كونه معهم في قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(١)، فجمع الله تعالى بين كونه على عرشه وبين كونه معنا سبحانه، ثم نبَّه إلى أمر وهو أن قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ليس معناه أنه مختلط بالعباد

(١) الحديد: ٤.

في الأرض، فإن من المعلوم أن المؤمن إذا سُئِل من ربك؟ أي أين ربك؟ يقول كما تقدم يقول: في السماء، ولا يحل أن يقول: إن الله في الأرض، بل الله تعالى في السماء، وهو أمر متقرر ثابت، وذكرنا شيئًا من الأدلة عليه أن الله تعالى في السماء، ومع ذلك فهو مع خلقه سبحانه وتعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ثم بيّن أن كلمة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا تعني الاختلاط بالعباد في الأرض لعدة أمور: أولًا: أن هذا لا توجبه اللغة، اللغة كلمة (مع) تعني المصاحبة ولا تعني الامتزاج والاختلاط بالضرورة بل تطلق ويراد بها المصاحبة كما تقول العرب في المثال الذي ذكره رحمه الله: مازلنا نسير والقمر معنا، المسافر كما تقدم إذا سار في الليل فإن القمر يراه بوضوح وجلاء فيقطع الليل في ست ساعات؛ سبع ساعات يقول: مازلنا نسير والقمر معنا، ليس معناه أنه معهم في رواحلهم مختلط بهم فوق جمالهم إذا سافروا بل هو في السماء ويصح أن يطلق عليه مع ذلك أنه معنا، قال: هذا من حيث اللغة، وفي نسخة أخرى غير النسخ التي لديكم ذكر دليلًا ثانيًا قال: وليس معنى قوله أنه معكم أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه السلف يعني هذا الفهم خلاف ما أجمع عليه السلف، لم يفهم السلف بتاتًا من قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مع الناس في الأرض سبحانه وتعالى، بل الله تعالى مع خلقه وهو فوق سماواته سبحانه وبحمده، ولهذا نبّهنا على أهمية الكتب المسندة على أهمية أن تدرس لأننا إذا قلنا إن هذا هو قول السلف هذا إجماع السلف نرجع إلى هذه الكتب ونجد هذا فيها جليًا.

يقول: الدليل الثالث: وهو خلاف ما فطر الله عليه الخلق، الذي فطر الله تعالى عليه الخلق أن ربهم سبحانه وتعالى فوقهم ولهذا إذا نابت العبادَ حاجةٌ فإنهم يرفعون أبصارهم إلى ربهم ويرفعون أكفهم إلى ربهم سبحانه وتعالى لأنهم قد فُطِروا فطرة على أن الله تعالى في السماء، وكان أبو المعالي الجويني وكان من شيوخ الأشاعرة المشاهير يقرر مقولة التعطيل يخطب بها ويقول ما حاصله أن الله تعالى ليس في السماء؛ فقال له أحد أصحابه: دعنا من هذا الكلام - التقريرات الكلامية والتقعيدات - وأجبنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا (ما قال موحد قط: يا رب إلا وجد بها ضرورة يرفع بصره إلى ربه تعالى)، يقول: دع عنك التشقيقات والنقاشات الكلامية وتقريرات المتكلمين ولكن أجبنا عن هذا الشيء الذي جعله الله في قلوبنا جميعًا أنه ما قال موحد قط: يا ربي؛ إلا وجد ضرورة يتجه إلى العلوّ، فكان الجويني يخطب فضرب على رأسه وقال: حيرني الهمداني؛ حيرني الهمداني، لأن هذه التقريرات التي يقرِّرُها المتكلمون ليست فقط على خلاف

القرآن والسُّنَّة، بل هي على خلاف الفِطَر، والفِطْرَة مسألة مشتركة يشترك فيها المتكلم وغير المتكلم، ولهذا يصابون - نسأل الله العافية – بالحيرة، يصابون بالحيرة؛ لأنهم كلما قرأوا القرآن وجدوا القرآن على خلاف عقيدتهم، إذا نظروا في أحاديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلم وجدوا أحاديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلم على خلاف عقيدتهم، إذا نظروا كلام المهاجرين والأنصار والتابعين - أفصل القرون - وجودوه على خلاف عقيدتهم، حتى الفِطَرَ التي فطرهم الله تعالى عليها؛ يجدون في فطرهم ما هو على خلاف ما يقررونه، لكن جاءتهم الشبهة التي سمّوها أدلة عقلية وهي كما قلنا هوى انتشر، كما تلاحظ أنه تشِيْعُ فتنةٌ معينةٌ يُفتن الناسُ بقول معين أو بوجهة معينة، تشِيْعُ هذه الوجهة في الناس ويكون عدد وفئام هائلة من الناس يقررونها وفيها من المخالفة لكتاب الله وسُنَّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وأصول الإسلام العظام فيها شيء عظيم جدًا من المخالفة، تارة يكون هذا ببدع وتارة يكون هذا بكفريات وضلالات، هذه المذاهب التي انتشرت في العقود السابقة ومن أكثر ما انتشر الفكرة الخبيثة النجسة الفكرة الإشتراكية تبنّاها كثير من الناس وكابروا وعاندوا حتى قال بعضهم: إن الإسلام دين الاشتراكية وأرادوا أن يجمعوا بين الإشتراكية وبين الإسلام! الإشتراكية مبناها الإلحاد وليس مبناها دين؛ حتى يُزعم أنه يرادُ الجمع بين دين ودين آخر، مع أن هذا لا يحل أبدًا لأن الإسلام دين الحق وغيره من الأديان باطل، لكن هي مبنية على أساس إلحادي، ومع ذلك يعلم علام الغيوب كم دخل في هذه الفكرة العفنة من الأعداد الهائلة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، مع أنها تناقض لا إله إلا الله مناقضة تامة، ثم هَوَتْ هذه الفكرة الخبيثة و تَلَتْهَا الأفكارُ التي أتتنا من الغرب، ومن أرذلها الفكرة الديموقراطية، فهذا الانتشار لها ومحاولة تصديقها لا يستغرب إذا كان على يد من هو مخالف للشرع، لكن العجب العجاب فيمن يريدون أن يجمعوا بين هذه الفكرة المعروفة والمؤسسة على أساس العلمانية من الأساس لا يمكن أن تتم إلا في جو علماني ويريد أن يجمع بينها وبين الإسلام، ويشيع هذا في أعداد غفيرة ويقررون هذا ويستدلون بنصوص وبمواقف ويسمون أحكامًا من الإسلام أنها أحكام ديموقراطية! تريد أن تجمع بين الليل والنهار في موضع واحد في وقت واحد! تريد أن تجمع بين الشرق والغرب! فكرة عفنة ملحدة، من اطّلع على أساساتها ومقولات أهلها يعلم أنها فكرة لا يمكن بتاتًا أن تقوم إلا في جو علماني أهلها يقولون هذا، ومع ذلك يقولون: الإسلام دين ديموقراطي، كما قالوا في السابق الإسلام دين اشتراكي! هذا في البلايا التي أتتنا من الشرق ومن الغرب، الذي ضرّ الأُمَّة ضررًا بالغًا

وجعلَ أهلَ الكلام من المعتزلة وأضرابهم يقعون في هذه البلايا هي الفلسفة اليونانية بعد أن تُرجمت حيث تأثر بها من تأثر وفُتِن بها من فُتِن؛ وأراد أن يجمع بين الفلسفة وبين الإسلام، ولما كانت الفلسفة اليونانية مؤسسة على يد مجموعة ممن هم وثنيون - لأن اليونان وثنيون - كانت عندهم هذه الطروحات طروحات أناس متفلسفة على دين وثني؛ فأراد هؤلاء الذين استقبلوها من بلاد إسلامية ذلك الوقت أن يجمعوا بينها وبين الإسلام؛ فتركوا أشياء كثيرة من دين الإسلام لا ردّة وكفرًا؛ لكن بزعمهم يريدون أن يجمعوا بين الإسلام وبين هذه الفكرة، ولهذا تعرف السبب الكبير في حرص الشرع على أن يُفْصَلَ ما بين المسلم وبين الكافر، قد يتأثر بهذه الخلطة كثير من الناس، تتغير مفاهيمهم وتتغير طرائق معيشتهم مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهذه المحاولات للجمع بين الحق والباطل قديمة وحديثة لا تزال، هذه المقولات التي فيها ردّ على سبيل المثال قد تقدم أن علوّ الله فيه أكثر من ألف دليل، كيف يَردُّ مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هذه النصوص الجلية التي تقدم شيء من ذكرها لأجل هذه المقولة الضالة الزائغة التي قررها المتكلمون في ما سموه بدليل الحدوث الذي أصله من الفلاسفة، لهذا ابتلوا ابتلاء وكأنها - والله أعلم - عقوبة إلهيّة ابتلوا بالحيرة، لأن الذي يُقرِّر ما في القرآن إذا قرأ القرآن انشرح بها صدره أما إذا كان يقرر على خلاف القرآن كلما قرأ القرآن ضاق صدره، لأن القرآن تقريرات جليّة واضحة في إثبات الصفات وهو ينفي الصفات، ولهذا عدد كبير كما ذكر شيخ الإسلام عدد كبير منهم يصابون بالحيرة ويصابون بالندم ويوصون في آخر أعمارهم كالجويني والرازي والشهرستاني وغيرهم يُدّون، ذكر ذلك شيخ الإسلام وابن القيم وشارح الطحاوية ذكر أنهم ندموا ندمًا شديدًا على ما وقع منهم وأوصى بعضهم بوصية بالكف عن الدخول في هذه المسالك الرديّة من مسالك المتكلمين؛ لأنها مسالك أهواء وضلال، وبعدهم كتب كتابةً ذكر وصية بالرجوع إلى قول السلف وأنه نادم على ما وقع منه وأنه أضاع عمره ويوصي أصحابه بأن لا يشتغلوا بهذه البدع وهذه الضلالات لكن بعد أن ملؤا الدنيا بالكتب التي قرّروا فيها هذه البلايا، بعضهم كتبها عند الموت نسأل الله أن يعفو عنا وعن كل مسلم، لكن البلاء في هذه الكتب الموجودة ولا تزال تقرر بعضها مما يزيد على ألف سَنَة لا يزال يُقرر ويُحفظ مع أن صاحبه تراجع عنه وكتب كتابةً يؤوب إلى الله عزّ وجلّ مما قرّر فيه، السبب هو هذا أن القرآن العظيم مليء بالإثبات وهو يريد أن ينفي، السُّنَّة مليئة بالإثبات وهو يريد أن ينفي، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وهو صادق في شهادته لكنه في

زعمه يريد أن يُنَزِّه الله تعالى كما تقدم لكن بهذه الطريقة الرديّة والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(١)، ولهذا الكتابة التي كتبها الرازي في أحسن كتاب ألفه وهو كتاب أنواع اللذات وهو من آخر ما كتب تبين لك هذا يقول: (جربت الطرق الكلامية والطرق الفلسفية فلم أجدها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن)، سبحان الله العظيم، هل يمكن أن يكون هناك احتمال أن يوجد طريقة أفضل من طريقة القرآن - في آخر كتاب كتبه - ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٢)، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(٣)، وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٤)، يعني قول أهل السُّنَّة بالجمع بين النفي والإثبات، قال: (ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)، يقول: الذي يجرب مثل ما جربت ويقرأ مثل ما قرأت ويقف على ما وقفت عليه من مقولات الناس وكلامهم يعرف كيف المعرفة التي وصلت إليها الآن ثم ذكر أبياتًا من الشعر عجيبة يقول فيها:

(نهاية إقدام العقول عقال *** وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا *** وحاصل دنيانا أذىً ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمَّعْنَا فيه قيل وقالوا)

فهذا الذي حصلناه، لأن مقولات أهل الكلام والفلسفة قائمة على قال أرسطو وقال أفلاطون وقال الرازي وقال أفلاطون وقال الفارابي وقال الكِنْدي وقال عبد الجبار المعتزلي وقال الجبّائي وقال فلان هذا الذي جمعناه.

(ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم قد رأينا من رجال ودولة *** فبادوا جميعًا ملحدين وزالوا

وكم من جبالٍ قد علت شرفاتِها *** رجالٌ فزالوا والجبال جبال)

الرجل يفرح فوق الجبل فيكون فوق الجبل كأنه الآن هو متسور عليه يزول الرجل والجبل جبل، فذكر في نهاية عمره أن الطريق الصحيح هو طريق القرآن ولا شك هذا الأمر المعروف لكن فُتِنُوا – نسأل الله أن

(١) البقرة: ١٤٠.
(٢) طه: ٥.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) الشورى: ١١.

يُعيذنا وإياكم من الفتن – فتنوا بهذه الطرائق وظنوا أن فيها الصواب ثم رجعوا في آخر أعمارهم إلى طريقة القرآن، وإلا من يستطيع أن يقرّر أن الله ليس بالعلوّ وهو يقرأ هذه النصوص العظيمة؟ حتى وهو يصلي إذا وضع جبهته ساجدًا والسجود كما تعلم هو أشد ما في الصّلاة نزولًا لأن الركوع والقيام والجلوس هي درجات متفاوتة لكن وضع الجبهة على الأرض هذا أشد ما يكون في السفول والنزول، ولهذا كان فيه من التواضع لله عزّ وجلّ الشيء العظيم قال عنه النّبيّ صلّى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ماذا يقول الساجد؟ سبحان ربي الأعلى حين وضع جبهته وهو ساجد، وهم يصلون يدعون ربهم المغفرة والرحمة إذا وضع جبهته في السفل نازلًا وهذا المتناسب مع العبد المسكين الضعيف تذكر علوّ ربه فقال: سبحان ربي الأعلى، فأدلة العلوّ كثيرة، فلما كابروا هذه المكابرة - ومما كابروا دليل الفطرة - يصرّون على هذا، هكذا دليل اللغة كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من أن العرب تقول: سرنا والقمر معنا فيكون معهم بالمصاحبة لكنه في العلوّ.

يقول رحمه الله تعالى: بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، لا شك أن القمر كبير بالنسبة إلى غيره؛ لكن بالنظر إلى مخلوقات أخرى فالقمر صغير، هو أصغر من السماوات وهو أصغر من الكرسي وهو أصغر من العرش، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه رب العالمين فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم، فما دام هذا قد جُعِلَ مثالًا للمخلوق وهو القمر فالله عزّ وجلّ أجلُّ وأعلى وأرفع سبحانه وتعالى، فهو سبحانه فوق عرشه، ومع ذلك هو رقيب على خلقه يعلم ما توسوس به نفوسهم سبحانه وتعالى، مهيمن عليهم شاهد عليهم مطلع إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، لأن معاني ربوبيته ماذا تقتضي؟ تقتضي الجمع بين كونه عليٌّ فوق خلقه وقربه من عباده سبحانه وتعالى وتصريف شؤونهم.

ثم قال رحمه الله: وكل هذا الذي ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته، كله حق لا يُحتاج إلى أن يُفهم فهومًا فاسدًا، لا يُحتاج إلى تحريف بحيث يُحرّف على طريقة المتأولين، ولكن في الوقت نفسه يُصان عن الظنون الكاذبة، فالإنسان قد يتوهم وهمًا مثل أن يُظن أن ظاهر قوله في السماء أن السماء تقلُّه أو تُظِلُّه، يقول: وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، ما السبب؟ يقول: السماء من أمسكها؟ سبحانه وبحمده، الله سبحانه هو الذي يمسك السماء، والكرسي وهو موضع القدمين كما ثبت عن ابن عباس رضي

الله عنه وعن أبي موسى رضي الله عنه العرش في اللغة هو سرير الملك قد استوى عليه الله عزّ وجلّ استواء يليق بجلاله ويليق بعظمته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (والكرسي موضع القدمين)، وكذلك قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما جميعًا، وهذا لاشك أنه لا يقال من قبيل الرأي والتَّوَهُّم والخرص، لا شك أن هذا لا يمكن؛ أن يُفسر هذان الصحابيان الجليلان هذه الآية ويثبت هذا عنهما إلا بتوقيف من النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام.

قال: فإن الله تعالى قد وسع كرسيُه السموات والأرض، هذا الكرسي تقدم أنه وسع السماوات والأرض فهو محيط بالسماوات والأرض، والله تبارك وتعالى هو الذي يمسك السماوات والأرض فهو ليس بمحتاج لا للسماوات ولا للعرش ولا لشيء سبحانه، بل كل عباده وكل مخلوقاته محتاجة إليه تعالى.

قال: وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فالذي يمسكهما السماوات السبع والأرضين السبع أن تزولا هو الله عزّ وجلّ فليس الله تعالى بمحتاج لا للسماوات ولا للأرض ولا للكرسي ولا للعرش ولا لشيء عزّ اسمه، ثم ذكر قوله تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(١)، السماء لولا إمساك الله تعالى لها لوقعت على الأرض وفيها من الأجرام العلوية شيء عظيم لا يمسكها إلا الله تعالى ولو سقطت على الأرض لأهلكت من في الأرض ودمّرت الأرض، لكن الله تعالى يمسك السماوات ويمسك الأرض أيضًا سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾(٢)، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٣)، ثم إن السماء إنما تكون بأمره تعالى فإن مَرَدَّها إليه سبحانه، لهذا أورد ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾(٤)، فليس الله تعالى بالمحتاج لا لسماء ولا لأرض ولا لشيء سواها.

ثم قال: وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب سبحانه، كما جمع ذلك بقوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٥)، وقوله صلّى الله عليه وسلّم «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وما ذُكِرَ في الكتاب والسُّنَّة من قُربه ومعيَّته لا ينافي ما ذُكِر من علوّه وفوقيّته، فالله

(١) الحج: ٦٥.
(٢) فاطر: ٤١.
(٣) الحج: ٦٥.
(٤) الروم: ٢٥.
(٥) البقرة: ١٨٦.

تعالى فوق جميع خلقه في السماوات ومع ذلك فإنه يُثبت إليه سبحانه وتعالى العلوّ وفي الوقت نفسه يُثبت له أنه يقرب ويدنو من عباده كيف شاء سبحانه.

لا ينافي ما ذُكِرَ من علوّه وفوقيّته ما ذُكر من قربه ومعيته سبحانه وتعالى، والسبب أنه سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١)، لا يقاس بخلقه كما تقدم، ثم إنه ولهذا قال في نهاية الكلام فإنه تعالى عليّ في دنوه، عليٌّ أي عال في دنوه إذا دنا من خلقه، قريب في علوّه كما أنه عزّ وجلّ في أعلى العلوّ فهو قريب، كل هذا حق وهو مِنْ عند الله عزّ وجلّ وما كان من عند الله فلا يمكن أن يتناقض، هذا أمر، ثم إن الله تعالى كما قلنا لا يُقاس بخلقه، فالقرب والعلوّ يجتمعان فيه عزّ وجلّ لعظمته، وهذه السماوات على كِبَرِ خَلْقِها ليست شيئًا أمام عظمته تبارك وتعالى، فلا يقال فيمن هذا بعض عظمته: السماء والأرض قد وسِعَها الكرسي - الذي هو موضع القدمين - وتقدم أن الكرسي بالنسبة للعرش مثل حلقة ألقيت في فلاة في بريةٍ؛ فمخلوقات الله هذه عظيمة هائلة، وهذا دليل على عظمة مَنْ خلَقَهَا فإن عظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق، فليس الله سبحانه وتعالى بمحتاج لا للسموات ولا للأرض ولا للعرش ولا للكرسي كما تقدم وهو مع ذلك يجتمع في حقه أنه فوق سماواته وأنه يدنو من خلقه ويقرُب كيف شاء سبحانه، فهو سبحانه على عرشه كما ذكر ويقرُب ويدنو من خلقه كيف شاء سبحانه وبحمده، ولهذا كما قلنا ختَمَ كلامَه بقوله عليّ في دنوه قريب في علوه، نعم.

(١) الشورى: ١١.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً

وَمِنَ الإِيمَانِ بالله وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ الله، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وسلّم هُوَ كَلامُ الله حَقِيقَةً، لاَ كَلامُ غَيْرِهِ، وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلامِ الله، أَوْ عِبَارَةٌ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ الله تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

وَهُوَ كَلامُ الله؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ الله الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلاَ الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

.....

قرّر في هذا ما قرَّرَه أهلُ السُّنَّة من أن القرآن كلام الله، وعندنا إضافة، مضاف ومضاف إليه، كلام الله، فهو كلام الله تعالى وليس كلام غيره، ثم إنه مُنَزَّل كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ﴾(١)، وكما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾(٢)، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾(٣)، كثيرة الآيات الدالة على أنه نزل من عند الله، غير مخلوق: تقدم الكلام على كونه؛ لما كان الكلام صفة من صفات الله وليس في صفات الله قطعًا شيء والقرآن من كلام الله يتعين أن نعتقد أن القرآن غير مخلوق لأن الله تعالى ليس منه شيء مخلوق.

قال: منه بدأ، أي أن الله ابتدأ الكلام به، هو الذي تكلم به عزّ وجلّ، فمنه بدأ الكلام سبحانه، وإليه يعود: إليه يعود، جاء في الحديث أن القرآن في آخر الزمان يُسرى عليه فلا يبقى منه شيءٌ في الصدور ولا في السطور - نسال الله العافية والسلامة - وهذا في آخر الزمان، لا يبقى شيء في السطور مكتوب ولا يبقى شيء في السطور محفوظ، يُسْرَى عليه، وهذا في آخر الزمان يفسد الناسُ الفسادَ العام - عياذًا بالله - فيُهجر القرآنُ، والقرآن أعظمُ وأجلُّ من أن يبقى بين قومٍ لا يقدرونه حق قدره ولا يقومون به؛ فيرفع، فلهذا قال: (منه بدأ وإليه يعود)، وهذا من الفتن العظيمة الهائلة، الدنيا بدون القرآن لا تساوي شيئا لكن لفساد الناس،

---

(١) الشعراء: ١٩٣، ١٩٤.
(٢) الكهف: ١.
(٣) السجدة: ٢.

فإذا فسد الناسُ الفسادَ العام الهائل هذا لا يبقى للقرآن موضع، لأن القرآن موضع نزل هداية للناس، فإذا لم يهتدوا به جميعًا ولم يوجد ولا طائفة غير الطائفة التي قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتي» فإن القرآن أجلّ وأرفع من أن يبقى في صدور الناس أو في السطور وهم قد هجروه بالجملة، وإليه تعالى يعود.

النتيجة أن الله تكلم به حقيقة، لأنه من الله بدأ، ولأنه كلام الله، ولأنه غير مخلوق، لأن صفة الله تعالى غير مخلوقة، والقرآن من كلام الله، إذًا فالله تعالى هو الذي تكلم بالقرآن حقيقة، هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلّى الله عليه وسلّم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، قد يسأل طالب العلم وهل في الأُمَّة في أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من يشهدون أن محمدًا رسول الله من يقول: إن هذا القرآن كلام غير الله؟ بكل أسف نعم، وهي مقولة المتكلمين الذين ضلّوا ضلالًا مبينًا في أمْر القرآن، ومنه نشأت أصلًا الفتنة التي أثارها المعتزلة بدعواهم أن القرآن مخلوق، لأن المعتزلة تعتقد أن الله تعالى ليس له صفات؛ وأن صفاته عياذًا بالله مخلوقة، وهي مقولة شنيعة جدًا، ووقف كما قلنا أهل العلم لهم الموقف العظيم ورأوا أن المسألة مسألة كفر أو إيمان، لأن القول بأن القرآن مخلوق نشأ عن مقولة المعتزلة القذرة الخبيثة أن كلام الله مخلوق، فبناءً عليه قالوا: إن القرآن ما دام الكلام قد خلقه الله؛ فإن القرآن مخلوق، ولهذا قلنا: إن المسألة مسألة كفر وإيمان وأجمع أهل السُّنَّة على أن من قال: إن القرآن مخلوق فإنه يكفر، وذكرنا كلام اللالكائي وما ذكره من الإجماع في كتابه وقَبْلَهُ الدارقطني ذكروا إجماع أهل العلم على أن من قال: إن القرآن مخلوق فإنه يكفر، من أين جاءتنا هذه البلية؟ تقدم أن الفلسفة اليونانية لما تُرجمت كان من ضمنها بلية من البلايا التي اقتنع بها المتكلمون - طويل الكلام فيها - سمَّوها حلولَ الحوادث، وقالوا: إنهم بناءً على هذا ينفون عن الله تعالى الصفات، فالمعتزلة نفوا عن الله تعالى جميع الصفات بناءً على هذا الدليل، والجهم بن صفوان بناءً على هذا الدليل نفى عن الله جميع الأسماء وجميع الصفات، والكُلَّابية نفوا عن الله تعالى الصفات الفعلية وأثبتوا الصفات الذاتية، والعجب كل العجب أن الجهمية والمعتزلة والكُلّابية كلهم متفقون على أن الفلاسفة ضلال زائغون ما فيهم أحد يقول: إنهم هداة مهتدون؛ ومع ذلك استمسكوا بهذه المقولات الفلسفية هذا الاستمساك وأرادوا أن يصبُّوا هذه الكفريات في قالب إسلامي، وأرادوا - كما قلنا - الجمع بين الإسلام وبين الفلسفة كما هو حاصل في هذه الفتن التي جاءت الأُمَّة في السنين الأخيرة من زيغ أهل المشرق

بالشيوعية أو زيغ الغربيين بالديموقراطية أو الترويج الآن الترويج لليبرالية وأن ثمة ليبرالية إسلامية وثمة ديموقراطية إسلامية واشتراكية إسلامية نفس البلاء، وهو الانفتاح ولا سيما من قِبَلِ مَنْ هم ليسوا من أهل العلم، لأن أهل العلم الذين أصلح الله عقيدتهم ورسخت في العلم أقدامهم إذا قرأوا مثل هذه المذاهب الضالة استسخفوها واستثمجوها وردّوها بأعظم الرد، وذكرنا عدة مرات ما قاله أبو الزناد رحمه الله أن قاسم ابن محمد وهو من فقهاء الأُمَّة الكبار ومن أعظمهم سمتًا وأدبًا رحمة الله عليه وهو القاسم بن محمد بن أبي بكر جده أبو بكر وعمته عائشة رضي الله عنها وهو يروي عن عائشة كثيرًا وكان ذا سمتٍ عجيب وذا هديٍ ومن أئمة الإسلام حتى قال عمر بن عبد العزيز: (لو كان الأمر إليّ ما جاوزت في أمر الخلافة أُعَيِّشَ بني بكر) يقول: يستحق أن يكون خليفة، هذا الرجل ذو السّمت وذو العلم وذو العبادة يقول أبو الزناد عنه: (كان إذا سمع شبهات أهل الأهواء ضحك ضحك الفتى) الفتى يتميز بأنه إذا ضحك ليس منه ضحك العقلاء والرجال يضحك ويتبسم، لا ينطلق انطلاقًا شديدًا في الضحك حتى لو طُلب منه لو هُدد يريد إسكاته تأبّى عليك الفتى يستمر يضحك حتى لو ضُرب بعض الأحيان يضحك لأنه فتى، أبو الزناد هذا العالم ذو السّمت لماذا يضحك هذا الضحك؟ وأنت تعلم أن الضحك الذي يثيره إذا سمعت القول ما هو؟ سخافة القول، فالقول عنده في غاية السخف والسفاهة، لأن بعض هذه الأقوال وهذا من أعاجيبها أوّلها لا تحتاج ردّ، أوّلها يرده آخرها، فتعجب من هذا القول الذي يتبناه هؤلاء وقد قال في أول كلامه ما نقضه في آخره، تضحك، فإذا وقف على هذه الشبهات أهل العلم وأهل الرسوخ عرفوا ما فيها من السخف وما فيها من السوء والسفه، لكن إذا وقف عليها ممن لم ترسخ أقدامهم فإنهم يضلّون بها، ولهذا استقدمت المعتزلةُ من الفلسفة هذا الدليل واستقدمه قبلهم الجهمُ بن صفوان وأثّر في الجميع، لهذا قال ابن تيمية رحمه الله: هذا الدليل هو الذي أرْدَاهم بل هدَّ كل قواعد الإيمان، الدليل الذي استقدموه من الفلسفة مع أنهم يقولون: الفلاسفة كفار ويردُّون على الفلاسفة وعلى الفلسفة لكن تبّنوا منهم هذه المقولة، ولهذا لما جاءت الفلاسفة المسمون بالإسلاميين وهذا خطأ ليس في هؤلاء المسمّين بالفلاسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي هؤلاء ليسوا من الإسلام بسبيل لأنهم على طريقة الفلاسفة السابقين وإن انتشرت أسمائهم للأسف بهذه التسمية، لمّا جاء المنتسبون للإسلام من الفلاسفة الذين تبنوا الفلسفة بعيدًا عن الكلام دخلوا مع هؤلاء في نقاشات مطولة وردوا على هؤلاء المتكلمين وحيّروهم، لهذا كان رد شيخ الإسلام رحمه الله

تعالى على الطرفين على هذين جميعًا، لأن المتكلمين ينتسبون للإسلام وأرادوا الردَّ على الزنادقة من الفلاسفة لكن لا يُحسنون الردَّ لأنهم سلّموا للفلاسفة مقولات باطلة يلزمهم التسليم بلوازمها، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (يا محنة الإيمان والقرآن من جهل الصديق وبغي ذي طغيان

وأتى العدو - يعني الفلاسفة - إلى سلاحهم فقاتلهم به في غيبة الفرسان)

أخذ الفلاسفةُ نفسَ السلاح ونفسَ ما قَبِلُوه من فلسفة فقاتلوهم بنفس السلاح (وأتى العدو إلى سلاحهم فقاتلهم به في غيبة الفرسان، يا محنة الإيمان والقرآن من جهل الصديق وبغي ذي طغيان)، فقيّض اللهُ تعالى شيخَ الإسلام رحمه الله تعالى فنقض عليهم المنطقَ ورد على الفلاسفة ردودًا عظيمة وردّ على ابن رشد وعلى أمثاله وقمعهم قمعًا عظيمًا رحمة الله عليه، وردّ أيضًا على فروع هذه المقولات الموجودة عند المعتزلة وعند الجهمية وعند فروع الجهمية من الأشعرية والماتريدية ردّ عليهم ردودًا محكمة رحمه الله تعالى، وكان يُردد رحمه الله تعالى أن المتكلمين بِرُدُوْدِهِم على الفلاسفة؛ لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا، لا هم نصروا للإسلام نصرًا سليمًا وفق أصول دقيقة ولا هم بالذين كسروا مقولة الفلاسفة، مقولة الفلاسفة خطرة جدًا لأن مقتضاها عدم الإيمان بالله تعالى ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله، هذه هي حقيقة مقولة الفلاسفة، فأرادوا أن يأخذوا منهم مثل هذه المقولات وأن يبقوا على الإسلام فأتى الفلاسفة فقاتلوهم بنفس المقولات التي تكلموها، ولهذا كانت المحنة كبيرة جدًا بالمتكلمين والمعتزلة وأضرابهم، كانت كبيرة جدًا عَبْر الأُمَّة وهي من أكثر الفرق الكلامية هي من أكثر ما شقّق الأُمَّة، من أكثر ما شتت الأُمَّة الفرق الكلامية.

ثم قال رحمه الله تعالى: هذا كله يعود إلى قولنا القرآن هو كلام الله تعالى حقيقة لا كلام غيره، لأن الذي يقول: إن القرآن ليس كلام الله معلوم أنه من الكفار، ولهذا قال الله تعالى في كلام الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(١) ردَّ عليه تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾(٢) الآية، فالعجيب أنه وُجِد في المنتسبين إلى الأُمَّة من يقول: القرآن الذي بين أيدينا هذا ليس كلام الله بل كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! كلمة عجيبة جدًا أن يقولها من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، المعتزلة قالت: إن القرآن

(١) المدثر: ٢٥.
(٢) المدثر: ٢٦، ٢٧.

كلام الله لكن ليس صفة له بل خلق - عياذًا بالله - كلامًا سماه القرآن، ولا يكون في هذه الحالة وصفًا لله تعالى، يقولون: إنه مخلوق، بناءً على هذا يكون مخلوق، وإذا قالوا: إنه كلام الله؛ فإنهم يقولون: إن الله تعالى خلق كلامًا بمعنى أنه ليس صفة من صفات الله تعالى، ولهذا قال بعدها: ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة، هذان القولان الرَّدِيّان؛ الأول: قول الكُلَّابية يقولون: إن القرآن حكاية، والقول الثاني: قول الأشعرية يقولون: إن القرآن عبارة، ما المراد بالحكاية؟ الشبهة أتت من عند ابن كلاب – عبد الله بن سعيد بن قطان - حيث قال: إن القرآن معنىً قائم بالله عزّ وجلّ وجبريل حكى المعنى القائم بالله، فالقرآن ألفاظ جبريل حكى الذي في نفس الله، وبالتالي تكون هذه الأحرف ليست كلام الله - نسأل الله العافية والسّلامة -، الأشعرية بعده قالوا: القرآن لا يقال: عنه إنه حكاية ولكن يقال: إنه عبارة عبّر عن ما في نفس الله، من الذي عبّر؟ منهم من يقول: إن الذي عبّر جبريل ومنهم من يقول: الذي عبّر محمد صلّى الله عليه وسلّم، حاصل الكلام على القولين هذين أن القرآن الذي نقرأه ليس كلام الله؛ وأن هذه الحروف وهذه الألفاظ ليست من عند الله! مِنْ عند مَنْ؟ مِنْ عند البشر، مقولة عظيمة جدًا، وهي واضحة البطلان لأن الله خصّ القرآن بأحكام يقرّرونها هم بأنفسهم، فعلى سبيل المثال: القرآن لا يجوز أن يقرأه الجنب، القرآن لا يجوز أن يُمسّ المصحف - على القول الصحيح - من قِبَلِ من أحدث حدثًا أصغر أو أكبر، لِمَ؟ لأنه كلام الله، هم يُقرّرون هذا في كتب الفقه، ثم يقولون: إن هذا القرآن ليس كلام الله - الذي بين أيدينا الذي هو الحروف - وإنما الحروف عبّر بها جبريل أو محمد صلّى الله عليه وسلّم، قال أهل العلم من أهل السُّنَّة: أرأيتم جريمة الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(١) ما فرقكم عنه؟ ألم يقل عدو الله إن هذا القرآن جاء به بشر هو محمد؟ أنتم الآن تقولون: إن محمدًا صلّى الله عليه وسلّم هو الذي جاءت من عنده الألفاظ والمعنى عند الله؛ فالألفاظ من محمد، لهذا قال عثمان ابن سعيد وأمثاله من أهل العلم: ما فرق قولكم عن قول عدو الله هذا؟ ما دمتم تقولون - نسأل الله العافية - ما دمتم تقولون: إن القرآن من عند محمد ألفاظه، ولهذا يأتينا أن القرآن بلفظه ومعناه من عند الله تعالى ولا يجوز اعتقاد شيء سوى هذا، ومن اعتقد غير هذا زاغ زيغًا عظيم جدًا، لا شك أن القرآن من عند الله بلفظه ومعناه فربك تعالى هو الذي قال:

(١) المدثر: ٢٥.

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(١) حتى سورة الناس، جبريل ما مهمته؟ جبريل سمّاه الله بالروح الأمين، فهو أمين مستأمن على الوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(٢)، ما مهمة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾(٣)، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(٤)، ثم استدل أهل العلم عليهم بآية عظيمة مرتبطة بالأحكام، لأن ثمة مسائل مشتركة بين العقيدة وبين الفقه، بين العقيدة وبين الأصول، بين العقيدة وجملة من العلوم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾(٥)، معنى الآية أن الكافر المحارب إذا أرادنا أن نُجيره فقال: أنا من بلد محارب؛ وأنتم تقولون قد نزل عندكم كتاب من عند الله عزّ وجلّ، أنا أريد أن آتي إليكم وأسمع الدين وهذا الذي نزل على نبيّكم من عندكم فإن قومي كفار، وأنا أعلم بأن الله سينزل كتابًا وسيرسل رسولًا مما أجده في التوراة والإنجيل أتركوني حتى آتي إليكم آمنًا فأسمع هذا الذي قلتم إنه نزل على نبيّكم؛ فإن كان هو الذي أجده في التوراة والإنجيل آمنت وصرت معكم لكن الآن بيني وبينكم حرب، أجيروني أمنوني، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾(٦)، وهذا يدل على أن القرآن بلفظه ومعناه من عند الله، لأنه قالوا: إن القرآن معنى قائم بالله عزّ وجلّ وهذه الحروف ليست كلام الله! الله تعالى أمر أن يُؤتى بهذا المستجير حتى إذا يصل إلى بلاد المسلمين ليسمع كلام الله يعني ليُقرأ عليه القرآنُ، فإذا قُرِءَ عليه القرآن وقيل: هذا كلام الله تعالى؛ فإما أن يُسْلِمَ فيكون واحدًا من المؤمنين ويدخل إلى حاظرة بلاد الإسلام؛ وإما أن يأبى قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(٧) ردّه إلى مأمنه وهو بلده الذي جاء منه، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ﴾ يقول السلف: ممن يسمع؟ أيسمع المعنى الذي تقولون في نفس الله، يسمع الكلام الذي يُقرأ عليه مما هو ألفاظ تُقرأ عليه ولها معاني هي من عند الله أضافها الله تعالى هذه الإضافة حتى يسمع كلام الله، هم يقولون: القرآن معنى غير مسموع، والله يقول: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ﴾ ولا

(١) الفاتحة: ٢ - ٤.
(٢) الشعراء: ١٩٣، ١٩٤.
(٣) الشورى: ٤٨.
(٤) النحل: ٣٥.
(٥) التوبة: ٦.
(٦) التوبة: ٦.
(٧) التوبة: ٦.

يُسمع إنما يُقرأ، ولهذا قلنا: إن موسى عليه السّلام سمع الخطاب من الله تعالى، لأن كلام الله تعالى بحرف وصوت، وناداه تعالى وناجاه، ثم المناداة الكلام من بُعد والمناجاة الكلام من قُرب، ولهذا لَمَّا سمع الخطاب عليه الصّلاة والسّلام لَمَّا سمع الخطاب رد الجواب ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(١) فسمع الكلام فرد قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾(٢) الآيات إلى آخرها، فسمع، فلا شك أنه مسموع لأنه ألفاظ تسمع، ونادى الله تعالى به موسى، والله تعالى سَمِعَ جبريلُ منه القرآنَ وأنزله إلى محمد، مهمة جبريل البلاغ ومهمة محمد صلّى الله عليهم وسلّم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين البلاغ، والقرآن كلام الله بلفظه ومعناه، فإذا قال: إنه من عند غير الله فقد أعظم الفرية على الله تعالى، قيل: إن القرآن ليس كلام الله! نسأل الله العافية والسّلامة، أمر عجيب جدًا أن يُوجد في الأُمَّة من يقول هذا! في غاية الغرابة، لكن أعاذنا الله وإياكم من الشبهات، الشبهات تجعل المستحيل ممكنًا، تجعل الخبيثَ طيبًا، تنقلب القلوب - نسأل الله العافية والسّلامة – وإلا من يقول هذا الكلام، لا كلام المعتزلة والجهمية ولا كلام الأشعرية ولا كلام الماتريدية الذي أصوله من الكُلَّابية، ولهذا كان موقف السلف من ابن كُلَّاب موقف شديد جدًا، وحذّر منه السلف رحمهم الله تحذيرًا عظيمًا حتى إن من أصحابه الحارث المحاسبي الذي تلقى عنه، الحارث بن الحاسبي عفا الله عنه؛ أمر الإمام أحمد رحمه الله بهجره، استمر مختفيًا عن أهل السُّنَّة حتى توفي وأخرج من بيته، لأن مقولاته هي مقولات ابن كُلَّاب، ابن كُلَّاب مقولاته أسهل بكثير من مقولات المعتزلة ومقولات متأخري الأشعرية، الخلط في هذا شديد، ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يقول عن الحارث المحاسبي يقول: الحارث أسد ما تدري متى يُهاجم الناس، حذروا من الحارث أشد التحذير لأنه تبنى مقولات ابن كُلَّاب، ابن كُلَّاب أسهل من المعتزلة، فلما سُلط على أهل السُّنَّة المعتزلةُ واستنصروا بالخلفاء الثلاثة من بني العباس وقف أهل السُّنَّة هذا الموقف، لأن الكلام خطير للغاية، ولأن مسألة كلام الله هي من المسائل الكبيرة في الفرق بين السُّنِّي والبدعيّ، إذا قال لك عقيدتَه في القرآن يتضح لك هل هو جهمي أو معتزلي أو أشعري أو ماتريدي أو متأثر بهذه الطوائف أو سُنِّيّ لأنه من مسائل المايزة، فمسألة القرآن من أعظم المسائل، ولا يكاد يوجد لا نعلم مسألة امتحن فيها علماء السُّنَّة امتحانًا عامًا مثل مسألة الكلام، فإنهم وقفوا فيها لعلمهم رضي

(١) طه: ١٧.
(٢) طه: ١٨.

الله تعالى عنهم بخطورة مقولة الجهمية والمعتزلة في موضوع الكلام، ثم تفرعت عليها فروع أخرى حتى صارت الأقوال في الكلام تسعة مذاهب، وليس ثمّة حق إلا في أن القرآن - كما تسمع - كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله تعالى به حقيقة بحرف وصوت، هذا هو المعتقد الصواب فيه، أما أن يقال: إنه حكاية لكلام الله؛ فمعناه أن القرآن ليس كلام الله هذا معناه وإنما يحكي كلام الله، وإذا قيل: إنه عبارة يعني عُبِّر بألفاظ عن الكلام التي أراد الله تعالى أن يُقال للعباد، وهذا كله باطل، لا شك أنه أبطل الباطل.

ثم قال رحمه الله تعالى: بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك على أن يكون كلام الله حقيقة، أنت الآن إذا قرأت قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، هذا كلام الله، ماذا فعلت أنت؟ قرأتَ كلامَ الله عزّ وجلّ، إذا كتبته في المصاحف، القرآن كلام الله، كونك تكتبه؛ تقول: أنا أكتب كلام الله، ولهذا تقول: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾(٢) هذا كلام الله ليس كلامي، لِمَ؟ لهذه القاعدة، فإن الكلام إنما يُضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قال مُبلغًا مُؤديًا، فإذا أنت نقلت كلامًا لأحد وقلت: قال فلان من أهل العلم، الكلام هذا ليس كلامك؛ وإنما أنت بلغت ونقلت هذا، حتى لو كان شعرًا من الأشعار فتقول قال فلان من الشعراء، هذا البيت الذي أوردته ليس لك وقد لا تكون شاعرًا ولا تعرف الشعر أصلًا، تقول: هذا كلام الشاعر فلان، فقولك مثلًا في كلام ابن القيم رحمه الله حين تقول: (ولقد تقلد كفرَهم خمسون في عشرٍ من العلماء في البلدان)، لو قال أحد: هذا البيت قوي؛ فأنت تعرف الشعر! هذا قاله ابن القيم، دائمًا الكلام يُضاف إلى من قاله مبتدئًا، أما من نقله فقال: قال فلان؛ فكيف يكون كلامه نفسه، بل لو قال: إنه كلامي لكان كاذبًا، لو قلت: إني أقول ولقد تقلّد كفرَهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان؛ يقول هذا كلام ابن القيم قبلك بمئات السنين، كيف تقول إنه كلامك؟ فأنت الآن تقوله ناقلًا عن ابن القيم، إذًا الكلام يُضاف إلى مَنْ؟ إلى من قاله مبتدئًا، هو الذي قاله ابتداءً، ولهذا قلنا: إن القرآن منه بدأ سبحانه، أما كون جبريل ينزل به؛ فجبريل قال ما قال الله، محمد صلّى الله عليه وسلّم يُبلغه للناس، محمد صلّى الله عليه وسلّم قال ما أبلغه جبريل عن الله، أنت الآن تقرأ القرآن وتقول: القرآن كلام الله عزّ وجلّ،

(١) الفاتحة: ٢.
(٢) النساء: ١.

الله تعالى قال كذا، فلا يُضاف القرآن إليك أنت، إنما يُضاف إلى من قاله مبتدئًا، وهكذا كل كلام، كل كلام يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤدِّيًا، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، المعنى من الله والحروف من الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان لحروف القرآن مكانة، من قرأ حرفًا من كتاب الله - وهذا نص صريح - القرآن حروف، فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، هو حروف، تكلم الله تعالى بها، وسمعها جبريل عليه الصّلاة والسّلام، وبلّغها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبلّغها النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم للأُمَّة، وأنت الآن تُبَلِّغُهَا؛ فتقول: قال الله، وتُعَلِّم القرآن، وتُعَلِّم معانيه، يأتي مَنْ علمتَه فيعلم من بعده، كل هذا تبليغ عن كلام الله وليس كلامي ولا كلامك ولا كلام من قَبْلَنا ولا كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا كلام جبريل، بل هو كلام الله لأن الكلام يُضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا، هذا دليل واضح.

ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف، لأن المعتزلة تقول: إن القرآن حروف خُلقت فسماها الله تعالى كلامًا، الكُلَّابية وورثتهم الأشعرية تقول: إن القرآن الذي يُنسب إلى الله هو المعنى دون الحروف، فيقال: القرآن كلام الله بلفظه ومعناه ومن قال سوى هذا فلا شك أنه قد زاغ وضل في مسألة القرآن.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَوَاضِعِ الرُّؤْيَةِ

وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى.

.....

ذكر رحمه الله تعالى الرؤية أيضًا مرة أخرى، مسألة الرؤية أيضًا من المسائل العظام، هو خصّ رحمه الله كما ترى خصّ بعض المسائل بأن رجع إليها وعاد إليها بعد أن تكلم إجمالًا عاد وركز عليها مرة أخرى لعظم قدر هذه المسائل؛ مسألة القرآن ومسألة الرؤية وبعض المسائل التي ذكرها.

دخل فيما ذكرناه يعني من الإيمان بالله عزّ وجلّ الإيمانُ به وبكتبه وملائكته ورسله، مما يدخل في هذا الإيمان الإيمانُ بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عَيانًا أي معاينة بالعين بأعينهم بأبصارهم كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وهذا كما قال عليه الصّلاة والسّلام بنفسه لَمَّا سألوه: هل نرى ربنا؟ قال: «هل تضامون برؤية الشمس صحوًا ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، الشمس إذا كانت صحوًا ليس ثمة سحاب؛ فإنها ترى، قال: «هل تضامون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك»، يعني كما أنكم ترونها جلية واضحة لا تضامون كما قلنا بضم التاء وتخفيف الميم لا تضامون أي لا يصيبكم ضيمٌ وهو الظلم أو بفتح التاء والميم المشددة لا تضامّون من الضم لا ينضم بعضكم إلى بعض لأن الذي ينضم إذا أردت أن ترى شيئًا أن تُري صاحبك شيئًا فإنك تضمه تقول: تعال انظر، يعني إذا كان شيئًا صغير الحجم، أما القمر فلا يضام الناس في رؤيته يرفعون أبصارهم لا يحتاجون أن يتضاموا ولا يصيبهم ضيم بأن يظلم بعضهم بعضًا بأن يحول بينه وبين القمر، القمر ارفع رأسك وتراه، قال: «فإنكم ترونه كذلك»، هذا من ضمن أحاديث كثيرة جدًا صحيحة عنه عليه الصّلاة والسّلام كما قلنا وذكرنا موضوع الرؤيا وما صُنِّفَ فيه في السابق.

قال: وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته؛ يرونهم سبحانهم وهم في عرصات يوم القيامة، العَرْصَة هي الموضع الواسع ليس فيه بناء، والمراد مواقف القيامة، والمراد مواقف القيامة، ثم يرونه سبحانه

وتعالى بعد دخول الجنة كما يشاء الله، أما رؤية المؤمنين لله عزّ وجلّ في الجنة فإنها محل إجماع عند أهل السُّنَّة كلهم، لا يوجد أحد بتاتًا من أهل السُّنَّة يمكن أن يكون سُنِّيًّا يقول: لا يُرى اللهُ عزّ وجلّ! هذا غير وارد، لكن رؤية الرب في عرصات يوم القيامة، من أهل العلم من يقول: إنه يراه المسلمون والمنافقون والكفار ثم يحتجب عن الكفار، ومنهم من يقول: يراه المؤمنون في العرصات ويراه المنافقون لأنهم في الدنيا الظاهر منهم هو الإسلام فيبعثون في الآخرة كذلك ثم إنه يحتجب عن المنافقين فلا يراه إلا المؤمنون، ومنهم من يقول: لا يراه إلا المؤمنون فقط في العرصات وفي الجنة، أما المنافقون فهم كفار في حكم الله تعالى - المنافقون النفاق الأكبر - هم كفار في حكم الله تعالى، والله يقول: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(١)، فلا يرون الله ولا يرى رب العالمين إلا أهل الإيمان فقط في الجنة وفي العرصات، هذا قول بعض أهل العلم من أهل السُّنَّة، ومنهم من يقول: ظاهر حديث البخاري أن المنافقين يرونه تعالى ثم يحتجب عنهم، قالوا: ولا عجب، فرؤية المنافقين له ليست الرؤية التي يراها المؤمنون، فالمؤمنون يرونه رؤية اللذّة كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «أسألك لذة النظر إلى وجهك» ولكنهم يرونه ثم يحتجب عنهم، لأن المنافقين في الدنيا بين المسلمين ظاهرهم الإسلام، تصلي على ميّتهم، تورث المنافق من قريبه، لا تدري أنه منافق، فيبعثون في الآخرة كذلك لأنهم هكذا كانوا في الدنيا؛ ثم تتبين الحقائق في الآخرة، فيحتجب الرب عنهم، ومنهم من يقول: بل ظاهر النصوص أن المؤمنين والكفار والمنافقين يرون الله تعالى في القيامة جميعًا ثم يحتجب سبحانه وتعالى عن أهل الكفر وعن أهل النفاق؛ فلا يراه إلا المؤمنون، فهي أقوال لأهل العلم، ثم إن أهل الإيمان الذين يدخلون الجنة يرونه تعالى وهذا كما قلنا بإجماع أهل السُّنَّة وفيه الأحاديث الكثيرة التي نوّهنا عنها.

(١) المطففين: ١٥.

مَا يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم نَبِيِّي، وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَاد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(١) وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٢)، وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلاَئِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

.....

ذكر رحمه الله تعالى هنا ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر، وسمي باليوم الآخر لأنه اليوم الذي ليس بعده يوم، هذه الدنيا بعدها يوم، وهي دانية وقريبة جدًا، وزوالها قريب للغاية، أما الآخرة ففيها الاستقرار في حياة دائمة غير منقطعة وغير منقضية البتّة في دوام سرمدي لا ينتهي بتاتًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ

(١) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.
(٢) الإسراء: ١٣، ١٤.

الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)، الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة لا انقطاع فيها، أما حياة تعيش فيها ثلاثين سنة خمسة عشرة سنة عشر سنين وربما مات الإنسان وهو صغير لا يزال يرضع، هذه الحياة سريعة إنما الحياة الحقيقية هي الحياة الباقية التي لا فناء بعدها.

من الإيمان باليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بأمور ثلاث:

الأمر الأول: الإيمان ببعث الأموات، والأموات الذين يبعثون كل هؤلاء المخلوقين على الإطلاق يبعثون، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٢)، الطيور الدّواب الإنس الجن وحتى البهائم وحتى الحشرات كلها تبعث، جميع الأحياء من إنس وجن وطائر وحيوان كلها تبعث ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وفُسِّرَ به أيضًا قوله تعالى - على أحد الوجهين – ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾(٣) ففسر بأنها حشرها أيضا أنه تحشر في القيامة والوحوش بهائم، فيبعث الله تعالى جميع هؤلاء الذين ماتوا لا يعزب عن علمه تعالى شيء من مواضعهم، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾(٤)، فيبعثون يوم القيامة كما يأتي إن شاء الله تعالى، هذا الأمر الأول.

لِمَ يبعثون؟ يبعثون للأمر الثاني الذي تضمنه الإيمان باليوم الآخر وهو الإيمان بالجزاء والحساب، فيحاسبون ويجازون قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٥)، وهذا هو الأمر الثالث، يُجازون ويُحاسبون ثم يستقرون في إحدى الداريين إما أن يكونوا من أهل الجنة وإما أن يكونوا من أهل النار وهذا هو الأمر الثالث الذي يتضمنه الإيمان باليوم الآخر مبدأ البعث ثم الجزاء والحساب، الأمر الثالث الاستقرار في الجنة أو في النار.

يقول رحمه الله في عبارةٍ دقيقة هنا: الإيمان باليوم الآخر، هذا محل إجماع، ما نقول المعتزلة تأباه أو الأشعرية تأباه، لا هذه المسائل ليست مسائل خلاف بين أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله،

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) الأنعام: ٣٨.
(٣) التكوير: ٥.
(٤) ق: ٤.
(٥) الشورى: ٧.

جميع المسلمين يعلمون باليوم الآخر ويقرّون به، فهو من المسائل الإجماعية عند كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله سُنّيّهم وبدعيّهم، من كان على بدعة عظيمة ومن كان بدعته دون ذلك، كلهم يقرّون باليوم الآخر، لكن من الإيمان باليوم الآخر الإيمانُ بكل ما أخبر صلّى الله عليه وسلّم مما يكون بعد الموت، هنا يأتي الخلاف بين السّنّي الحقيقي وبين الضُّلّال من المعتزلة وأضرابهم ممن لا يقرّ بما يكون في القبر من فتنة ومن نعيم ومن عذاب؛ فيقول: أنا لا أكفر باليوم الآخر، لكن اليوم الآخر لا علاقة له بما يكون في القبر، إنما اليوم الآخر بدءًا من البعث إلى دخول الجنة أو النار وهذا أمر متفق عليه، لكن يُخالف في أمر القبر، يقول شيخ الإسلام: من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر، لماذا لأن القبر كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «القبر أول منزلة من منازل الآخرة» القبر جزء من الآخرة أحكامه كلها، ولهذا لا يمكن أن تطلع على ما في القبر، لو أنك فتحته ونظرت إلى أكبر عدو عادى الإسلام فتحت عن قبره لا ترى نارًا ولا ترى عذابًا أبدًا لأن له أحكام أخرى لا علاقة له بتاتًا بالدنيا، وإنما أحواله أحوال الآخرة، بل لو دفن اثنان في قبر واحد أحدهما كافر فاجر والآخر مؤمن تقي لنُعِّمَ المؤمنُ وعُذِّبَ الكافرُ ولا يؤثر نعيم هذا في عذاب هذا ولا عذاب هذا في نعيم هذا، أحكام مستقلة تمامًا ليست مما تحسّه وتراه، ولهذا لا شك أن اليوم الآخر كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «القبر أول منزلة من منازل الآخرة» فهو تابع للآخرة بلا شك.

يقول: مما يؤمنون به ما الذي يكون في القبر، الذي يكون في القبر شيئان:

الأول هو الفتنة، والفتنة المراد بها سؤال الميت عن ربه وعن دينه ونبيّه صلّى الله عليه وسلّم، هذا هو المراد بالفتنة.

والثاني: إما أن يُنَعَّم هذا الميت إذا كان من أهل الإيمان وإما أن يُعَذَّب، فالذي في القبر الفتنة وهي عامة إلا من استثني مثل المرابط في سبيل الله ومثل الشهيد إذا مات والظاهر والله أعلم وهو الذي رجحه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهو أن الأنبياء لا يُفتنون لأنهم عليهم الصّلاة والسّلام يُفتن الناس ويسألون من نبيك؟ فالناس يسألون عن النّبيّ، قال: فالأنبياء أعظم درجة من الشهداء، فالظاهر من النصوص أنهم لا يُسألون لأن الناس يُسألون عنهم وهم في درجة أعظم من الشهداء ومن المرابطين، والشهيد والمرابط لا يُمتحن، وكما قال عليه الصّلاة والسّلام في المرابط: «وأَمِنَ الفتّان» يأمن فَتّان القبر، وغير المكلفين هل يمتحنون؟ ذكر المؤلفُ رحمه الله تعالى أن غير المكلفين لا يمتحنون لأنهم لم يوجه لهم الخطاب في الدنيا، فمن

يموت صغيرًا ومن يكون فاقد العقل، يقول: ظاهر النصوص أيضًا أنهم لا يمتحنون لأنهم لم يجري عليهم القلم أصلًا بالكتابة، والأمر إلى الله عزّ وجلّ سبحانه وبحمده، لكن ما جاء في النصوص استثناء مثل المرابط و الشهيد فهؤلاء يأمنون الفتّان، والأنبياء أعظم درجة وأجلّ من المرابطين ومن الشهداء.

بقي الكلام في أمر غير المكلفين، فيرجح رحمه الله تعالى أنهم لا يسألون لأنه ليس لديهم أعمال يسألون عنها.

يقول: فأما الفتنة فإنهم يسألون في قبورهم فيقال للرجل، الحديث المعروف حديث البراء بن عازب وغيره في أن العبد يُسأل في قبره عن ثلاث مسائل: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فأما الموفق الناجي فإنه يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلّى الله عليه وسلّم، في بعض الأمر روايات أن الملك يسأل هذا الرجل إذا قال نبيي محمد؛ فيقول: «فما علمك؟ يقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت» هذا له مكانة ومنزلة هذا الأثر، الحديث، قراءة القرآن نفعت هذا العبد وكانت من أسباب ثباته، فإنه إذا قال: نبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: ما علمك؟ من أين علمت أنه نبيّك؟ فيقول: قرأت كتاب الله الذي أنزله إلينا وأخبرنا فيه أنه رسول ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾(١)، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾(٢) فآمنت به وصدقت، وهذا يدل على شرف قراءة القرآن وأنها من أسباب الثبات في القبر لمن قرأها عاملًا بهذا الكتاب العظيم، أما المرتاب المتشكك - نسأل الله العافية - والكافر فإنه نسأل الله العافية والسّلامة يقول هذه العبارة هاه هاه - وهي عبارة تدل على التردد وعدم المعرفة - لا أدري، سمعت الناس يقولون قولًا فقلته، هذا عياذًا بالله مباشرةً يُبدأ في عذابه يضرب بمزربّة وهي مطرقة - نسأل الله العافية والسّلامة - من حديد وليست كمطارق الدنيا، فيها من الهول والشدة ما لا يحيط به إلا الله، ولهذا يسيخ في الأرض من شدة هذه الضربة - نسأل الله العافية - لهذا يصيح ويبدأ عذابُه وألمه، نسأل الله العافية، ويستمر عذابُه وما يجده في قبره - على شدته وفظاعته - أخف ما سيناله في النار، نسأل الله العافية والسّلامة ونعوذ بالله من حال المعذبين.

يقول شيخ الإسلام هنا: فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق، نبّه الشيخ ابن عثيمين إلى أن لفظ الحديث الذي في البخاري هكذا «فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) آل عمران: ١٤٤.

الثقلين» هذا اللفظ في البخاري، أما قوله صلّى الله عليه وسلّم «لو سمعه لصعق» هذا ورد في حديث الجنازة أن الجنازة إذا كانت غير صالحة - نعوذ بالله - وحُمِلَتْ على أكتاف الرجال تقول: يا ويلها أين يذهبون بها؟ نسأل الله العافية والسّلامة، وهي قبل دخولها القبر يعني أثناء حملهم عياذًا بالله للهالك هذا الذي سيعذب تقول وهي على النعش يا ويلها أين يذهبون؟ بها يقول صلّى الله عليه وسلّم: «لو سمعه لصعق» لكن هل المعذبون يصيحون؟ لا شك في قبورهم يصيحون أعظم الصياح، ولهذا جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام أنه سمع صوتًا مرة فقال عليه الصّلاة والسّلام: «يهود تعذب في قبورها» نسأل الله العافية والسّلامة، سمع صوتهم وأخبر عليه الصّلاة والسّلام مرةً حادت به بغلتُه فسأل عن قبورٍ كان عندها فأُخبر أنها قبور أناس من المسلمين أو من المشركين؟ فأخبر أنهم أناس من أهل الشرك فحادت به بغلته مِنْ سماعها لصيحة المعذب، نسأل الله العافية والسّلامة فيعذبون عذابًا شديدًا، نسأل الله العافية والسّلامة.

المؤمنون الذين على التوحيد كما أن منهم من يدخل إلى النار ويعذب في النار ثم يُخرج بإذن الله إلى الجنة كما سيأتي عندما يأتي الكلام عن الشفاعة؛ فإن منهم من يعذب في قبره - نسأل الله العافية - وذكر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أصنافًا من المعذبين في قبورهم من المؤمنين منهم - نسأل الله العافية - النّمام، النّمام الذي ينقل الكلام هذا يعذب في قبره، ومنهم من لا يستنزه من بوله، لا يكترث من تطاير رشاش البول على جسمه أو على ثوبه لأن صلاته في هذه الحالة تكون صلاة من لم يحقق شرطها وهو التطهر في البقعة والثوب والبدن لا بد من الطهارة، ينزهها من رشاش البول، هذا لا يكترث، أخبر صلّى الله عليه وسلّم بعذابه، مِنَ الذين يعذبون - نسأل الله العافية والسّلامة - الزناة والزواني يُجعلون في مثل التَّنُّور، حفرة في الأرض - نسأل الله العافية – قال صلّى الله عليه وسلّم: «أعلاها ضيق وأسفلها واسع» فيه - نعوذ بالله من الفضائح - فيه رجال ونساء عراة كما تعرّوا في الدنيا واجترؤا على هذه الفاحشة العظيمة يكونون هكذا، وإذا هم يأتيهم لهب أسفل منهم - الحديث في البخاري - فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوضَوا - نسأل الله العافية - ضجّوا وصاحوا ثم ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا ثم - نسأل الله العافية – يهبطون، ثم يأتيهم اللهب ثانيةً - نسأل الله العافية -،ومن الذين يُعذبون الذين لا يقومون بالقرآن حق قيامه، رأى عليه الصّلاة والسّلام رجلًا يُضرب على رأسه بحجرٍ فيشدق رأسه فيتدهده الحجرُ فيعود إليه الضارب وإذا برأسه قد التئم ثانيةً فيضربه على

رأسه مرة أخرى - نعوذ بالله - فيشدقه وهكذا، قال الملكان للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يُفعل به هكذا إلى يوم القيامة» إن بعض عذاب القبر يستمر إلى القيامة نعوذ بالله نسأل الله العفو والعافية.

هذا أيها الأخوة نعوذ بالله أن ينالنا أو ينالكم، قال: «رجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار» هذا - نسأل الله العافية – قال: طالب علم، نعوذ بالله، طالب علم لكن ما قام بالقرآن كما ينبغي، ما عمل به، نام عنه في الليل ولم يعمل به في النهار، وهذا يدل على أن العلم كما أنه من أعظم أسباب دخول الجنة؛ فإنه قد يكون من أعظم أسباب دخول النار والعذاب، لأنه إذا لم يقم به صاحبه كما ينبغي فإنه يعذب، عذابه نعوذ بالله هذا كما تقدم يُفعل به هكذا إلى يوم القيامة، مما يدل على أنه يستمر عذابه - نسأل الله العافية والسّلامة - هذا من المسلمين قطعًا لأنه ليس من الكفار، الكفار عذابهم أهول ولا يقال في الكافر إنه يأكل الربا، الكافر كفره قد غطى على كل ذنب، ولهذا في الرواية الأخرى لهذا الحديث - حديث سمرة رضي الله عنه في البخاري - أنه قال: «والرجل ينام عن الصّلاة المكتوبة» ويرفض القرآن - نسأل الله العافية والسّلامة - مما يدل على أن الصّلاة المذكورة هي الصّلاة المكتوبة، كالذين ينامون عن الفجر طلبة علم - نسأل الله العافية - أو ينام عن العصر - طالب علم - أين القرآن؟ أين أثره؟ نام عنه في الليل ولم يعمل به في النهار - نسأل الله العافية والسّلامة -، ومن المعذبين أيضًا المرابي، رآه النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كيف يعذب، ومن المعذبين وهذا الذي يخشى على كثير من الناس ممن يُشيعون هذه الإشاعات عبر الشبكة وحتى الإعلاميين وأمثالهم يخشى عليهم هذا الحديث جدًا «يكذب الكذبة تبلغ الآفاق» الكذب كله قبيح، لكن الكذب الذي يبلغ الآفاق وينتشر – ووسائل انتشاره الآن كبيرة جدًا - والذين ابتلوا بالكذب من خلال هذه الشبكة ينتشر، ينتشر الكذب مباشرة إذا كانت الكذبة في بلد ما هي إلا ما نقول ساعات؛ دقائق، وإذا بها في مصر والعراق وبلاد المغرب وفي بلاد المشرق وعند العرب وعند العجم تنتشر بسرعة، وإذا بها كذبة، هذه الكذبة شأنها شديد جدًا، أخبر صلّى الله عليه وسلّم أنه يشرشر شدقه إلى قفاه – الشدق هو جانب الفم - ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه - نسأل الله العافية -، ثم يذهب إلى الجهة الأخرى فيشرشرها أيضًا فيعود وقد الْتَئَمَ القسمُ هذا - نسأل الله العافية - هذا فيعود عليه مرة أخرى، قال: «يفعل به هكذا إلى يوم القيامة» أيضًا هذا الصنف يستمر على هذا إلى يوم القيامة، نسأل الله العفو والعافية، أمور الآخرة والقبور أمورها عظيمة جدًا وهي من أعظم ما يُرقق القلوب، ومن الأمور المؤسفة غفلة كثير من هؤلاء الخطباء عن هذا الموضوع

العظيم، تتعجب، خطيب قد يجلس بعض الأحيان سنوات لا يخطب عن الجنة وعن النار، قد خطب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنفسه عن النار وقال عليه الصّلاة والسّلام في أثناء كلامه في خطبته – ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾(١) – هذا كلام أهل النار مما يدل على أن الخطبة كانت عن النار، وقال عليه الصّلاة والسّلام: («أنذرتكم النار؛ أنذرتكم النار»، حتى لو أن رجلًا بالسوق لسمعه)، فينبغي أن يخطب بها، الخطبة المقصود بها التذكير، وهي فرصة عظيمة، قد يكون عدد الحضور بالألوف، منهم من عنده معصية، منهم من عنده غفلة، منهم قد ينام عن الصّلاة، منهم قد يقع في ربا، منهم قد يقع في زنى، ففرصة الخطيب الكبيرة، كلهم يستمعون إليه، فينبغي تحريك قلوب هؤلاء، لأن المؤمن قريب ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(٢)، ولهذا يُقرأ بـ (سبح) وبـ (الغاشية) في الجمعة لأن فيهما التذكير ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(٣) والله تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤)، فلا تُضاع خطب الجمعة لا تُضاع هي فرصة محدودة في السُّنَّة نحو خمسين خطبة في السُّنَّة، انظر أثرها العظيم، لو أنه قام بها طالب علم كما ينبغي، هذا يعود تائبًا، هذا القاطع لرحمه يصل، العاقُّ لوالديه يبرُّ والديه، المرابي، الذي يقع في الزنى، الذي يقع في تقصير في الواجبات يعود، على الأقل نسبة كبيرة تتوب لأنه يسمع قوارع القرآن والسُّنَّة وكلام السلف؛ فيعود على نفسه فهي فرصة عظيمة، أما إذا قُلبت قلبًا إلى أخبار وإلى كلام وإلى قصص لا تنفع الناس فتضيع الفائدة منها، ولهذا تجد الفرق الكبير جدًا بين خطبة طالب العلم وبين غيره، طالب العلم إذا خطب وأدّى ما ينبغي في شأن الخطبة تجد أثرها عليك شديد جدًا وتجد أثر ذلك، حتى ولو سئلت بعض الصغار؛ قلت: ماذا خطب الخطيب اليوم؟ قال: خطب بكذا وكذا، أثرها كبير جدًا، ولهذا الخطب ينبغي أن تُعَزَّز بالنصوص من القرآن ومن السُّنَّة وتحرص على كلام السلف الصالح، وهكذا المحاضرات، وكذا الكلمات التي تلقى ينبغي أن تكون هكذا، أما أن تكون كلمات عابرة يؤديها وهو لا يدري بالموضوع الذي يتكلم فيه ويتنقل من موضوع إلى موضوع إلى موضوع، ما هيّأ شيئًا، فينبغي أن يُلاحظ، هذا من أعظم ما ينبغي يُركّز عليه أمر الآخرة وما يلتحق به؛ كما قال شيخ الإسلام هنا فيما يتعلق بأمر القبور، ولهذا لاحظ

(١) الزخرف: ٧٧.
(٢) الأعلى: ٩.
(٣) الأعلى: ٩.
(٤) الذاريات: ٥٥.

أهل الفسق وأهل الفجور والليبراليين وأمثالهم يعني ينتقدون الدعاة إلى الله والمصلحين إذا تكلموا في القبر، لأن القبور أثرها كبير جدًا ومؤثرة للغاية، تجعل التي لا تتحجب تتحجب، تجعل صاحب الربا يترك الربا، تجعل المقصر، فلا يردون الناس أن يهتدوا - قاتلهم الله -، يريدون أهلَ الإسلام أن يضيعوا وأن يزيغوا وأن لا تكون مؤثرة هذه خطبة الجمعة، ولهذا خطبة الجمعة لو عُمِلَت كما ينبغي وكما أمر الله عزّ وجلّ لا شك أنها تؤثر تأثيرًا كبيرًا جدًا، عدة موضوعات الناس بحاجة إليها، ومما يُحتاج إليه أمرُ تذكيرهم بالآخرة ومواقفها وما فيها، ممكن أن تتحدث عن القبر وأحواله في خطبة، يمكن أن تتحدث عن الميزان وحده والموقف والحال وماذا سيكون حال الموزون وما الذي يُوزن به في خطبة، الصراط كما سيأتي، الصراط وحده يصلح خطبة، وأن الناس كما سيأتي إن شاء الله تعالى يمشون عليه حسب أعمالهم، وأنك ستكون يا من تسمع هذه الخطبة ستكون أنت والمتكلم يومًا ما على هذا الصراط المعدّ ونحو هذا، أثرها كبير، وليس معنى ذلك أنه لا يُتحدث إلا عن اليوم الآخر، نتحدث عن أشياء كثيرة، منها اليوم الآخر، ومنها الأحكام، ومنها أمور كثيرة، لكن هذا الوضع الحاصل في الغفلة عن اليوم الآخر حتى في الخطب - طبعًا لا شك أن هناك من الأخوة والأفاضل وطلبة العلم الموفقون - لا شك أن منهم من يلاحظ هذا، لكن يلاحظ أن ثمة خطبًا كثيرة تمضي في السُّنَّة وليس فيها هذا التذكير، والله يقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) فينبغي ملاحظة مثل هذه الأمور وملاحظة أمر اليوم الآخر وتحريك القبور به.

بعد ذلك كما قلنا بعد الفتنة يبدأ العذاب أو النعيم يقول رحمه الله: إلى أن تقوم القيامة الكبرى، قوله القيامة الكبرى يعني أنه ثمة قيامة صغرى، وهي قيامة العبد نفسه إذا مات، من مات فقد قامت قيامته، فإذا متّ أنت قامت قيامتك، أما القيامة الكبرى فهي التي تكون بما ذكرنا بالبعث الذي يبعث الله عزّ وجلّ فيه جميع الأموات.

قال: فتعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها، لاحظ مرّة أخرى في كتابه وعلى لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم وأجمع عليها المسلمون، هذه أدلة العقيدة، القرآن والسُّنَّة والإجماع، فيقوم الناسُ

(١) الأعلى: ٩.
(٢) الذاريات: ٥٥.

من قبورهم لربهم - رب العالمين سبحانه وتعالى - على هذا الحال، حفاةً أي بلا نعال، عراةً أي بلا ثياب - غرلًا جمع الأغرل، والأغرل هو الذي لم يختتن، حتى هذه في القلفة التي نُزعت منه في الدنيا ستعود إليه، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(١).

قال: وتدنو منهم الشمس، جاء في الحديث أنها تدنو مقدار مِيل، قيل: إنه المِيل المعروف في المسافة، وقيل أنه ميل المكحلة الصغير، ولهذا يعظم العرقُ جدًا، فمنهم من يلجمه العرقُ، قوله: ويلجمهم العرق، هذا صنف، يكون الناس في حال العرق من هذا الزحام الشديد، ومن قُرب الشمس يكونون على أحوال بحسب حالهم في الدنيا، منهم من يأخذه العرق إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى حقويه - معقد الإزار - ومنهم - نسأل الله العافية - من يلجمه إلجامًا، اللجام هو الذي يجعل على فم الخيل، أي أن العرق - نسأل الله العافية - يصل إلى أفواههم، ومنهم - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم - من يُظلون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله تعالى، فتتفاوت الأحوال في القيامة، الأحوال في القيامة يظهر فيها عجائب، من أعظم ما ينفع في القيامة - نسأل الله الكريم من فضله – الصدقات، فإن العبد في ظل صدقته في القيامة بحسب ما يُكثر من هذه الصدقات يكثر بإذن الله تعالى ظلُّه، و تتبدى أمور وأحوال - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المستورين وأن لا يفضحنا في المفضوحين - تتبدى أحوال وأمور لأناس كانوا على حالٍ في الدنيا فتتبدى أحوال أخرى يعلمها علام الغيوب فيفضحون، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «ينصب لكل غادر لواء عند إِسْتِهِ، يُقال: هذه غدرة فلان بن فلان»، ممن يفضحون أهل الغدر، لأن الغدر من أقذر الصفات، الغادر مأمون قد استراح الناس من شره وإذا به يغدر، فيُفضح في القيامة ويجعل له لواء ويحدد باسمه ويجعل هذا اللواء عند إِسْتِهِ – عياذًا بالله - فضيحة له.

أحوال يوم القيامة - نسأل الله الستر والعافية - ولهذا اقرأ يا أخي في أحاديث القيامة وفي أحوال القيامة؛ فأنها من أعظم ما يُرَقِّقُ اللهُ تعالى به القلب، وترقيق القلب كما عندكم في كتاب الرقاق وغيره، ترقيق القلب يا أخوة لا يكون كيفما يحلوا للإنسان؛ كأن يرققه بطريقة المتصوفة، لا ترقق القلوب بالطريقة الشرعية، لأن ترقيق القلوب هو وفق منهج شرعي، فينبغي أن يُلاحظ هذا، فمن أعظم ما يُرقق اللهُ تعالى به

(١) الأنبياء: ١٠٤.

القلب أمر القيامة والنظر فيها فإذا قرأت قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) أنت منهم، لا تتصور أنهم أناس كأنك تطل عليهم! ستكون منهم، وقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾(٢)، ستكون في وسط هؤلاء، لا تقرأ هذه الآيات كأنك تنظر إلى أمم سواك، هذا مما يُقلل فائدتك، كأنهم جراد أنا وأنت نكون منهم، هكذا يُفهم القرآن، وهذا مما يؤثر، أما إذا كان الإنسان يقرأ القرآن كأنه يقرأ عن أناس ليس منهم تقل، ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾(٣)، فتكون واحدًا من هؤلاء، ما حالك وما وضعك كيف تأتي إلى الله عزّ وجلّ؟ ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾(٥)، تتفاوت، هناك من يأتي فيلقى في النار - نسأل الله العافية -، هناك من يأتي آمنًا لا يَحْزُنُه الفزع، فلاحظ هذا، يقول العبد لنفسه: هل سآتي آمنًا أم سآتي وأُلْقَى عياذًا بالله في النار؟ فينتفع، فينتفع كثيرًا بإذن الله تعالى من قراءة القرآن بهذه الطريقة، أما إذا كان يقرأ القرآن كما يقرأ أحوالَ أناس فيكون لهم كذا وهو ليس منهم؛ لا شك أن هذا يُقلل فائدته جدًا من القرآن.

أخبر بعد ذلك أن العباد تُنصب لهم الموازين، يوضع الميزان، حقيقي لا شك ولا ريب، كفة للحسنات وكفة للسيئات، فمن رجحت حسناته نجا بفضل الله، ومن رجحت سيئاته هلك إلا أن يعفو الله تعالى عنه، كما قال تعالى عنه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٦)، وتنشر الدواوين وهي الصحف هذه التي يُكتب فيها ما قاله العبد، تُنشر أي تفتح، فيقرأها الإنسان ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٧)، كما في الآية فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، الناس في أخذ الكتاب على نوعين اثنين:

الأول: من يأخذه بيمينه، فهؤلاء هم الناجون وهم المؤمنون.

---

(١) المطففين: ٦.
(٢) القمر: ٧.
(٣) القارعة: ٤.
(٤) فصلت: ٤٠.
(٥) الأنبياء: ١٠٣.
(٦) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.
(٧) الإسراء: ١٤.

الثاني: وهو من يأخذه بيساره وهم الكفار؛ من وراء ظهورهم، ليس هناك ثلاثة أصناف، آخذ باليسار وآخذ وراء الظهر وآخذ باليمين، لا، آخذ بيمينه وهم أصحاب اليمين، وآخذ بشماله من وراء ظهره نسأل الله العافية والسّلامة، لأنه لا يريد أن يأخذ كتابه، فيجعل رغمًا عنه في يساره - نسأل الله العافية والسّلامة -، وإن جعلها خلف ظهره، ومنهم صنف - نسأل الله الكريم من فضله - وهم الذين لا يُحاسبون ولا يعاقبون، ليس عليهم أصلًا أيّ حساب.

قال: ويحاسب اللهُ الخلائق، يحاسب اللهُ عزّ وجلّ هؤلاء المكلفين، ويخلوا بعبده المؤمن، هذا صنف من الناجين الذي عنده ذنوب وأراد الله أن يرحمه ويغفر له، فيقرّره بذنوبه، كما في الحديث «أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ حتى إذا ظن أنه قد هلك؛ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» أكمل الله تعالى كرمَه عليه بالستر في الدنيا وبالغفران في الآخرة، نسأل الله الكريم من فضله.

يقول: أما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات، ليس لهم حسنات الكفار، من أهل العلم من قال: إن أعمال الكفار توزن، وهو قول لبعض أهل العلم، واستدلوا عليه أيضًا، ومنهم من قال: إنها لا توزن، واستدلوا بأنها لا توزن بقوله تعالى ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(١)، لكن يتفق الجميع أنهم يقرّرون بأعمالهم، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(٢)، فيُقرَّرون بأعمالهم وتُحصى عليهم وأنهم عملوا كذا وكذا ثم - نسأل الله العافية - يُصار بهم إلى النار.

نقف إن شاء الله هنا وبإذن الله عزّ وجلّ كما قلنا في أول الدرس سنحتاج أن نرجع بعد العشاء لمن أراد من الأخوة إكمال الكتاب، فنرجع، ولعله يتيسر أيضًا يعني قراءة الأسئلة بإذن الله تعالى، ونُتِمُّ الكتابَ اليومَ مع الأسئلة بحول الله تعالى، والله أعلم وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.

---

(١) الكهف: ١٠٥.

(٢) الأنعام: ٣٠.

حَوْضُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَمَكَانُهُ وَصِفَاتُهُ

نُنبه أيضًا على مسألة كثيرًا ما توجد في المساجد، حتى من بعض طلبة العلم، وهي أن المأموم ينبغي أن يتابع الإمام، وأن لا يُسابق الإمام ولا يوافقه، قد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه أن الصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يَحْنُون ظهورهم للسجود – يعني من بعد الرفع من الركوع - حتى يضع النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم جبهتَه على الأرض ساجدًا، فينبغي أن يُلاحظ هذا، ينبغي أن يُلاحظ المأمومُ أن لا يبدأ بالانتقال إلى الركن حتى يصل إليه إمامُه، لأن الإمام قد يكون بطيئًا في حركته، وقد يكون كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «فإني قد بَدُنْتُ»، فينبغي أن يُلاحظ هذا، وأن ينتظر المأموم حتى يصل الإمام إلى موضع الركن ولم يشرع المأموم بعد بالانتقال، فإذا وصل إليه وانقطع الصوت بالتكبير وانتهت الحركة بالوصول؛ فإن المأموم يشرع بعد في متابعة إمامه لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إنما جعل الإمام ليؤتم به».

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى وشيخنا والحاضرين:

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

.....

هذا الكلام عن الحوض، الحوض هو مجمع الماء مما جعل الله تعالى في عرصات القيامة هذا الحوض المورود لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهذا الحوض لما كان من أمور الآخرة كان له هذا الشأن العظيم الذي سمعت، فهذا الحوض ماؤه ليس كالماء العادي؛ بل هو أشد بياضًا من اللبن، هذا من جهة لونه، من جهة طعم هذا الماء أحلى من العسل، والعسل هو من أشد ما يكون حلاءً، لكن هذا أحلى منه، آنيته - الأواني التي يُشرب بها - عدد نجوم السماء، يعني أن نجوم السماء هذه - وهي كثيرة - ستكون الأواني في هذا الحوض بعدد النجوم التي في السماء ولا يحيط بها إلا الذي خلقها سبحانه، هذا الحوض العظيم طوله شهر وعرضه شهر، الشهر يعني من جهة المسافة، إذا كان مثلًا بينك وبين بلد من البلدان مسافة شهر على

الإبل؛ فإن هذه المسافة تكون هي طول الحوض، وهذا يدل على أنه حوض عظيم جدًا، مِنْ يشربْ من هذا الحوض شربة لا يظمأْ بعدها أبدًا، مزية ماءه أيضًا أنه ليس كالماء الذي في الدنيا، فالماء الذي في الدنيا تشرب وتعطش بعده، أما هذا الحوض على هذه الصفة؛ فإن من شرب منه ووَرَدَهُ فإنه لا يظمأ بعدها أبدًا، هذا الحوض - نسأل الله الكريم من فضله – جعلنا الله وإياكم ووالدينا وذرارينا من الواردين إليه، ينبغي أن يُعلم أنه يُذادُ عنه أناس ويطردون طردًا وعلى رأسهم المرتدون، وممن يُذاد عنه أيضًا بعض أصحاب المعاصي - نسأل الله العافية والسّلامة -، فإن من العصاة كما جاء في الأحاديث من يُذادون، يُذادون عن الحوض كما قال عليه الصّلاة والسّلام فيمن يدخلون على السلاطين فيصدقونهم بكذبهم ويعينونهم على ظلمهم، قال: «ولن يَرِدَا عليّ الحوض» يعني هذا الصنف - نسأل الله العافية والسّلامة -، فثمّة معاصي يُمنع أصحابُها من ورودها، وهذا يدل على أن الممنوعين من الحوض تارة يكونون مرتدين كما في قوله عليه الصّلاة والسّلام في الذين يُذادون عن الحوض أنه يُخْبَرُ قال: «إنهم لم يزالوا مرتدين على أدبارهم منذ فارقتهم»، ويُمنع أيضًا العصاة، وهذا يدل على شؤم المعصية - نسأل الله العافية والسّلامة -، هذا الحوض الحاجة إليه كبيرة جدًا لأن الناس كما قال بعض السلف: يُبعث الناس أشد ما كانوا جوعًا وعطشًا، يبعث الناس على هذا الحال، شديد عطشهم، شديد جوعهم، فيكون ورودُ الحوض من أشد ما يكون من الفَرَجِ لهم، فمن ذِيْدَ عن الحوض - عياذًا بالله - ورُدَّ عنه؛ فإن ذلك من البلاء العظيم بالنسبة له، هذا مما يقرُّ به أهل السُّنَّة، وقد ثبتت أحاديثه وجاءت عن عدد كبير جدًا من الصحابة رضي الله عنهم فأحاديثه متواترة، نعم.

الصِّرَاطُ مَعْنَاهُ وَمَكَانُهُ وَصِفَةُ مُرُورِ النَّاسِ عَلَيْهِ

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

.....

تكلم بعد ذلك رحمه الله عن الصراط، والصراط في اللغة هو الطريق من حيث معنى الصراط، وأما الصراط المراد هنا فقد بيّنه رحمه الله بأنه جسر بين الجنة والنار، هذا الصراط يُجعل على متن جهنم – يعني على ظهر النار -، يمُرُّ الناس عليه، المرور على هذا الصراط ليس بقوة الأبدَان ولا بالشباب، وإنما بعد رحمة الله تعالى على قدر الأعمال، وبحسب ثبات المرء في الدنيا على صراط رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكون ثباتُه في ذاك الموقف العصيب حين يَمُرُّ على الصراط.

ولهذا يتفاوت الناس، الناس يتفاوتون في الدنيا في أعمالهم، في لزومهم للسُّنَّة، في إخلاصهم، في عملهم ومحافظتهم على ما أوجب الله، وترْكِهم لما حرم الله، فلما تفاوتوا في الدنيا؛ كان من زاد إيمانه وعظم أمر إخلاصه؛ كان ثباته على الصراط أعظم ومروره عليه أشد، لأن المرور على الصراط؛ جاء في كلام لبعض الصحابة أن هذا الصراط أشد من حدِّ السيف، فليس المرور عليه ليس بالأمر اليسير أو أن يمشي الإنسان الهوينى، بل كلٌّ يرجو النجاة والسّلامة والذي أسفل منه - والعياذ بالله – هي النار، فمن وقع من هذا الصراط فإنه يكون من أهلها – نسأل العافية والسلامة - فيمر الناس على حسب أعمالهم – بعد رحمة الله تعالى -، فمنهم من يمرُّ كلمح البصر - هذا من المُوَفَّقِين -، لمح البصر شيء يسير جدًا، تلمح هكذا ببصرك، فهذا يمر على الصراط بفضل الله عزّ وجلّ عليه ورحمته له كأنه لمح البصر، بدء منه ثم انتهى منه مباشرة كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، البرق لمعانه أيضًا فترة محدودة، ومنهم من يمر كالريح، الريح أيضًا في سرعتها متفاوتة، لكن لا شك أنها تكون سريعة، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، الفرس الجواد سريع

عدوه، ومنهم من يمر كرِشَاد الإبل، ورِشَاد الإبل أبطأ من الفرس الجواد، ومنهم من يعدو عدوًا يركض، ومنهم من يمشي مشيًا معتادًا، ومنهم من يزحف، يعني على مقعدته يزحف زحفًا لا يمشي على رجليه وإنما يزحف، وهذا بحسب تفاوت الأعمال، ومنهم – نسأل الله العافية - من يخطف ويلقى في جهنم، فإن الجسر هذا عليه كلاليب، والكلاليب جمع الكلُّوب، والكلُّوب هو الحديدة معكوفة الرأس، قد قضى الله تعالى وهو العليم الخبير بأن فلانًا هذا حين يمر قد كُتب أن يكون من أهل النار فإذا مرّ لا يُترك، حتى ولا يمشي ولا يزحف زحفًا حتى ينجو، وإنما يجرُّ – نسأل الله العافية – من فوق هذا الصراط ويُرمى به في النار، والظاهر أن الذين يمرُّون هم أهل الإسلام لأن الكفار يُوردون إلى النار - نسأل الله العافية - ويحشرون إليها حشرًا، فبحسب هذا التفاوت العظيم في الأعمال في الدنيا والإخلاص لله تعالى وقَبول الله سبحانه وتعالى من العبد يكون المرور على الصراط، والصراط موضع من المواضع العظيمة العجيبة التي فيها للمؤمن مُعتبر، فهو موضع ليس الأمر فيه أمر شباب ولا أمر قوة بدن وإنما بعد رحمة الله تعالى المرور على حسب الأعمال.

مَنْ مرَّ على الصراط وفرغ منه وسَلِمَ من دخول النار بأن يسقط من هذا الصراط إلى النار؛ فإنه يكون من أهل الجنة ينجو، لكن لَمَّا كان أهل الإسلام يكون فيما بينهم مشاحنات ومظالم؛ فإنهم بعد أن ينتهوا من الصراط يُوقفون على قنطرة، هذه القنطرة قيل: إنها مؤخر الصراط، آخر الصراط، يوقفون عليه، وقيل: صراط آخر فيقتص بعضهم من بعض، حتى لو أن أحدهم لطم أخاه في الدنيا؛ فإنه لا يدخل الجنة حتى يُقتص منه، بل بلغ من عَدْلِ الله عزّ وجلّ الذي لا يظلم مثقال ذرة لو أن رجلًا من أهل الجنة تعدَّى على رجل من أهل النار؛ فإنه لا يدخل الجنة حتى يُقتص منه قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾(١)، العدل المطلق لله عزّ وجلّ، هذا لا يحل بتاتًا أن يسمي أحدًا نفسه أو حكمه بالعدل المطلق، العدل المطلق عند الله عزّ وجلّ الذي يعلم السرّ وأخفى، والذي يوفي كل نفس عملها، فحتى لو تعدّى مسلم على من أهل الجنة على كافر ظلمه وتعدّى عليه فلن يتركه الله تعالى، وسيُقتص منه مع أن ذلك في النار، لكن لا يترك، لأن المظالم هذه في ملكوت الله عزّ وجلّ، والعباد عباد الله، فليس لك أن تتلفظ بكلمة ولا أن تمد يدك على خلاف الشرع؛ فإن فعلت فإن الله تعالى سيجازيك على هذا، ولهذا مقام القيامة مقام عظيم جدًا مقام كبير، يجب معه مراجعة النفوس وإعادة النظر في كثير من أقوالنا وأفعالنا، ولو أن الله تعالى أعاننا على هذا لتركنا كثيرًا من أقوالنا

(١) غافر: ١٧.

وكثيرًا من أفعالنا، لأن من أعدّ لمثل هذه المواقف لا شك أنه يَقِلُّ كلامه، ولا شك أن المقام مقام إن لم يدرك الله تعالى فيه الرحمة فالإنسان يهلك، لأنه قد يكون له ألفاظ في غير محلها وقد يكون له مد يد على بعض ولا سيما الضعفة والمساكين هؤلاء، وقد يظلم بعضَ من يكون تحت يده ممن هم في حال من الضعف والحاجة إليه، فإن المقام عظيم، والعدل مطلق عند الله تعالى يوفي كل نفس سبحانه وتعالى كل نفس ما كسبت، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا - هم الذين سيدخلون الجنة - لا يدخلونها إلا وقد هُذّب ما بينهم ونُظِّفَ ما في قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾(١)، فيزول ما في نفوسهم وتلك المظالم وتلك الضربة وذلك التعدي وتلك الغيبة وذلك الأمر الذي عمله مع أخيه المسلم بطريقة غير لائقة من سخرية من كذا، يهذبون تهذيبًا، بعد ذلك يدخلون الجنة إخوانًا على سُرر متقابلين بعد أن يُهذّبوا وبعد يُنَقّوا.

(١) الحجر: ٤٧.

شَفَاعَاتُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ.

وَلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّة.

وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا.

.....

تكلم بعد ذلك عمّا يتعلق بأول الداخلين إلى الجنة، هذه الأُمَّة أمَّة مرحومة، وهذه الأُمَّة أيضًا هي أكثر أهل الجنة، أخبر صلّى الله عليه وسلّم أن أهل الجنة مئة وعشرون صفًا وهذه الأُمَّة منهم ثمانون صفًا، وهذا عدد عظيم جدًا بالنسبة لعموم الأمم، وهذا يدل على ما في هذه الأُمَّة من الفضيلة، لكن الفضيلة لمن تَعَرَّضَ لها وقام بما أوجب الله تعالى عليه، وعظَّم أمرَ الله تعالى وأسَّسَ الأمور على اعتقاد صحيح، وأخلص لله عزّ وجلّ، فأوّل من يَستفتح باب الجنة هو محمد صلوات الله وسلامه عليه وهو أفضل وسيد ولد آدم، والاستفتاح هو طلب الفتح، أن يطلب أن يُفتح له، ودلّ على هذا قوله صلّى الله عليه وسلّم: «آتي باب الجنة فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول محمد، فيقول: بك أُمِرْتُ؛ أن لا أفتح لأحد قبلك» فهو أول من يستفتح باب الجنة صلوات الله وسلامه عليه، الأمم التي قبلنا مع أنهم قبلنا إلا أن هذه الأُمَّة من كرامتها على الله تعالى هي أول الأمم التي تدخل الجنة، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، هذه الأُمَّة آخر الأمم لكنها أفضل وأبر وأكرم الأمم على الله عزّ وجلّ قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١)، فهذه الأُمَّة أول الأمم دخولًا إلى الجنة، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم له عدة شفاعات، ذكر هنا ثلاث شفاعات - وإلا له أكثر من شفاعة عليه الصّلاة والسّلام -، من الشفاعات التي له وهي

(١) آل عمران: ١١٠.

خاصة به عليه الصّلاة والسّلام: الشفاعة العظمى في أهل الموقف، فإن أهل الموقف يصيبهم كرب عظيم في يوم كان مقداره خمسين ألف سَنَة، فيأتون آدم عليه الصّلاة والسّلام فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما بنا، فيقول: نفسي نفسي نفسي - من الهول والعظمة في شدة ذلك اليوم -، ويحِيْلُهُم إلى نوح، ثم يحيلهم نوح إلى إبراهيم، ثم يحيلهم إبراهيم إلى موسى، ثم يحيلهم موسى إلى عيسى، ثم يحيلهم عيسى إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعلمُ الناس بالله، فيقول: أنا لها، لأن الله تعالى قد قضى أن تكون الشفاعة له، لكنه لا يشفع ابتداءًا، والسبب أن الشفاعة لله فلا بد من أن يأذن بها، والدليل على أن الشفاعة لله قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾(١)، الشفاعة لله لكنه يأذن بها سبحانه وتعالى، فيأتي صلّى الله عليه وسلّم ويخرُّ تحت العرش ساجدًا، جاء في بعض الروايات أنه يسجد جمعة أي أسبوعًا كاملًا عليه الصّلاة والسّلام، ويفتح اللهُ تعالى عليه بمحامد لم يكن يعرفها من قَبْلُ عليه الصّلاة والسّلام، بعد ذلك يُقال له: ارفع راسك، واشفع تشفع، وسلّ تُعط، عند ذلك يشفع، أعلم الناس بالله لا يشفع ابتداءًا، فالشفاعة ليست له وإنما لله كما في الآية، ثم إذا أذِن الله تعالى بالشفاعة شفع، وأصل الشفاعة الوسيلة، وهي في الاصطلاح سؤال الخير والتوسط فيه في غيرك؛ فتجعل نفسك معه في هذه الحاجة فتكونان شفعًا بعد أن كان صاحب الحاجة فردًا ووترًا، فالشافع يضم سؤالَه إلى سؤال من يشفع له، هذا معنى الشفاعة، فيأذن الله تعالى بالشفاعة فيقضي سبحانه وتعالى بين أهل الموقف، فهذه هي الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود التي قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾(٢)، هذه خاصة به عليه الصّلاة والسّلام، وهي المقام المحمود لأن الأولين والآخرين يحمدونه صلّى الله عليه وسلّم على هذا الموقف وعلى هذه الشفاعة لأن الله تعالى يأذن له فقد خصّه بها.

النوع الثاني من الشفاعة الخاصة به عليه الصّلاة والسّلام: الشفاعة لأهل الجنة بدخول الجنة، فإن هذه أيضًا شفاعة خاصة به عليه الصّلاة والسّلام، فإن أهل الجنة إذا استحقوها يشفع صلّى الله عليه وسلّم لأهل

(١) الزمر: ٤٤.
(٢) الإسراء: ٧٩.

الجنة الذين أكرمهم الله تعالى وتفضل الله عليهم بها يشفع عليه الصلاة والسّلام بأن يأذن الله لهم في دخولها، يشفع عليه الصّلاة والسّلام بأن يأذن الله لهم في دخولها، فيأذن الله تعالى بشفاعته فيدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ.

ومن شفاعته الخاصة أيضًا: شفاعته في أبي طالب، وهي شفاعة في نوع عذابه في النار، فإنه كان في دركات - نسأل الله العافية - من النار فيشفع فيه عليه الصّلاة والسّلام فيُجعل في ضحضاح من نار، لا يُخرج من النار لأنه كافر، يُجعل – عياذًا بالله - تحت أخمص قدمه جمرة يغلي منها دماغه، فهذه خاصة به عليه الصّلاة والسّلام أيضًا.

أما الشفاعات التي يشترك فيها صلّى الله عليه وسلّم مع غيره فهي الشفاعة فيمن دخلوا النار ومكثوا فيها ما شاء الله تعالى؛ فإن الله تعالى يأذن بالشفاعة، فيشفع صلّى الله عليه وسلّم ويشفع الأنبياء وتشفع الملائكة ويشفع الصالحون ويشفع الأفراط الصغار -يشفعون في آبائهم.

النوع الثاني من الشفاعات: الشفاعة فيمن استحقوا النار ألا يدخلوها، المتعلق بالنار نوعان من الشفاعة: شفاعة في أناس دخلوها وعُذِّبُوا؛ فتأتي الشفاعة بأن يُخرجوا منها، نوع آخر من الشفاعة في أهل النار: هم قد استحقوا النار واستوجبوا دخول النار؛ فيُشفع فيهم أن لا يدخلوها، قال: فهاتان الشفاعتان مشتركتان بينه عليه الصّلاة والسّلام وبين غيره من الأنبياء والصديقين وغيرهم كالملائكة والأفراط، هذا فيما يتعلق بأمر الشفاعة.

ومن المهم جدًا في أمر الشفاعة أن يُعلم أن الشفاعة لله عزّ وجلّ؛ وإنما تطلب الشفاعة من النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في حال حياته حين كان الصحابة قد سعدوا بصحبته عليه الصّلاة والسّلام فكان يسألونه أن يدعو لهم كما قال عكّاشة بن محصن رضي الله عنه: ادعو الله تعالى أن يجعلني منهم، ويأتي الصحابي فيطلب من النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو له، فلما توفي صلّى الله عليه وسلّم كان الصحابة أعلم بالله وأدْيَنَ من أن يأتوا إلى قبره عليه الصّلاة والسّلام فيطلبوا منه الشفاعة، هذا لا يحل، لأن حال الحياة غير حال الممات، ولهذا قد جاء في حديث مهم جدًا لطالب العلم في البخاري أن عائشة رضي الله عنها لما قالت: وارأساه قال عليه الصّلاة والسّلام: «وما يضيرك أو ما يمنعك يا عائشة؛ لو كان ذلك وأنا حيّ فدعوت الله لك» يعني لو أنك مُتّ في حال حياتي فدعوت الله لك، لاحظ كيف ربط الدعاء بحال حياته، يعني أنك لو متّ لصليت عليك ودعوت الله تعالى لك، فربطه بحال حال حياته عليه الصّلاة والسّلام، ولهذا لما توفي عليه الصّلاة

والسّلام وكانوا يطلبون منه إذا أجدبت الأرض يطلبون منه عليه الصّلاة والسّلام أن - أن يستسقي – بأن يدعو الله تعالى أن يغيثهم بالمطر، فلما توفي عليه الصّلاة والسّلام ما أتوه في قبره وإنما طلبوا من عمه العباس، وما الذي طلبوه من العباس؟ طلبوا من العباس أن يدعو، كما قال عمر رضي الله عنه: يا عباس؛ قم فادع، فرفع يديه ودعا، وهذا هو المعنى، يُطلب منه أن يدعو، وأما أن يُطلب من ذات العباس فلو كانت القضية قضية ذات لكانت ذات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أكرم الذوات، لكنه يُفرّق بين حال الحياة وحال الممات، أما في الآخرة فإذا بُعِثَ الناس حييَّ الناسُ، هذه حياة، الآخرة حياة، فعند ذلك يطلبون من الأنبياء من آدم كما تقدم إلى أن يُطلب من النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فيشفع في الناس، فأما في حال الممات فلا يحلّ هذا.

إِخْرَاجُ اللهِ بَعْضَ الْعُصَاةِ مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِهِ وَبِغَيْرِ شَفَاعَةٍ

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

.....

ذكر بعد ذلك أن قومًا من الموحدين يبقون في النار بعد الشفاعة فتدركهم رحمةُ أرحم الراحمين كما في الحديث «أن الله تعالى يقول: شفعت الأنبياء وشفعت الملائكة وشفع الصالحون ولم يبق إلا رحمة أرحم الراحمين» سبحانه وبحمده، لأن الله تعالى قضى أن النار لا يبقى فيها أحدٌ من الموحدين، فهؤلاء يمكثون فيها وبعد الشفاعات يخرجهم ربُّ العالمين بفضل منه ورحمة وتفضلًا لأنه من أهل التوحيد، ولا يبقى في النار -عياذًا بالله- إلا أهل الخلود الأبدي المستديم في النار وهم الكفار كما في الحديث «الذين حبسهم القرآن»، هؤلاء الذين يخلدون فيها خلودًا أبديًا غير منقطع، فالجنة والنار دارا خلود لا تنقطعان بتاتًا ولا تفنيان نهائيًا، يبقى أهل الجنة في الجنة أبدًا ويبقى أهل النار من الكفار في النار أبدًا، أما من دخل النار من الموحدين فإنه تدركه الشفاعة ثم بعد الشفاعات يخرج الله تعالى – وهو أرحم الراحمين - قومًا من الموحدين، فلا يبقى في النار إلا الكفار الذين كفرهم أكبر، أما من عنده معاصي وعنده ذنوب وعنده ما لا يخرجه من الملة؛ فإنه لا يبقى في النار.

يقول: بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضلٌ عمن دخلها من أهل الدنيا، «احتجت الجنة والنار، فقالت الجنة: فيَّ الضُّعفاء، وقالت النار: فيَّ المتكبرون، فقضى الله تعالى بينهما: أنك رحمتي أرحم بك، وقضى في النار أنك عذابي، قال: ولكليكما عليّ ملؤها» - نسأل الله العافية والسّلامة – وأن يجعلنا ممن يُملؤون في الجنة «ولكل واحدة ملؤها»، قال صلّى الله عليه وسلّم: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجلَه فتقول: قط قط» كما تقدم إلى قوله ولا يظلم الله أحدًا من خلقه، لا يُدخل في النار أحد من عباد الله لم يعمل ولم تأته دعوة، فالله لا يظلمهم، فإذا جعل الربُّ رجلَه على النار وانزوى بعضها إلى بعض مُلئت – نسأل الله العفو

العافية - وطلبت الكف قط قط - يعني حسبي يكفيني -، ولا يظلم الله أحدًا من خلقه، وأما الجنة فإن الله يُنشئ لها خلقًا، فضلًا منه عزّ وجلّ، يبقى في الجنة بقيةُ فضلٍ وأماكن فينشئ الله خلقًا في الآخرة ويجعلهم من أهل الجنة، مِنَّة منه عزّ وجلّ، فضل وإحسان، لا يُسأل عما يفعل، فهؤلاء ما عملوا خيرًا قط فيُنْشِئُهم الله تعالى فيدخلهم الجنة؛ فيتحقق وعده تعالى بأن تمتلئ الجنة وأن تمتلئ النار.

قال رحمه الله: وأصناف، الأنواع الكثيرة المتعلقة بالدار الآخرة من الثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك هذا مذكور في الكتب المنزلة من السماء، موجود في التوراة والإنجيل والقرآن، معروفة، هذه المسائل في أمر الدار الآخرة معروفة معلومة متفق عليها بين الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

العلم الموروث عن محمد صلوا ت الله وسلامه عليه فيهمن ذلك ما يشفي ويكفي، من أراد التعرف على الدار الآخرة والمستقبل الحقيقي الذي يتحدث الناس الآن عن المستقبل؛ وأن الإنسان ماذا سيفعل في مستقبله؟ لا يدري، لعله لا يفلح، المستقبل لا تدري عنه، المستقبل الحقيقي هو في ورود هذه الدار العظيمة في الآخرة، وهو المستقبل الذي سيصير إليه الأحياء كلهم، الذي ينبغي أن يُعِدَّ له المؤمن الإعداد الحقيقي، يقول فيما جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام من هذا العلم الموروث ما يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده، فمن أراد أن يصل إلى العلم لا بد أن يبذل السبب الذي يوصله إلى العلم، وذلك بتعلم العلم، وأن يكون تعلمه للعلم على أهله، وأن يكون تعلمه من كتب العلم المعتبرة، لأن الإنسان قد يتوهم أن كتبًا معينة فيها علم، وهي ليست من كتب العلم كما قلنا في كلام الشافعي في كتب المتكلمين، وقد يظن في أناس أنهم من أهل العلم وهم ليسوا من أهل العلم؛ فيظن أنه يتعلم علمًا، فينبغي أن يبتغي العلم من مواضعه السليمة، وأعظم العلم عِلْمُ الصحابة الذي تلقوه عن أعلم الناس بربه وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم عِلْم التابعين ثم أتباع التابعين وأئمة الإسلام وأئمة السُّنَّة، فينبغي لطالب العلم أن يبتغي العلم من موضعه السليم وإلا فإنه سيضيع وقته، ويظن أنه على علم وهو على غير علم.

الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ وَمَرَاتِبِ الْقَدَرِ

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ - أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ، فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(١)، وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(٢).

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.

وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ؛ إِلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ.

.....

موضوع القدر هو موضوع عظيم، وهو من أركان الإيمان، والإيمان بالقدر ذكر رحمه الله تعالى أنه على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين، وما دام في كل درجة مرتبتان؛ فعدد المراتب أربع، ثم فصّلها رحمه الله

(١) الحج: ٧٠.
(٢) الحديد: ٢٢.

تعالى، ونحن نعطيك إياه إن شاء الله على طريقة لعلها أن تكون أسهل على طالب العلم من خلال تقاسيم النصوص الواردة في القدر، ثم نعود إلى كلامه رحمه الله.

نقول أقسام النصوص الواردة في القدر ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اثبات ما يتعلق بالرب سبحانه، والذي يتعلق بالرب هو ما ذكره هنا من المراتب الأربع.

المرتبة الأولى: أن الله تعالى عَلِمَ كل شيء جملة وتفصيلًا.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: أنه لا يكون شيء في هذا الكون من حركة ولا سكون ولا دقيق ولا جليّ إلا بمشيئة الله عزّ وجلّ.

المرتبة الرابعة: أنه ليس شيء إلا الله خالقه، كل الأشياء لم يخلقها إلا الله عزّ وجلّ، فالله خلق العبد وخلق أفعاله وخلق السماوات وما فيها والأرض وما فيها وخلق الجبال والنجوم وخلق البحار وما فيها، خلق كل شيء كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٢)، فهذه المراتب كلها متعلقة بالربّ سبحانه وتعالى، وهي مراتب القدر الأربع، مرتبة العلم، مرتبة الكتابة، مرتبة المشيئة، ومرتبة الخلق.

هذا يجب أن يثبته المؤمن، والأدلة عليه كثيرة جدًا في القرآن ذكر بعض منها رحمه الله، يجب أن يثبته المؤمن ويُقِرَّه لربه تعالى، وأنه سبحانه وتعالى قد عَلِمَ الأشياء وكتبها وشاءها، وأنه ما من شيء إلا والله خالقه، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(٣)، فلا خالق إلا هو سبحانه وتعالى، هذا فيما يتعلق بالرب سبحانه وتعالى، والأدلة عليها كثيرة جدًا يمكن أن يراجعها طالب العلم في مواضعها لأن سردها يطول، فإذا أَثْبَتَّ ما يتعلق بالرب يأتي القسم الثاني وهو إثبات ما يتعلق بالعبد، ما الذي يتعلق بالعبد؟ الذي يتعلق بالعبد بعد أن عرفنا ما يتعلق بالرب أن إقراره بما ذكرنا في القسم الأول لا يعطي العبد

(١) الزمر: ٦٢.
(٢) الفرقان: ٢.
(٣) فاطر: ٣.

حجة في ترك ما أوجب الله أو فعل ما حرم، فإن الإنسان مسؤول عما هو تحت قدرته واستطاعته، هذا هو القسم الثاني.

القسم الثالث: النهي عن الجدال والخوض الباطل في القدر.

نرجع إلى القسم الأول، القسم الأول يتعلق بربوبية الله عزّ وجلّ، فالقدر تابع للربوبية، فلا يمكن أن يقع شيء دون علم الله، ولا يمكن أن يقع شيء قد فات على الله أن يكتبه، لأنه كما عندك هنا «لما خلق الله تعالى القلم قال له: اكتب قال: ما اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، هذا فيما يتعلق بالعلم وما يتعلق بالكتابة، وفيما يتعلق بالمشيئة؛ فإنه لا يمكن أن تقع تحريكة في الدنيا والآخرة إلا بمشيئة الله، فلا يكون في ملكوت الله تعالى شيء إلا إذا كان الله تعالى قد شاءه، فالهزيمة يوم أحد قد شاءها الله، والنصر يوم بدر قد شاءه الله، والله تعالى يُقَدِّرُ الحسنةَ والسيئةَ والخيرَ والشرَ لحكمة بالغة، ولعله مضى بعض الكلام في أول الرسالة عن هذا، فالله تعالى هو الذي يُقَدِّرُ الخير ويُقَدِّرُ الشر، ولكنه تعالى لا يقدر شرًا محضًا لا حكمة فيه، فيُقَدِّر الشرّ سبحانه وتعالى كما تقدم في حديث «وتؤمن بالقدر خيره وشره» لحكمة بالغة، وذكرنا شيئًا من هذا في أول شرح الرسالة، وهكذا كل شيء فالله خالقه، فالعبد قد خلقه ربه، وأفعال العباد قد خلقها لهم لأن الله لو لم يخلق لك أفعالك ما فعلتَها لأنك مخلوق أنت وأفعالك كما قال الرب عن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لما أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأصنام ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، أي أن الله خلقكم وخلق أعمالكم، وعلى القول بأن (ما) هنا يراد بها معبوداتهم؛ فإن ذلك لا ينفي أن يكون الله تعالى هو خالق أفعالهم أيضًا، لأن أفعالهم من كسبهم والله قد خلقهم وقد خلق قدرتهم وخلق استطاعاتهم ومشيئتهم؛ فالله تعالى خالق كل شيء، فلا يمكن أن يقع شيء إلا بمشيئة الله تعالى.

الأمر الثاني فيما يتعلق بالعبد: إذا آمن بأن الله تعالى عَلِمَ وكتب وشاء وخلق؛ فإن ذلك لا يعطيه بتاتًا أيَّ حجة في أن يترك ما أوجب الله أو أن يأتي ما حرم الله، فليس للعبد أن يترك الواجب فيقول: ما دام الله قد كتب الأشياء؛ فإن كان قد كتب لي الطاعة فإني سأطيع؛ وإن كان قد كتب لي الكفّ عن هذه المعصية فسأكف، وهذا غير صحيح، وهذا من محاجّة المشركين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ

(١) الصافات: ٩٦.

مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾(١)، نعم الله تعالى قد قدَّر كل شيء بما في ذلك الشرك كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾(٢)، لكن لا يحتج بالقدر لأنك لا تدري، أنت حين تحتج بالقدر على ترك الواجب وتقول: إن الله قدَّر عليَّ؛ هل اطلعت على اللوح المحفوظ وعلمتا أن الله لم يكتبك من أهل الصلاح؟ هذه مجرد دعوى، ولماذا لا تقول: بل أنا سأعمل كما يعمل هؤلاء لعل الله تعالى أن يكون قد كتبني، ثم إن المحتج بالقدر على هذا النحو يحتج بالقدر على الأمور الشرعية، فإذا طُلِب منه أن يستعمل نفس الأسلوب في أموره الدنيوية يأبى، فإذا قيل له: إذا كان الله قد كتب لك الرزق فابق في بيتك؛ وإن كان لك رزق فسيأتيك! فيقول: لا، لا بد من بذل سبب، فيقال: كذلك ، الجنة بعد رحمة الله لا بد لها من سبب، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣)، يعني بسبب ما كنتم تعملون، الباء هنا سببية، وقال لك ربك تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾(٤)، فالجنة لها طريق، الزمه واتكل على الله تعالى؛ والله تعالى يوفقك بعد رحمته، أما أن تقول: إن كان الله كتب لي أن أكون من أهل الجنة فسأصلي وسأفعل وسأفعل! يقال: هل تطبق هذا في أمورك الدنيوية؟ فتقول: إن كان الله كتب لي الرزق؛ فسأرزق وأبقى في بيتي! يقول: لا، مستحيل أن يكون هذا، لماذا صح هذا في الأمور الشرعية ولم يصح عندك في الأمور الدنيوية؟ لأنك كاذب، ولهذا قال تعالى في المشركين في حجاجهم: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾(٥)، فهم يكذبون في مثل هذا الحجاج، وإنما يريدون أن يحتجوا بالقدر ليعطلوا الشرع؛ فيقول: أنا ما كتب الله لي الصّلاة، ليس إيمانًا بالقدر وخضوعًا لله؛ لكن لأنه يريد بدلًا من أن يسكتك ويقول: لا تأمرني بالصلاة، يأتيك من جهة القدر؛ فيقول: الله ما كتبني من أهل الصلاة، قال أهل العلم: هل اطّلع الغيب؟ هل عرف أن الله كتبه في اللوح المحفوظ أنه ليس أهل الصّلاة؟ فهذا احتجاج بحجة لا يدريها أصلًا، فلا يستدل بالدليل حتى يكون عند الإنسان منه يقين، فالإنسان يتكل على ربه ويعلم أن الله تعالى قد ابتلاه في هذه الدنيا وأرسل إليه الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

(١) النحل: ٣٥.
(٢) الأنعام: ١٠٧.
(٣) النحل: ٣٢.
(٤) الليل: ٥ - ٧.
(٥) الأنعام: ١٤٨.

شَيْءٍ قَدِير، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾(١)، فأنت في فترة الابتلاء والامتحان، فإذا في فترة الابتلاء والامتحان قلت: لن أعمل، النتيجة معلومة، أنك إذا لم تعمل أهلكت نفسك، فكونك تستدل على أمور الشرع لتبطلها بأمور القدر ثم تأبى أن تفعل ذلك في أمور الدنيا؛ هذا يدل على كذب المحاج، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: (وعند مراد الرب تحتج بالقضاء، وعند مراد النفس تسدي وتلحم)، إذا أُريد أمرُ الله عزّ وجلّ صرت تحتج بالقضاء والقدر وأنه قد قُدِّرَ عليك، أما عند مراد نفسك وهواك تبدأ تسدي وتلحم.

الحاصل: أن القسم الأول الذي فيه إثبات ما يتعلق بالرب لا تعارض بينه وبين القسم الثاني، فهذا فيه ما يتعلق بالرب مرتبطًا بربوبيته والقسم الثاني مرتبط بالعبد وما أوجب الله عليه، ولهذا أهل الفقه والعلم أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما سأل سُراقة رضي الله عنه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: يا رسول الله أخبرنا عن ديننا كأننا ولدنا الآن وسأله عن الأعمال التي يكدح فيها العباد؛ هل هي مما جرت بها الأقلام أو هي فيما يُستقبل؟ قال: «بل مما جفّت فيه الأقلام وجرت به المقادير»، قال: يا رسول الله ففيم العمل؟ يعني لماذا نعمل؟ قال رسول الله: «اعملوا، فكل ميسّر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(٢)»، فقال رضي الله عنه: (ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن)، يقول: ما دامت المسألة على هذا النحو الذي قلت قال يا رسول الله سأجتهد، ينبغي أن يكون القدر دافعًا لك للعمل؛ لا أن يكون القدر سببًا من أسباب ترك العمل، وقد سُئِل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذه المسألة نفسها فيم العمل؟ لماذا نعمل وقد كُتبت أقدارنا! قال: «اعملوا؛ فكل مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»، فالحاصل أن الأمر الأول المرتبط بالرب لا تعارض بينه وبين الأمر الثاني، أين يأتي الضلال في القدر؟ وكيف نشأت الفِرَقُ في القدر؟ بالتركيز على القسم الأول وإغفال القسم الثاني، التركيز على القسم المتعلق بالرب، وإغفال القسم المتعلق بالعبد، وهذا فعل الجبرية الذين يركزون على أن الأمور قد قدَّرها الله وكتبها؛ فيلغون أن يكون للعبد اختيار أو فعل أو استطاعة، أو أن يأتي الضلال بعكس هذا وهو فعل القدرية، بأن يركزوا على فعل العبد من أن العبد له مشيئة وله استطاعة؛ فإنه يقول: الأمر موكول إلى العبد

(١) الملك: ١، ٢.
(٢) الليل: ٥ - ١٠.

نفسه، حتى قالوا: هو الذي يخلق فعلَه وإليه الأمر دون الله؛ فإن شاء أن يفعل فعل ولو لم يشأ الله، فركزوا على ما يتعلق بالعبد وألغوا ما يتعلق بالرب، فمِن هنا وقع الضلال إما بأن يكونوا جبرية أو أن يكونوا قدرية، والقدرية على نوعين كما أشار رحمه الله، منهم من ينكر مراتب القدر الأربع كلها: العلم والكتابة والمشيئة والخلق، وهؤلاء قد صاح بهم السلف وأجمع السلف على كفرهم؛ لأن من نفى أن الله يعلم فإنه يكفر، ثم اندثروا واندرست هذه الفرقة، فورثتها الفرقة الزائغة فرقة المعتزلة فأقروا بالعلم والكتابة لكن خالفوا في أمر المشيئة؛ فقالوا: إن الرب تعالى لا تتعلق مشيئتُه بأفعال العباد، بل العباد إليهم الأمر دون الله، فقالوا: إن العباد يُوقعون ما شاءوا وإن لم يشأ الله – نسأل الله العافية والسلامة -، وكل هذا من الضلال، ولهذا جاء القسم الثالث من النصوص وهو النهي عن الجدال والخوض الباطل في القدر بأن يأخذ أحدٌ آية من القسم الأول المتعلق بالرب ويضرب بها آية من القسم الثاني المتعلق بالعبد أو العكس، وقد جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام أنه خرج على أصحابه رضي الله عنه مرة وكانوا يتجادلون في القدر، يقول الراوي: هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، ما معنى الكلام هذا؟ ينزع بآية أن هذا يركز على آية في القسم الأول المتعلق بالرب وهذا يركز على القسم الثاني المتعلق بالعبد، فغضب صلّى الله عليه وسلّم كأنما يُفقأ في وجهه حبُّ الرمان من الغضب يعني احمر وجهه، وقال: «مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن الذي لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، وإنما نزل ليصدقُ بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه»، لأن من الخطر الكبير أن تؤخذ آيات القرآن كأن بعضها يخالف بعضًا، قال: القرآن يصدق بعضه بعضاً، لم ينزل ليكذب بعضه بعضًا، إذا عرفت التقسيم السابق علمت أن إثبات ما يتعلق بالرب ما هنالك أي معارضة بينه وبين القسم الثاني، هذا فيما يتعلق بالرب وربوبيته وتصريفه؛ وهذا فيما يتعلق بابتلاء الله لعباده وأمرهم ونهيهم، فهذا له باب وهذا له باب، فلا تخلط، ولهذا جاء عنه عليه الصّلاة والسّلام أيضًا أنه قال: «أُخِّرَ النزاع في القدر لشرار أمتي آخر الزمان»، فدل على أن المتنازعين بالباطل في القدر هم الأشرار، ولهذا أصحاب النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بعد هذا المجلس الذي قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لهم فيه ما قال في أمر القدر تأدبوا بالأدب ولم يوجد عندهم نزاع بعد ذلك في أمر القدر، ووكلوا الأمر إلى ما جاء في النصوص وتركوا النزاع، ولهذا قال رسول الله: «أُخِّر النزاع في القدر لشرار أمتي آخر الزمان» مما يدل على سلامة الصحابة رضي الله عنهم، فكونه

يقول: آخر الزمان يعني أن الصحابة ليسوا من هذا القبيل، كونه يقول: إنهم الأشرار؛ لاشك أن القدرية والجبرية من أشر فِرَق الأُمَّة، ولهذا شُبههم في القدر تضرُّ كثيرًا من العامة، ولهذا كان الأوزاعي إذا ذَكَرَ القدر وذَكَرَ اليومَ الآخر يقول الراوي: لم يقطع حديثه ولم يجب سائلاً حتى ينتهي، لأنه ينبغي أن يُؤخذ القدرُ متكاملاً، مثل ما ذكرنا الآن في التقسيمات، فلو ذكرنا القسم الأول المتعلق بالرب وذهبنا؛ قلنا: الغد نأتي، قد يختل فهم هذه المسألة بالنسبة لطالب العلم، ينبغي أن تجمع النصوص كلها، ما يتعلق بالرب، ما يتعلق بالعبد، ما يتعلق بالنهي عن النزاع والخوض الباطل في القدر.

هذا بإجمال، لمّا ذكر الشيخ أن القدر على درجتين، كل درجة تضمن شيئين مثل ما ذكرنا؛ هذه مراتب القدر الأربع التي ذكرناها وهي المتعلقة بالرب، ثم سيذكر ما يتعلق بالعبد إن شاء الله تعالى لاحقًا.

ذكر بعد ذلك أن القدر يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، القدر الأول: هو الذي قدَّره الله تعالى قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة، ثم بعد أن خلق الله تعالى آدم قدّر - يعني كُتبت كتابة أخرى لا تتعارض مع الكتابة الأولى -، ثم المولود - الجنين - يُكتب أيضًا بعد مضي أربعين يومًا أو اثنين وأربعين يوما كما في حديث حُذيفة بن أَسِيْد رضي الله عنه أن الملك يتسور على الرحم ويسأل رب العالمين: يا رب؛ رزقه؛ أجله؛ شقي أو سعيد، ثم في حديث ابن مسعود بعد أن تنفخ الروح فيه بعد أربعة أشهر يُكتب تقدير آخر، ثم هناك تقدير حولي وهو الذي يُكتب في ليلة القدر، ثم هناك التقدير اليومي الذي قال الله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١)، سبحانه وتعالى، والتقدير اليومي لا يتعارض مع التقدير الحولي – الحولي نسبة إلى الحول يعني كل سَنَة في ليلة القدر - ولا يتعارض مع التقدير الذي كُتب عليه وهو جنين، بل هذا كالتقسيم للقدر الذي قبله، ولهذا قال: إن القدر يكون في مواضع جملة وتفصيلًا، فقد كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه كما ذكرنا، وتُراجِعْ شفاءَ العليل لابن القيم فإنه ذكر هذه التقادير رحمه الله تعالى.

ذكر الدرجة الثانية: درجة المشيئة وقدرة الله تعالى الشاملة، وهي كما قلنا أنه لا يكون في مُلْكِ الله تعالى إلا ما يريد، وأنه سبحانه لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه وأن العبد إذا أصابه شيء فإنه يستحيل أن يخطئه،

(١) الرحمن: ٢٩.

وإذا أخطأه شيء ولم يقع له فإنه يستحيل أن يصيبه، لأن الله تعالى كتب أن يصيبه فلا بد أن يصيبه، ولِمَا أخطأه ولم يكتب الله أن يصيبه؛ فإنه يستحيل أن يصيبه، فالأمور كما شاء الله تعالى.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

.....

هذا الذي قلنا قبل قليل المتعلق بالعبد، يعني بعد أن قرر ما يتعلق بالرب في المراتب الأربع قال: مع ذلك، مع كونه تعالى كتب وعَلِم وشاء وخلق؛ مع ذلك فالعبد مُطالب بأن يؤدي ما أوجب الله تعالى عليه وأن يمتنع ما حرم الله عليه، ولذا قال: فقد أَمَر العباد بطاعته وطاعة رسله - مع ذلك -، ونهاهم عن معصيته، فليس للعبد بتاتًا أي حجة في أن يترك ما أوجب الله أو أن يفعل ما حرم الله ويقول: بناء على أن الله كتب وقدَّر، مع ذلك الإيمان بالقسم الأول المتعلق بإثبات ما يتعلق الرب؛ فنحن نؤمن بأن العبد قد أُمِر وقد نُهي وأن الله تعالى سيحاسبه، ولهذا جعل الله تعالى الأحكام في الدنيا كمثل الحدود والعقوبات وجعل الله الجنة للمتقين وجعل النار للعاصين وخذ هذه الآية – في سورة النحل - توضح لك الجمع بين كون الله تعالى يضل ويهدي من يشاء وبين كون العبد مأمورًا مع ذلك بالعمل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١)، مع أن الله يهدي ويضل وقد كتب هذا كله؛ مع ذلك فإن الله سيسأل العباد عمّا كانوا يعملون، ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن الله تعالى – كما تقدم - يحب أصنافًا من الناس ويحب أعمالًا ويحب المتقين والمحسنين والمقسطين، والله تعالى أيضًا يرضى عن أصناف من الناس، ويرضى عن أعمال، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكما أنه يرضى عن المؤمنين ويحب المؤمنين فإنه لا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين، وهو تعالى لا يأمر بالفحشاء – يعني في أحكامه الشرعية - كما قال الكفار: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾(٢)، لا يمكن أن يأمر الله تعالى في أحكامه بالفحشاء سبحانه وتعالى.

(١) النحل: ٩٣.
(٢) الأعراف: ٢٨.

ثم من المناسب أن يُعلم أن الإرادة على نوعين، هناك إرادة قدرية وهناك إرادة شرعية، الإرادة القدرية هي التي يكون بها أن الله قد أراد كل شيء؛ فالإرادة القدرية هذه لا بد أن يقع ما أراده الله، ثم إن منها أشياء محبوبة لله ومنها أشياء غير محبوبة لله، أما الإرادة الشرعية فهي ما أمر الله تعالى به عباده في كتابه من أمرهم بالصّلاة وأمرهم بالصيام والطاعات هذه، فهذه ما فَرْقُهَا عن الإرادة الكونية، فَرْقُهَا عن الإرادة الكونية أنها محبوبة لله مطلقًا، الله يحب العبادة وكما تقدم يحب أن يصلي العباد وأن يصوم العباد ويحب أن يتقربوا إليه بالعبادات، مزيّة الإرادة الشرعية أنها محبوبة لله، أما الإرادة الكونية فمنها محبوب ومنها غير محبوب، الإرادة الكونية لا بد أن تقع، الإرادة الشرعية تقع من المؤمن إذا أطاع الله والكافر يتمنّع، إذًا فالجميع يشملهم الإرادة الكونية، أما المؤمن فإذا طبق ما أوجب الله تعالى عليه حقق الإرادة الشرعية التي أرادها الله بهذه الأحكام، والكافر يكون ترك ما أوجب الله تعالى عليه.

وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم، وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ.

وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾(١)، ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢)، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ: «مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ»، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ؛ حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

.....

بيّن أن العباد هم الذين يُنسب إليهم الفعل، العبد إذا صلى؛ يقال: هذا العبد صلى، العبد إذا سرق؛ يقال: هذا العبد هو الذي سرق، فالفعل منسوب للعبد، من الذي خلق العبد؟ الذي خلقه الله، ومن الذي خلق للعبد فعله؟ الله عزّ وجلّ، هو الذي خلق العبد وخلق فعله، لأنه لو لم يخلق له فعله لا يمكن أن يقع،

(١) التكوير: ٢٨.
(٢) التكوير: ٢٢.

كما أنه لو لم يشأ الله تعالى الأمر لا يمكن أن يقع، فالله خلقك وخلق أفعالك، هذه الأفعال منسوبة لله أو لك؟ قطعًا لك، ولكن الله خلق العبد وخلق فعله، والعبد هو الذي يفعل بقدرته وبمشيئته، لهذا لو وقع من العبد عمل من الأعمال خارجًا عن قدرته واختياره فإنه لا يؤاخذ، فمثلًا لو أن العبد زلت به قدمه فسقط من علوّ شاهق فمات؛ ما دفعه أحد، لكن هذا الفعل فعله هو لأنه قدَّم رجله فسقط، لا يقال: هذا انتحر، لأنه لم يُرِدْ هذا، وإنما العبد يؤاخذ بأفعاله الاختيارية، لأن العبد له نوعان من الفعل، النوع الأول الأفعال الاختيارية كأكله وشربه ومجيئه وذهابه ومجيئنا الآن للمسجد، كلها باختيار من العبد، العبد له ملايين الأفعال في حياته باختياره، وهناك أفعال غير اختيارية، الأفعال الاختيارية هذه هي التي يُحاسب عليها العبد، ولهذا لاحظ القتل؛ فإنك إذا قتلت خطأً لا تعاقب في الآخرة وإن كنت تلزم بالكفارة، لكن الدِيَة لا تدفعها أنت؛ تدفعها العاقلة، لأن هذا القتل وقع منك خطأ، لكن إذا قتلت عمدًا تدفع الدية أنت إذا سُمح لك من قبل ورثة الميت أو إذا أرادوا قتلك فإنك تُقتل إذا أراد الورثة لأنه قتل عمد، فهناك فرق بين الفعل الاختياري وبين الفعل غير الاختياري، فالله تعالى هو الخالق للعبد والخالق لفعله، والعبد هو الذي يُنسب إليه الفعل ولا يُنسب إلى الله، ولهذا قال: العبد هو المؤمن وهو الكافر وهو البرّ والفاجر، وهو المصلي والصائم، وكذلك هو الذي إذا شرب الخمر هو الشارب، وإذا زنى هو الزاني فيُنسب الفعل للعبد، قال: وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة، العباد لهم قدرة ولهم إرادة؛ فلأجل ذلك يؤاخذون، قال: والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، يخلق لهم القدرة، يخلق لهم الإرادة، ثم إنه يحاسبهم سبحانه وتعالى على إرادتهم وعلى قدرتهم، فلهذا الذي يزول عنه التكليف كالمجنون مهما قال؛ مهما فعل؛ لا يؤاخذ به بتاتًا لأنه في حكم عديم القدرة وإن كان قادرًا لكن لم يجعل الله تعالى العقل الذي هو مناط التكليف؛ فصار كالبهيمة يفعل ويتلفظ ويتكلم – وربما تكلم بكلام فظيع عظيم - لا يؤاخذ بتاتًا، لأن هذا في حُكْمِ من لا قدرة له، إنما من يُؤاخذ من عنده القدرة وعنده المشيئة فبناء عليه يحاسب.

قال رحمه الله: وهذه الدرجة يُكَذِّبُ بها عامة القدرية، أي درجة؟ قلنا: القدر له أربعة مراتب، أن الله عَلِمَ كل شيء جملة وتفصيلًا، وأن الله كتب هذا في اللوح المحفوظ، هذا أقرّت به القدرية المتأخرون وهم المعتزلة، لكن مشيئة الله تعالى لأفعال العباد وخلْقَه لأفعال العباد جحدوها، ولهذا جاء في الحديث أنهم مجوس هذه الأُمَّة، لأنهم يقولون: الله يخلق الخير والعبد هو الذي ينفرد بفعله فيكون الشر منسوبًا إليه؛

ويخلق العبد – هكذا يقولون - خلقًا منفردًا عن الله، المجوس ماذا قالوا؟ قالوا: للكون خالقان، خالق خلق الخير وهو النور؛ وخالق خلق الشر وهو الظلمة، فجاء في الحديث أن هذه الطائفة وهم القدرية (مجوس الأُمَّة) لتشبههم بالمجوس، لأن المجوس يقولون: إن هناك من يخلق غير الله، والقدرية هؤلاء يقولون: العبد هو الذي يخلق فعله، قال أهل العلم: لَئِنْ كان المجوس يقولون إن للكون خالِقَين! فإن القدرية يقولون: إن في الكون خالِقِين، لأنه يقول: كل عبد يخلق مستقلاً، والحديث هذا اختُلِف فيه، من أهل العلم من يقول: إن مجموع طرق الحديث يرقى بها الحديث إلى أن يكون من قبيل الحسن ويُنسب إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم من يقول: الحديث لا يثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولكنه جاء عن السلف كابن عمر رضي الله عنهما وغيره؛ فيكون الحديث - سواء قيل بثبوته عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو جاء عن السلف - معناه صحيح في القدرية لأنهم على النحو الذي ذكرنا، ثم إنهم هؤلاء الذين غلوا هذا الغلوّ من القدرية قابلهم طائفة من الذين يثبتون القدر في القسم الأول الذي ذكرناه فغلوا في إثبات ما يتعلق بالرب ونفوا عن العبد قدرته واختياره، بل نفى بعضهم عن العبد أن يكون الفعل منه ونسب الفعل - عياذًا بالله - إلى الله، وأخرجوا عن أفعال الله تعالى الحِكَم، قالوا: إن الله تعالى يفعل لغير حكمة مع قوله تعالى ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾(١)، ومع الدلائل البيّنة الجليّة على أن أحكام الله تعالى على أعظم ما يكون من الحِكَم، لكن هؤلاء نفوا عن الله تعالى الحكمة، لماذا؟ تركيزًا على المشيئة، قالوا: ما هنالك إلا مشيئة، يشاء الأمور – عياذًا بالله - لغير حكمة ولغير غاية ولغير مصلحة وإنما هكذا يشاء، كما نقل عنهم ابن القيم رحمه الله يقولون: (ما ثَمَّ غير مشيئة قد رجحت مِثْلًا على مثل بلا رجحان)، يعني ينفون عن الله تعالى أي حكمة - نسأل الله العافية والسلامة -، كل هذا مبالغة منهم في إثبات المشيئة بزعمهم المتعلقة بالرب، فهؤلاء ضلوا من جهة وأولئك ضلوا من جهة.

(١) القمر: ٥.

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ وَحُكْمُ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾(١)، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٣).

وَلاَ يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الإِسْلاَمَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلاَ يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(٤)، وَقَدْ لاَ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾(٥)، وَقَوْلُهُ: - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعْطَى الاِسْمُ الْمُطْلَقُ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقُ الاِسْمِ.

.....

تكلم رحمه الله تعالى عن الإيمان، وقد حكى الشافعي وأحمد رحمهما الله أن الإيمان - بإجماع أهل السُّنَّة - قول وعمل، وإذا قيل قول وعمل فمعنى ذلك أنه قول باللسان، وقول القلب، القلب هل؟ نعم؛ باعتقاده، ليس معنى القول لزامًا أن يكون بالأحرف هذه والنطق هذا باللسان، لكن قول القلب؛ أن يعتقد، ولهذا

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) الحجرات: ٩.
(٣) الحجرات: ١٠.
(٤) النساء: ٩٢.
(٥) الأنفال: ٢.

قولهم قول وعمل قول القلب وهو اعتقاده وتصديقه، وقول اللسان وهو نطقه، وعمل القلب؛ عمل القلب كخشوعه وخوفه ورجائه، وعمل الجوارح، فينبغي أن يُعرف مرادُ أهل السُّنَّة بقولهم قول وعمل، المراد هو هذا.

الإيمان بإجماع أهل السُّنَّة يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، والأدلة في هذا صريحة ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(١)، ونحوها من الآيات الجليّة في أن الإيمان يزيد، وإذا كان الإيمان يزيد فقطعًا ما كان قابلًا للزيادة فإنه يقبل النقص، فلهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»، فذكر أنه ينقص دينهن، ولهذا فالناس يتفاوتون، ومن ذا الذي يقول إن إيمانه مثل إيمان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، مستحيل أن يوجد عاقل يقول هذا إلا من الذين لا يفقهون من المرجئة وأمثالهم، ولهذا قال ابن أبي مُليكة كما في البخاري: (لقيت ثلاثين من أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كلهم يخاف النفاق على نفسه - يعني الرياء - ما فيهم أحد يقول: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل)، إيمان جبريل وميكائيل وإيمان الملائكة وإيمان الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام لا يدعيه عاقل، فإنهم في أعلى ما يكون من الإيمان، إيمان القاصرين من أمثالنا والمقصرين لا شك أنه أقل ولا يستطيع الإنسان أن يقول غير هذا، إيمان قُطَّاع الطريق من المسلمين والزناة وشراب الخمر وأهل الكبائر معهم إيمان لكن لا شك أنهم أنقص من إيمان من يتركون هذه الشنائع، ولهذا أهل السُّنَّة لا يُكَفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي، لاحظ العبارة دقيقة جدًا، ما قال بالمعاصي؛ لأن من المعاصي ما هو كفر، كما لو أنه عياذًا بالله سجد للصنم أو رمى المصحف – عياذًا بالله - في موضع قضاء الحاجة ونحوه، (جملة غير واضحة) لكنها يكفر بها لكن قال: بمطلق المعاصي لأن المعاصي منها كبائر وصغائر، فهذه ما دام قد وقع فيها وهو من أهل الملة فإنه لا يُكَفَّر، فقال: بمطلق المعاصي، أما لو عصى معصية كفرية كما ذكرنا فإنه يكون كافرًا عند أهل السُّنَّة جميعًا.

الخوارج كما تقدم ذكر ذهبهم يكفرون بالمعاصي، فيرون أن هذه المعاصي تُخرج العبد من الملة، رَدَّ عليهم بالآيات، القتل من الكبائر بل من أفظع الكبائر بل هو أشد الكبائر التي يقع فيها المسلم لأنه ليس بعد الشرك ذنب أشد من قتل نفس بغير حق، تأمل ما قال الله تعالى في القاتل عمدًا ظلمًا؛ قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ

(١) المدثر: ٣١.

مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾(١)، وهو الذي وَرِثَ القتيل إذا عَفَا وارث القتيل عن الدم عفا عن أخيه القاتل، وهكذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾(٢)، فسماهم بالمؤمنين ومع ذلك يقع بينهم القتال، ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٣) فأثبت لهم الأخوة الإيمانية مع وقوع القتال بينهم، لهذا قال عبارة ينبغي أن نعرفها، ما الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؟ الإيمان المطلق أي الإيمان الكامل، ومطلق الإيمان أي أصل الإيمان، فالإيمان المطلق – الإيمان الكامل - هو الوارد في مثل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾(٤) إلى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا﴾(٥)، أهل الإيمان الكامل، العاصي؛ شارب الخمر؛ الزاني؛ هل يقال: إن عنده هذا المقدار؟ لا، ليس عنده الإيمان المطلق الذي به يزيد إيمانه هذه الزيادة العظيمة، لكن هذا العاصي أليس مؤمنًا؟ بلى، إذا ماذا عنده؟ عنده مطلق الإيمان، ما المراد بمطلق الإيمان؟ أصل الإيمان عنده، لهذا إذا مات صليت عليه، ورَّثْتَ ورَثَتَه منه لأنه مسلم، فالعاصي صاحب الكبائر معه مطلق الإيمان أي أصل الإيمان وليس عنده الإيمان المطلق أي الإيمان الكامل.

وقوله الفاسق المِلّي، الفاسق واضح، المِلّي أي المنسوب إلى هذه الملة أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قال لا يُكَفِّرون أهل الملة بمطلق المعاصي، أهل القبلة هم المسلمون لكن يتجهون إلى الكعبة في الصّلاة، وذكر الأحاديث مثل قوله عليه صلّى الله عليه وسلّم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» أي الإيمان المطلق أي الكامل، لكن لا شك عنده مطلق إيمان، بدليل نفس الحديث «لا يزني الزاني حين يزني» – عياذًا بالله – يعني حين مزاولة لهذه الفاحشة لا يكون عنده إيمان؛ لأن إيمانه يرتفع، كما ورد (ارتفع حتى يكون على رأسه كالظلة؛ فإذا اقلع عاد) لفظاعة وقذارة الزنى، ولو أنه استحضر عظمة الله وقوي إيمانه لترك الزنى كما وقع للرجل الذي جلس من ابنة عمه مجلس الرجل من امرأته ليزني بها؛ فلما قالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه؛ ذكرته بالإيمان الله فقام، وإلا الزاني لا يمكن أن يزني وهو مستحضر لإيمانه، يكون إيمانه قد غاب –

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) الحجرات: ٩.
(٣) الحجرات: ١٠.
(٤) الأنفال: ٢.
(٥) الأنفال: ٤.

عياذًا بالله – بسبب هذه الشهوة التي غلبت عليه فيزني، لكن لو استحضر الإيمان يقوم، ثم قال في ختام كلامه رحمه الله في العاصي هذا نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق وهو المؤمن الكامل ولا يسلب مطلق الاسم مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مصلي مزكي حاج صائم مقيم لأحكام الإسلام لكنه يشرب الخمر، لا يسلب الإيمان لأجل كونه يشرب الخمر، لكن هل يعطى الإيمان المطلق؛ فيقال: هذا من أهل الإيمان الكامل؟ لا، فلا يعطى الكامل ولا يسلب مطلق اسم الإيمان.

الْوَاجِبُ نَحْوَ الصَّحَابَةِ وَذِكْرُ فَضَائِلِهِمْ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١)، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ - وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ - وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ اللهَّ تَعَالَى قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

وَبِأَنَّهُ «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ؛ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ.

وَكَمَا أَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؛ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ، وَسَكَتُوا، وَرَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا.

لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - لَيْسَتْ مِنَ الْأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ، لَكِنَّ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

.....

(١) الحشر: ١٠.

تكلم رحمه الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم الذين لهم المِنَّة بعد الله ثم رسوله صلّى الله عليه وسلّم على الأُمَّة إلى قيام الساعة، فما سبَّح مُسَبِّح ولا هلَّل مُهلل ولا قرأ القرآن قارئ ولا صلّى ولا صام ولا حج إلا لأن الصحابة رضي الله عنهم نقلوا إليه دين الله، وهيأهم الله تعالى لذلك رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وفيهم وهم أسعد الناس بقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١).

أَمْرُ الصحابة رضي الله عنهم أمرُ مما يزة عظيمة جدًا غير قابل للمداهنة والتلاعب، فمن تعرَّض للصحابة رضي الله عنهم بالمسبّة بالجملة فإنه بإجماع أهل السُّنَّة كافر خارج من الملة، بالإجماع، إذا تعرَّض لجميع الصحابة، كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في كتابه الصارم، لأن مقتضى هذا تكذيبُ الله تعالى، الذي ترضّى عنهم الله وأثنى عليهم وزكى قلوبهم، من المهم أن يُعرف ويُضبط تعريفُ الصحابي لأن هذا مما أثار حوله هؤلاء المجرمون جملة من الزوبعة والكلام، الصحابي هو من لقي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مؤمنًا به ومات على ذلك، هذا هو الصحابي، ولو كان اللقاء أدنى لقاء، ولوكان رآه يخطب صلّى الله عليه وسلّم ثم لم يره بعد ذلك، فإن قيل: لم خُصَّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم بهذه المزية مع أن الصحبة عادة تطلق على الملازمة؟ يُقال: السبب عظمة المصحوب صلّى الله عليه وسلّم، وقد ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال كما في مسلم: «مِنْ أَحَبِّ أمتي لي قوم يحبون أن يروني بأهلهم وأموالهم» مجرد رؤيا له عليه الصّلاة والسّلام، هؤلاء من أحب الأُمَّة الذين يحبون فعلًا رسول الله أن الواحد منهم يتمنى أن يرى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رؤيا فقط يراه هكذا صلوات الله وسلامه عليه ولو هلك أهله وخسر ماله، رؤية محمد صلّى الله عليه وسلّم ليس رؤية أي أحد، فلهذا الجهلة الذين لم يفقهوا هذه المسألة قالوا: أنتم الآن تُعَظِّمُون من شأن الصحابة، مجرد رجل رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطب! تقولون: إنه صحابي وإنه عدل! نعم، لأن الله تعالى اختاره اختيارًا ليرى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقد هاجر أناس للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لِيَرَوه فلم يسعدوا برؤيته عليه الصّلاة والسّلام، توفي قبل أن يروه، لهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه في أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: قوم اختارهم الله لصحبته، فهم مختارون لم يكونوا عبطًا، في تلك الفترة جاء شخص اسمه أبوبكر وآخر اسمه عمر! اختارهم الله تعالى اختيارًا بلا أدنى شك، فالصحبة هذا هو معناها

(١) آل عمران: ١١٠.

الحقيقي: من لقي النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم أدنى لقاء مؤمنًا به ومات على هذا، أما لو ارتد فهو كافر، ولهذا الصحابة ليس فيهم كافر رضي الله عنهم، لأن الكافر خرج من الصحبة ومن الإسلام.

سلامة القلوب من الحسد والغل، وسلامة الألسنة من الألفاظ البذيئة والسب والشتم، وهذا الذي أمر الله تعالى به في صريح القرآن بعد أن ذكر المهاجرين وذكر الأنصار قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(١)، وثبت هذا الحديث العظيم في الصحيحين قوله صلّى الله عليه وسلّم «لا تسبوا أصحابي؛ فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا؛ ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» الصاع أربعة أمداد، يعني ربع الصاع ونصيف الربع يعني نصف الربع، لو أن أحدًا ممن أتى بعد الصحابة رضي الله عنهم أنفق مثل أحد ذهبًا - هذا لا يكاد يُتصور - أحد جبل كبير جدًا، لو أنه أنفق ذهبًا مثل أحد لا يقال: يكون مثل النصيف أو المد، لا والله لا يبلغه أصلًا، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وذلك أن المتقدمين لهم الفضل كما قال تعالى في دعاء الموفّقين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(٢) سبقونا بالإيمان، سبقونا بالخير، سبقونا بالصّلاة، سبقونا بالعبادة، سبقونا بقراءة القرآن، سبقونا بالجهاد في سبيل الله، شرّفهم الله بأن يكونوا مع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾(٣)، فهم معه عليه الصّلاة والسّلام، من أتى ممن بعده صلّى الله عليه وسلّم لم يكونوا معه وإنما جاءوا بعده كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فَرْقٌ بين من يقول (معه) وبين من يقول (من بعده)، فاختارهم الله اختيارًا رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

يقبلون أي أهل السُّنَّة ما جاء بالقرآن وما في السُّنَّة وما في الإجماع، وهذه كما قلنا مصادر التلقي، من فضائلهم رضي الله عنهم والمراتب العظيمة التي جاءت فيهم؛ من ذلك ما يتعلق بفضيلة المهاجرين فهم أفضل من الأنصار، ما يتعلق بفضيلة العشرة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وهم أفضل الصحابة، وأفضل الصحابة على الإطلاق أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ، هذا الصحيح الذي عليه المحققون من أهل العلم، وقال بعض أهل السُّنَّة إن الصحابة ترتيبهم على النحو الآتي أبو بكر ثم عمر ثم عليّ ثم عثمان رضي الله عنهم

(١) الحشر: ١٠.
(٢) الحشر: ١٠.
(٣) التوبة: ٨٨.

جميعًا، والصواب الذي لا إشكال فيه هو هذا وهو القول الصحيح والقول السابق مهجور، والسبب في أنه مهجور أن الصحابة رضي الله عنهم لَمَّا طُعِنَ عمرُ رضي الله عنه وجعل الأمر شورى في السِّتَّة اختار الصحابة من بين الستة عثمان على عليّ، فلولا أنه أفضل من عليّ لَمَا اختاروه، أمر آخر ثبت في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه يقول: (كنا نقول على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أفضل أصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان؛ فيَبْلُغُ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فلا ينكره)، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لو أتاه منكر مثل هذه التفضيلات على غير الصواب لأنكره، فلا شك أن عثمان مُقدَّم على عليّ رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين، من فضائلهم أيضًا أصحاب الشجرة الذين بايعوا بيعة الرضوان وقال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(١)، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»، أيضًا أهل السُّنَّة يشهدون لمن شهد له النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ يشهدون لمن شهد له بالجنة، سواء العشرة أو غيرهم كخديجة وفاطمة وزوجات النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا شك أنهن في الجنة لأن الزوجة مع زوجها والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قطعًا في الجنة عليه الصّلاة والسّلام.

الآن مسألة التفضيل بأن يفضل أحدٌ عليا على عثمان هذه مسألة قال: لا يُضلل بها، لا يقال إنه ضل، لكن التي يُضلل بها؛ لو أنه طعن في خلافة أحد منهم، فلو قال: الترتيب أبو بكر ثم عمر ثم عليّ ثم عثمان؛ يقول: لا يضلل، لكن لو قال: الخلافة كان ينبغي بعد عمر أن تكون لعليّ ثم عثمان! يضلل، لأن ترتيبهم رضي الله تعالى عنهم بالفضل على الصحيح كترتيبهم بالخلافة، لكن لو قَدَّم عليا على عثمان لا يضلل، لكن لو قال في خلافة أي منهم أنه لا يستحقها؛ فإنه يضلل ولهذا قال: إنه من طعن في خلافة أي منهم فإنه أضل من حمار أهله، يعني ينسب الحمار دائمًا إلى البلادة وقلة الفهم.

(١) الفتح: ١٨.

مَنْزِلَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ؛ وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ؛ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ للهِ وَلِقَرَابَتِي»، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ بِالْآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَلِيَّةُ، وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ، بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ: مِنْهَا: مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ، وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ، إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ، - بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ، حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ ؛ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ

بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ بِالْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ.

.....

ذكر بعد ذلك ما يتعلق بآل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وآل بيته هم قرابته عليه الصّلاة والسّلام كآل جعفر وآل علي وآل العباس رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، ولا شك ولا ريب أن مما يدخل في آل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجاتُه بنص القرآن، فإن الآية التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾(١)، جاءت في سياقها وسباقها كلها متعلقة بزوجات النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بدءًا من قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾(٢) إلى قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(٣)، في أثناء هذه الآيات قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾(٤)، فلا شك أن زوجة المرء من أهل بيته، ولهذا قال الله تعالى لزوجة ابراهيم ولم يكن إلا إبراهيم وزوجه سارة لما بُشِّرت بإسحاق قالت: ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(٥) ماذا قالت الملائكة في أثناء كلامهم؟ ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾(٦) مَنِ الموجود؟ إبراهيم وزوجه، فهم أهل البيت، فلا شك أن أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهم داخلات في هذا، ولهذا سبُّ أمهات المؤمنين سبٌّ لآل البيت لا شك فيه، لأن آل البيت أصناف، منهم آل علي، منهم آل العباس، منهم آل جعفر، ومنهم زوجات النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيحب أهلُ السُّنَّة آلَ بيت النَّبيّ صلّى

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) الأحزاب: ٢٨.
(٣) الأحزاب: ٣٤.
(٤) الأحزاب: ٣٣.
(٥) هود: ٧٢.
(٦) هود: ٧٣.

الله عليه وسلّم لأن مَنْ أحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحبَّ أهلَ بيته، كما أن من أحبه أحبَّ أصحابه رضي الله عنهم، بل كان الصحابة رضي الله عنهم يحبون حتى ناقته عليه الصّلاة والسّلام فلما جاء أعرابي على قعود؛ فسبق القصواء اشتد ذلك على الصحابة، فالمؤمن يحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويحب كل ما حوله من مواليه ومن آل بيته ومن أصحابه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، لأن محبته له عليه الصّلاة والسّلام تقتضي محبةَ كلَّ ما حوله - من أهل الإيمان طبعًا - من أصحابه، من أهل بيته، من مواليه عليه الصّلاة والسّلام، فإن مولى القوم منهم، ويرعون وصية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لقوله «أذكركم الله في أهل بيتي» فالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أَمَرَ الأُمَّة أن تَرْعى أمرَ أهل البيت، ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه: ارقبوا محمد صلّى الله عليه وسلّم في آلِ بيته، والله لقرابةٌ محمد صلّى الله عليه وسلّم أحبُّ إليَّ أن أصِلَ من قرابتي، رواه البخاري، أما الحديث الذي ذكره العباس أن بعض قريش كان يهجو بني هاشم فالظاهر أن الحديث هذا لا يثبت لأن في سنده يزيد بن أبي زياد، ثم الحديث الثالث قوله عليه الصّلاة والسّلام «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة» بنو إسماعيل مصطفون ولهم مزية، الله تعالى اصطفى من بني إسماعيل كِنانة، مَنْ كِنانة هذا؟ هو الأب الرابع عشر للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعني جده الرابع عشر، واصطفى من كنانة قريشًا، قريش هو الأب الحادي عشر للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو فِهر بن مالك، وقيل: بل هو الأب الثالث عشر للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو النَّضر بن كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى من بني هاشم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فهو خيار من خيار من خيار عليه الصّلاة والسّلام وعلى آله وصحبه.

وقال بعد ذلك: ويتولون أزواج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمهات المؤمنين، وهذا الاسم عظيم جدًا سُمِّيْنَ به في القرآن ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(١)، تسمية من أعظم الأدلة على مكانة أمهات المؤمنين وعظم إيمانهن، فهُنَّ أمهات لكل مؤمن من عربي أو أعجمي ممن كان زمن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو ممن يأتي بعده، عائشة وخديجة وحفصة كلهن رضي الله عنهن أم لكل مؤمن، لكن مَنْ ليس بمؤمن ليست أما له، ذاك الذي يشتمها ويلعنها ويُكَفِّرُهَا لا تستغرب منه، لأنه ليس من المؤمنين لتكون أُمَّه، ولا يُستغرب على الكافر أن يشتم أم المؤمنين، أما أن يكون مؤمنًا ويشتم أُمَّه فيخسأ؛ لا يكون

(١) الأحزاب: ٦.

مؤمنًا، ولهذا التعرض لأزواج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أنهض الأدلة ومن أَبْيَنِهَا على كفر هذا الذي تعرض لهن، تسمية الله لهن بأمهات المؤمنين تسمية عظيمة جدًا، إضافة، مضاف، ومضاف إليه، الجامع هو الإيمان، وهي أم للمؤمن، أما من ليس بمؤمن فلا يستغرب أن يتعرَّض لهن، ويؤمنُ أهلُ السُّنَّة بأنهن زوجاته في الآخرة لأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمره الله أن يُخيرهن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، فاتفقن جميعًا رضي الله عنهن على أن لا يخترن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زينةَ الدنيا، ولهذا لاحظ الآية بعدها؛ حرَّم الله على أحب خلقه إليه رسول الله حرَّم عليه الزواج بغيرهن ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾(٢)، يدل على ماذا؟ على عِظَمِ شأنهن، بعد أن اخترنَ النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم حرَّم الله على نبيه أن يتزوج سِواهن، لكن كما قال الله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(٣)، يعني مَنْ يتعرضون لأمهات المؤمنين رضي الله عنهم مِنْ هؤلاء الروافض وأمثالهم كأنهم لا يقرؤون القرآن، يتعرضون للصحابة مع ما فيه من الرضى العظيم عنهم وتزكية الله لما في قلوبهم ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾(٤)، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾(٥)، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٦)، أشياء كثيرة جدًا ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾(٧)، كلهم موعودون بالجنة رضي الله عنهم، لكن الفرق بينهم أن منهم من هو أرفع درجة ممن كان قد آمن قبل الفتح وقاتل فهو أرفع درجة ممن آمن بعد الفتح وقاتل، فالدرجة هي المتفاوتة، والموعودون جميعًا موعودون بالجنة، ولهذا قال أهل العلم: إن مَنْ كفرهم جميعًا أو سبّهم جميعًا يكفر، لأن هذا تكذيب ظاهر للقرآن.

---

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.
(٢) الأحزاب: ٥٢.
(٣) النور: ٤٠.
(٤) الفتح: ١٨.
(٥) الحشر: ٨.
(٦) الفتح: ١٨.
(٧) الحديد: ١٠.

ثم قال رحمه الله تعالى، ذكر مسألة بين أهل العلم، من الأفضل خديجة أو عائشة؟ من أهل العلم من يقول: خديجة أفضل، ومنهم من يقول: بل عائشة أفضل، ومنهم من يقول بالنظر إلى أول الإسلام مقام خديجة أعظم ولم تدركه عائشة، وبالنظر إلى آخر الأمر وما جعل الله تعالى على يد الصديقة رضي الله عنها عائشة من النقل العظيم لسُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ وما جعل الله تعالى من حادثة الإفك التي رفعها الله بها رفعة عظيمة قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(١)، حتى صارت آيات تُتلى في شأنه رضي الله عنها وأرضاها لا شك أن هذا الأمر يدل على مكانة عظيمة لعائشة رضي الله عنها، ولهذا قال بعض أهل العلم: يقال: خديجة رضي الله عنها أفضل من جهة البداية وعائشة أفضل من جهة آخر الأمر، فهذه أدركت مزية وهذه أدركت مزية، ومقتضى هذا الكلام هو التسوية، وقال آخرون: بل تُفَضَّلُ خديجة جزماً، وقال آخرون: بل تُفَضَّلُ عائشة رضي الله عنها جزماً، بناءً عليه تبَرَّأ أهل السُّنَّة من طريقة الروافض الذين يشتمون أصحابَ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويبغضونهم ويسبونهم؛ ومن عكسهم وهم النواصب الذين يتعرضون لآل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كالخوارج والنواصب الذين كانوا من بني مروان وأمثالهم ممن كانوا يتعرضون لهم، يَبْرَأُ أهلُ السُّنَّة من هذا كله، ويتعرضوا من طريق الروافض والنواصب على حد سواء.

الآثار التي تأتي في مساوي الصحابة رضي الله عنهم قال: هي على ثلاثة أنواع، منها ما هو كذب وهذا كثير جدًا مما كتبه الرافضة وافتروه، ومنها ما قد غُيِّرَ عن وجهه بأن يُزاد فيه أو يُنقص؛ بحيث يكون أصل الموضوع ثابتًا لكن زِيد فيه أو نقصت بعض الأمور فحذفت وبترت؛ فصار الأمر غير واضح، والصحيح الثابت هم رضي الله عنهم فيه مجتهدون، كما وقع في صفّين والجمل، هم مجتهدون رضي الله عنهم، منهم من اجتهد وأصاب ومنهم من اجتهد فأخطأ، وأهل السُّنَّة رضي الله عنهم لا يقولون: إنهم معصومون، لكن يقولون: لهم من السابقة والفضل والجهاد ونصرة الإسلام ما يقتضي بإذن الله تعالى تكفيرَ ما وقع منهم، ولا يجوز أن التعرض لما شَجَر بينهم، وهي من العلامات البيّنة، من تعرض لأي صحابي أيًا كان فهذه من علامات كونه قد خرج عن السُّنَّة ـ قال أحمد رحمه الله لَمَّا قيل له في رجل يسبّ معاوية أيصلى خلفه؟ قال: لا؛ ولا كرامة، وقال بعض السلف: معاوية رضي الله عنه سِترٌ لأصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ فمن انتهك السترَ ذهب إلى ما بعده، هم يبدؤون بمعاوية، ثم يأتون إلى عمرو، ثم من وَلَّى معاوية، ثم يقولون

(١) النور: ١١.

عثمان، ويتسلسل هذا الأمر، فالواجب أن يذكر هذا، والواقع أن الواجب على أهل السُّنَّة أن أي أحد يتعرض لأصحاب النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو لآل بيته أن تُعَدَّ هذه من جرائمه الكبار، وقد قتل السلف رضي الله عنهم الروافضَ الذين تعرَّضوا لأبي بكر ولعمر رضي الله عنهما قتلوهم قتلًا - قتلوهم بحكم القاضي؛ ليس يؤخذ فيقتل - يذهب به إلى القاضي فيحكم القاضي فيه بالقتل، كما فرح أحمد رحمه الله لما قُتِلَ الرافضي الذي كان يشتم أبا بكر وعمر، أمور عظام، إذا سُبَّ الصحابة فلا تستغرب أن يُسبّ أي أحد، إذا نِيْلَ من الصحابة لا يستغرب أن يُنال من أي أحد، ليس بعد النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحدٌ وبعد الأنبياء أحدٌ بقدر هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا من نظر كما قال رحمه الله في سيرهم عَلِمَ أنه لا كان – يعني من السابقين - ولا يكون ممن يأتي بعدهم مثل أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم رضي الله عنهم وأرضاهم وهم رضي الله عنهم غير معصومين، لكن لا شك أنه قد يقع منهم حتى من المعاصي هم على ما ذكر السابقة التي لهم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والشفاعة شفاعة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هم أحق الناس بها؛ وما قد يُبتلى به الواحد منهم كما يُبتلى أي مؤمن ببلاءٍ في نفسه أو في ماله أو في أهله، كل هذا من الممحصات التي يمحص الله بها عنهم رضي الله تعالى عنهم، فلا يحل التعرّض لهم من قبل أحد كائناً من كان.

مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، وَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

.....

ذكر بعد ذلك ما يتعلق بكرامات الأولياء، وكرامات الأولياء يُراد بها ما يجريه الله تعالى على يد المؤمنين الصالحين وهم الأولياء من خوارق العادات كما ذكر الله تعالى في شأن مريم وما وقع لها، وفي شأن أهل الكهف، وما أبقاهم الله تعالى به مع أن الشمس كانت تُمَال وتُبعد عنهم بأمر الله تعالى قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾(١)، فقد يجعل اللهُ تعالى في هذه الأُمَّة، ووقع أيضًا في الأمم السابقة، ووقع في الصحابة رضي الله عنهم ووقع ولا يزال يقع من كرامات الأولياء، والأولياء كما في القرآن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٢)، المؤمن المتقي هو ولي لله تعالى، ثم يتفاوتون في مقدار الولاية، فقد يجري الله تعالى على أيديهم شيئًا من هذه الخوارق سواءً من العلوم أو من القُدَر بأن يُقْدِرَ اللهُ تعالى هؤلاء على ما شاء إما بإكرام محض وإما لحاجة أو لنصر الدين؛ فيجري الله تعالى على أيديهم ما هو من الخوارق، وهذه الخوارق التي تقع للأولياء هي آيات للأنبياء، لأنه لولا ولايته واتّباعه لهذا النَّبيّ لَمَا وقع له ما وقع، فتكون دليلًا وآية من آيات الأنبياء، وهي موجودة إلى يوم القيامة، والتفصيل غير وارد الآن لأن الوقت أزِفَ.

(١) الكهف: ١٧.
(٢) يونس: ٦٢، ٦٣.

صِفَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا سُمُّوا: أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ.

.....

ذكر بعد ذلك أن طريقة أهل السُّنَّة مع هذه الآثار الآتية عن النَّبيّ عليه الصّلاة والسّلام هي الاتباع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١)، ويطاع باطناً وظاهراً حقاً، كل إنسان يطبق سُنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو مخلص، هذه هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة واتباع سبيل السابقين الأولين رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾(٢)، فلهم سبيل رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، كانوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على هدي وسُنَّة وسبيل، فمن يأتي بعدهم يسلك سبيلهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ولا سيما مع وصية النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «عليكم بسنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين» إلى آخر هذه الأحاديث.

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) النساء: ١١٥.

وأهل السُّنَّة يُؤثِرون كلامَ الله تعالى على غيره، إذا جاء الأمر عن الله عزّ وجلّ فكل ما خالَفَه يُضرب به عرضَ الحائط، الوحي العظيم هذا القرآن والسُّنَّة لا يمكن أن ينهض شيءٌ أمامها ولو كان القائل من كان في دينه أو عِلْمِه أو ما يُدعى من عِلْمِه ومعرفته، ما دام قد جاء بكلام مقابل للوحي؛ فإن كلامه مردود عليه كائنًا من كان، لهذا سُمِّيَ أهل السُّنَّة بهذا الاسم، أهل الكتاب وأهل السُّنَّة هم هؤلاء، هذه الفرقة العظيمة الناجية هم المستمسكون بالكتاب والمستمسكون بالسُّنَّة، وهم أهل الجماعة لأنهم أحرص ما يكون على الجماعة - جماعة المسلمين - وعدم فُرْقَتِهَا.

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن الإجماعَ هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، نحن نعرف الدين عقيدة وشريعة من خلال هذه الطرق الثلاثة: القرآن والسُّنَّة والإجماع، وأي إجماع؟ قال: هو إجماع السلف، لأن اجماع السلف هو المنضبط الذي يُمكن أن تضبطه وتدرسه وتجد الآثار فيه، أما بعدهم فقد انتشرت الأُمَّة وكثر الاختلاف.

بَيَانُ مُكَمِّلَاتِ الْعَقِيدَةِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالْجُمَعِ، وَالْأَعْيَادِ؛ مَعَ الْأُمَرَاءِ؛ أَبْرَارًا كَانُوا، أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلْأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»، وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالْبَغْيِ وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سِفْسَافِهَا، وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوْ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ؛ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً؛ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ: أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى؛ أُولُوا الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ.

وَفِيهِمُ: الْأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّيْنِ؛ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَة؛ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَنْ لَا يَزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى محمد وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

.....

رحمة الله عليه، معظم ما في هذا واضح، المقصود به أن أهل السُّنَّة أناس كالغيث حيث وقع نفع، فهم مع جيرانهم، مع والديهم، مع أقاربهم، على أحسن ما يكون من التعامل، وهذا جانب مهم كبير للغاية في المستمسك بمذهب السلف، مذهب السلف مذهب تطبيق، وللسلف رضي الله عنهم مذهب عظيم في الخلق، فهم أهل أخلاق عالية، ولهذا تجد الملتزم لمذهب السلف ليس سفسافًا قذر الأخلاق أبدًا، ولو كانت عقيدته صحيحة! لكن نقول: هذا المنهج ليس منهج السلف، السلف ليسوا أهل قذارة في الكلام رضي الله عنهم وأرضاهم، فانت أخذت جانبًا وتركت جانبًا، السلف أعظم الناس خلقًا رضي الله عنهم وأرضاهم، هذا المذكور هنا من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ونصيحتهم وأمرهم بالصبر والرضا بمُرِّ القضاء والشكر عند الرخاء، هذه كلها مسائل تطبيقية، فتجدهم كالغيث حيثما وقع نفع، مع جيرانهم، مع أقاربهم، مع والديهم، على أحسن ما يكون من التعامل، ثم هم أهل رفعة بعيدون عن السفساف والشيء الرديء من الأخلاق، لأن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها ورديئها، فالمستمسك بمنهج السلف حقًا بعيد عن الأخلاق القذرة والأمور الدنيئة التي لا يليق أن يتصف بها ذو الهِمَّة السليمة والمؤمن السوي العاقل.

ذكر مسألة وهي أن أهل السُّنَّة ملتزمون بإقامة فرائض الله من حج وجمعة وعيد مع الأمراء، لأن الأمراء الأصل أنهم هم من يقيمون هذه العبادات إلا أن يُنيبوا غيرهم أبرارًا كانوا أو فجارًا، إذا كانوا أبرارًا فهذا واضح، أما الفجار فإنها تُقام معهم، لأنه لو قيل: لا تقام الجمعة مع الأمير الفاجر أو لا يُحَجُّ لأن الأمير الذي يقيم الحج فاجر؛ لتعطلت هذه العبادات، ولهذا أُمِرْنَا بأن نقيمها معهم أبرارًا كانوا أو فجارًا، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»، فيُلْتَزَم هذا الأمر

ويُلْتَزَم أن الله تعالى جعل لهم الولاية فيطاعون بالمعروف، وإذا أمروا بمنكر أو معصية يُرَدُّ عليهم ولا يُقبل منهم، لكن كما تقدم أهل السُّنَّة أهل جماعة لا يُخربون بيوتهم بأيديهم ولا يدمرون بلادهم، والمنكرات الموجودة في الجماعة يُصلحونها ويسعون فيها كما كان السلف رضي الله عنهم يصلحون، كان زمن بني أمية كان يُسب عليٌّ رضي الله عنه سبا صريحًا، وكان يُسبّ على المنابر، وكان السّلف رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين من أدركوا هذا، كانوا يُنكرون هذا؛ لكن ما دمروا دولة بني أمية، مع أن هذا منكر عظيم أن يُتناول أبو الحسن رضي الله عنه، لكن أُنكِرَ على الأمراء الذين كانوا يجهرون بهذا حتى أتى الله بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ فأنهى هذه البدعة وهذه الضلالة، لكن كان علماء السُّنَّة ينكرون المنكرات ويأمرون بالمعروف ولم يَروا أن مثل هذا موجب لتدمير الدولة ولتدمير البلاد، لأن هذه جماعة المسلمين هي في ذمة الحاكم وفي ذمة المحكوم؛ أن يتقوا الله تعالى فيها؛ وأن تبقى قوية، ليس المراد فقط أن لا تُدَمَّر، المراد أن تبقى قوية حتى لا يطمع فيها عدوك، ولهذا قال: إنه تؤدى هذه الفرائض معهم حتى لو كانوا فُجّارًا؛ ففجورهم عليهم.

من ذلك ما ذكره من أن أهل السُّنَّة يدعون إلى مكارم الأخلاق، أمر واضح، لكن قال: إن أهل السُّنَّة ينهون عن الاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ما معنى الاستطالة بحق، يعني تارة يكون المستطيل على الناس ليس شيئًا ولا يساوي شيء وليس عنده ما يستوجب أن ينفخ نفسه ويبغي على عباد الله، لكن بعض الأحيان يكون عند الإنسان ما يكون نوعًا من المَحْمَدَة كأن يكون ذا علم فأهل السُّنَّة ينهون طالب العلم والعالِمَ أن يستطيل بعلمه، الذي عنده حق مما يرفعه الله كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(١)، العلم رفعة، لكن ليس لك أن تستطيل بالعلم، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحدٌ على أحد»، لا تبغ لأن الله أكرمك بالعلم، ولا تطغ، بل العلم في الواقع يحث صاحبه على أن يتقي الله عزّ وجلّ وعلى أن يتواضع لله تعالى.

ثم قال كلمة من أجمل ما في هذه العقيدة، أعطاك فيها باختصار شديد في أقل من سطر عقيدة أهل السُّنَّة، لو قيل لك أَجْمِلْ عقيدةَ أهل السُّنَّة، ماهي؟ تقول: عقيدةُ أهل السُّنَّة ما في القرآن والسُّنَّة، ولهذا قال: وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا صلّى الله عليه وسلّم، فأهل السُّنَّة ليس عندهم أئمة

(١) المجادلة: ١١.

يبتدعون لهم بدعًا بحيث يتطور هذا المذهب فيكون في زمن على حال وفي زمن آخر على حال، لهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في أئمة السُّنَّة قال: أئمة السُّنَّة هم أئمة للسُّنَّة لأنهم مظاهر ظهرت فيهم السُّنَّة، وأئمة المبتدعة أئمة للبدعة لأنهم مصادر صدرت عنهم البدعة، ولهذا نَبَّل أئمة السُّنَّة لأنهم مستمسكون بالسُّنَّة.

فطريقة أهل السُّنَّة في ختام هذه العقيدة هي الإسلام الذي بعث الله محمدًا صلّى الله عليه وسلّم، وأين تجد الإسلام الذي بُعث به محمدًا صلّى الله عليه وسلّم؟ في القرآن والسُّنَّة، فما عقيدة أهل السُّنَّة؟ هي العقيدة الموجودة في القرآن والسُّنَّة.

قال: وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون وذكر أن فيهم الأبدال، ما المراد بالأبدال؟ المراد بالأبدال العلماء العُبَّاد، سُمُّوا بالأبدال قالوا: لأنهم إذا مات أحد من هؤلاء أبدلَ اللهُ عزّ وجلّ الأُمَّةَ وعوَّضَها منه بديلًا.

نسأل الله أن يُثَبِّتَنا بالقول الثابت على منهجهم وأن لا يُزيغنا في الزائغين، ونعتذر عن الأسئلة، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.